عزيزي القارىء

مرت الآن خمس سنوات على انهيار البيريسترويكا وحكم غورباتشوف وتفكك الاتحاد السوفييتي. ومن وسط هذا الركام تبرز روسيا كوريثة لذلك الاتحاد لإرث روسيا القيصرية بكل ما يحمل ذلك الإرث من إمكانات قوة ونقاط ضعف وتناقض وصراع.

ولا يزال الوقت مبكرا لاتضاح رؤية مستقبل روسيا، ولكن خمس السنوات المنصرمة كانت كافية لإبراز ملامح معينة في النظام الجديد، قد لا تكون أساسية في تكوين روسيا القرن الحادي والعشرين، ولكنها، في رأي الكثير من المراقبين، ستشكل ملامح هذه الدولة وعلاقاتها الخارجية خلال السنوات القادمة، وملف هذا العدد محاولة لإلقاء الضوء على بعض هذه الملامح.

ولقد مهدنا للملف بنقل وقائع حوار مائدة مستديرة عقد في موسكو تحت عنوان «عشر سنوات.. لأجيال مختلفة» ولقد اشترك في هذا الحوار ممثلون لمختلف العناصر التي ساهمت في خلق الوضع الحالي لروسيا من سياسيين وعلماء وشخصيات ثقافية وصحفيين من أجيال مختلفة واتجاهات فكرية متباينة: ديمقراطيين وشيوعيين، أنصار الأساليب الجذرية، وخصوم تجربة الصدمة، أشخاص وقفوا مع غورباتشوف وأشخاص ناصبوه العداء. ويعطي الحوار فكرة عن عمق الانقسام الذي تسببت فيه الأحداث الأخيرة وخطورة الأزمة التي كان الاتحاد السوفييتي يمر بها قبل انهياره.

وفي بقية المقالات يستعرض الملف ويحلل مجموعة من القضايا المهمة على الساحة الروسية، كقضية الديمقراطية ومعالجة الرئيس يلتسين لقضايا الصراع السياسي والإصلاحات الاقتصادية. كما يتطرق الملف لبعض القضايا الخطيرة كالجريمة المنظمة وتزايد العنف. ولقد اخترنا كذلك أن نعرض وجهة نظر أجنبية للكاتب الأمريكي تشارلز فيربانكس حول ما يجري الآن على الساحة الروسية وطريقة التعامل معها. ويثير هذا الكاتب مجموعة من الأسئلة الذكية التي قد لا تخطر على بال المراقب العادي، وهو يشاهد أحداث جمهورية الشيشان وجنازات ضحايا العنف في موسكو.

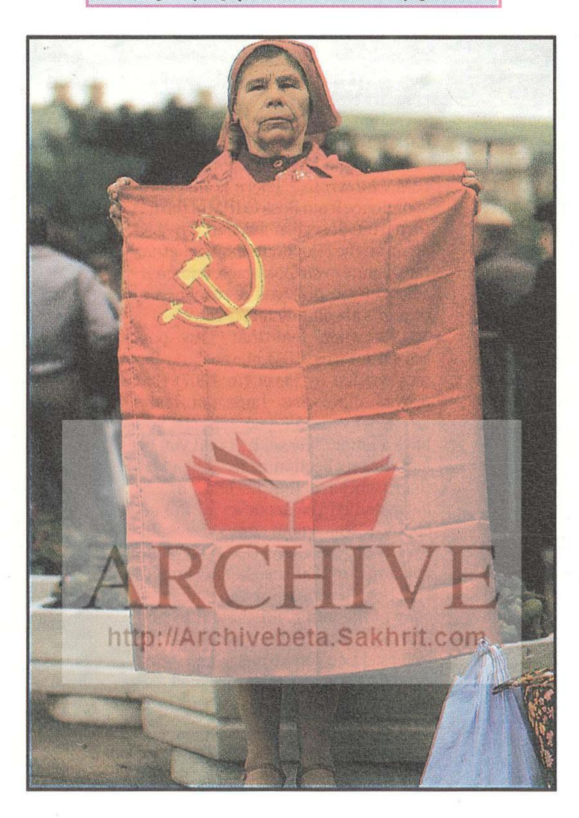
ولقد اختتمنا الملف بدراسة حول التأريخ للحرب الباردة، ينتقد فيها الكاتب سياسة الغرب خلال تلك الفترة ويردد فيها مقولات طالما قالها مواطنو العالم الثالث أيام اشتداد الصراع بين المعسكرين في تلك الحرب. وللخروج من دوامة الصراع والعنف والتغير نقدم للقارىء نقطة من الجمال الروسي الدائم: دراسة في رواية تشيخوف الخالدة «الخال فانيا».

وكما عودنا القارىء نقدم في هذا العدد مجموعة من الموضوعات المتنوعة قد يكون أكثرها متعة دراسة حول الأصول الأفريقية للحضارة اليونانية. ودراسة حول الخطر المزعوم على رخاء العالم الأول جراء التنمية الاقتصادية التي تشهدها بعض مناطق العالم الثالث. هذا بالإضافة إلى الموضوعات الثابتة كحوار العدد وباب كتب جديدة.

رئيس التحرير

عشر سنوات لأجيال مختلفة

ترجمة: عاطف أبو جمرة



وهكذا انعقد مؤتمر «عشر سنوات ــ لأجيال مختلفة»، ليصبح كما نأمل، حدثا متميزا في الحياة الاجتماعية في أيامنا هذه.

لقد جمعت فكرة الحوار المفتوح التي طرحتها «قيادات» صحف ثلاث على قدر كبير من التباين، والتي استُقبلت في البداية ببعض الريبة، جمعت حول «مائدة مستديرة» في دار بلدية العاصمة! سياسيين وعلماء وشخصيات ثقافية وصحفيين. جمعت أجيالا مختلفة واتجاهات فكرية متباينة - ديمقراطيين وشيوعيين، أنصار الأساليب الجذرية وخصوم تجربة الصدمة. جمعت أولئك الذين وقفوا مع غورباتشوف عند منابع البيريسترويكا، والذين دخلوا ميدان السياسة الواسع راكبين موجة البيريسترويكا. منهم من يرى فيما بدىء منذ عشر سنوات عملية مبدعة لإجراء تغييرات عميقة ومنهم من يرى، بالدرجة الأولى، النتائج السلبية بل الكارثية للتغيرات الكبيرة.

أحداث السنوات العشر الأخيرة دفعت بالكثيرين إلى الوقوف على جانبي الخندق المتقابلين. وهذا اللقاء أتاح لهم إمكان النظر في أعين بعضهم البعض، وإمكان الإعراب بصراحة وبلامواربة عن تقييماتهم ووجهات نظرهم مباشرة وبمواجهة خصومهم السياسيين. وقد تبين أن الحوار المباشر ممكن، على الرغم من كل الخلافات ومن تطرف اختلاف الآراء، دون اللجوء أبدا إلى العبارات اللابرلمانية.

العنوان الأصلي للمقال: ПОЛИТИЧЕСКАЯ ДИСКУССИЯ 10 лет для разных поколений

مراجعة: هيئة التحرير

نحن بعيدون جدا عن الاعتقاد بأن الحوار قد مكن من تجاوز أو حتى تخفيف الخلافات. كلا، فالخلافات عميقة جدا وتحمل طابعا جذريا في تباين النظرة إلى الأمور. إلا أنه واضح جدا أن البرهان على صحة الرأي يكون أفضل حول مائدة مستديرة، أو حول مائدة حادة الزاوية، من البرهان على هذه الصحة من وراء «خط النار» وبوساطة الدبابات وقصف القنابل. ونحن كلنا أمل في ألا تكون الصحافة التي تستخدم عادة لتأجيج المشاعر مجرد وسيلة إعلام جماهيري، بل أن تكون أيضا وسيلة لتواصل الناس، وهذا يعني مساعدتهم على فهم بعضهم البعض ودرء أي تفجر دموي جديد والحيلولة دون قيام حرب أهلية ودون جر البلاد إلى التسلط والديكتاتورية.

على كل حال حبذا لو يتحقق ذلك.

الكساندر إيلين (البرافدا)، فيكتور لوشاك (موسكو فسكيه نوفوستي)، بافل غوسيف (موسكوفسكي كومسوموليتس).

تطرق المشاركون في حوار «المائدة المستديرة» لطائفة من قضايا تاريخ البيريسترويكا والوضع الراهن. وهذا عرض موجز لآرائهم.

نيكولاي ريجكوف

نعم، أنا أنتمي إلى ذلك الجيل الذي بدأ البيرويسترويكا. وهذه السنوات العشر التي نتحدث عنها يجب ألا تحمل تسمية واحدة وفهماً واحدا. أنا أرى أن هذه السنوات العشر التي جلبت إلى بلادنا تغييرات كبيرة ينبغي أن تقسم إلى مرحلتين: الأولى هي «البيريسترويكا»، أي تلك الإصلاحات التي أطلق عليها في العام 1985 اسم «بيريسترويكا» «إعادة البناء»، والمرحلة الثانية هي فترة ما بعد العام 1991، وأنا لا أعرف بماذا أسمي هذه المرحلة ــ الثورة المضادة، أم سنوان النحس، أم الزمن المشوش، ولكن ما أعرفه أنها ليست أبدا «إعادة بناء».

إذا أردنا أن نتحدث عن البيريسترويكا، ينبغي أن نقول إنها بدأت في العام 1983، وقادها الأمين العام للحزب الشيوعي السوفييتي أندروبوف.

السؤال الثاني: أكانت البيريسترويكا ضرورية؟

أنا أرى أن البيريسترويكا كانت ضرورية. فقد نضج المجتمع من أجل تلك التغييرات التي كانت تُنتظر من البيريسترويكا. كانت التغييرات تقرع الأبواب.

أول ما كان يحتاج إلى التغيير هو الاقتصاد. نظام التوزيع المخطط القاسي الذي ساد البلاد قبل الحرب وأثناءها وبعدها فعل فعلا كبيرا، إذ مكن من تعبئة الموارد في الزمن الصعب. ولكن أصبح واضحا تماما في العام 1985 أن لا شيء يمكننا من إعطاء الاقتصاد قوة دفع جديدة إلا نموذج اقتصادي جديد.

أهداف البيريسترويكا: ينشر الكثير الآن

حول أن البيروسترويكا كانت تفتقر إلى دفة واتجاه معين. هذا صحيح، لكنه ليس الحقيقة الكاملة. هناك حقيقة واحدة هي أن أهداف البيريسترويكا قد صيغت بدقة في اجتماع كانون الثاني 1989 الموسع. في تلك الصياغة لم يرد أي حديث عن أننا نريد الابتعاد عن البناء الاشتراكي. لم يرد هذا أبدا في أي مكان. بل على العكس. ورد في تلك الصياغة أنه يجب تطوير الاشتراكية. ولم يرد أي حديث عن أنه ينبغي تدمير الحزب وتدمير الدولة الواحدة.



إلا أن ما حدث هو غير ذلك. لقد غدر بهذه الأهداف، وراحوا يبتعدون عنها.. ما الأسباب التي أدت إلى الجنوح جنوحا حادا في اتجاه مغاير في منتصف مرحلة البيريسترويكا؟

السبب الأول هو أن غورباتشوف كقائد للحزب وأمين عام له ورئيس للدولة بدأ عمليا بعد العام 1987، أي في العام 1988 والأعوام التي تلته، بدأ ينحرف عن المبادىء وعن الأهداف التي رسمت.

السبب الثاني هو أن المعارضة التي ظهرت في الأعوام 1989 و1990 اغتالت البيريسترويكا، في صراعها من أجل السلطة.

السبب الثالث هو، طبعا، العامل الخارجي. ولا أريد اليوم أن أذكر أسماء، إلا أننا نعرف جميعا أن عشرات الناس سافروا إلى الولايات المتحدة لتلقي التعليمات.

هذه برأيي الأسباب الرئيسية التي أدت في العام1991 إلى أن توصي لكم البيريسترويكا بطول البقاء من بعدها. وأنا، الذي كنت إذ ذاك رئيسا للحكومة، أستطيع القول إنه حتى العام 1989 كانت بلادنا تتطور تطورا مستقرا راسخا بل حتى العام 1990، عندما راحوا يزعزعون أركان الدولة، عندما انتشرت الفوضى في البلاد، عندما لم تعد نافذة أية قوانين وعندما أعلنت روسيا استقلالها وسيادة قوانينها، وحذت حذو روسيا أوكرايينا ومنطقة البلطيق والجمهوريات الأخرى.

غافريل بوبوف

أنا أتصور أن هناك عاملين يحددان الآن ماهية هذه «المائدة» وكل الأمور الأخرى.

العامل الأول، هو أن المصاعب والمشاكل قد وصلت إلى درجة تشكل الآن تهديدا بأزمة. هذا الوضع ينسحب على الشؤون الاقتصادية وشؤون الآلية السياسية

وينسحب على الجانب الاجتماعي، وينسحب أخيرا على العلاقات القومية.

العامل الثاني، يكمن، كما أظن، في أنه لا توجد الآن في روسيا، مع الآسف، قوة سياسية قادرة على الحصول بسرعة وبشكل ثابت على أكثرية أصوات الشعب، وقادرة على تولي شؤون البلاد خلال فترة كافية، إضافة إلى ذلك، علينا أن نفترض أن ما سينشأ هو نوع من التعددية في المواقف يعكس الوضع المعقد في البلاد. وتخطي هذه التعددية بالطرق غير الديمقراطية (وهنا أنا متفق تماما مع نيكولاي إيفانوفيتش ريجكوف، حول أنه ستقوم مثل هذه المحاولات) سيكون خطأ فاحشا.

التصور الثالث، هو أنه بدأت تتكون - كما يبدو لي — فجوة كبيرة بين أمزجة الجماهير العريضة وحالة النخبة في المجتمع. أنا أرى أن الميل إلى الفهم والتوافق وما إلى ذلك قد نما كثيرا لدى الشعب. أما ما يتعلق بفئة نخبة المجتمع فإن هذا يظل إلى درجة كبيرة متوقفا على ما يحدث في البلاد.

والموقف في شيشنيا، مثلا، يعد بالنسبة لي مؤشرا. فمن كان ينوي تحريك العامل الشيشاني كان يراهن حتما على أن الشيشان سيكونون غير بعيدي النظر وسيبدأون القيام بعمليات إرهابية في كل أرجاء البلاد، فيقدمون بذلك الحجة من أجل فرض بعض الإجراءات الجذرية. وقد أظهر الشعب الروسي نضجا هائلا في فهم إلى ما ستنتهي هذه الأمور.

تحليل الوضع الراهن: أنا لا أستطيع القول يا إيفان نيكولا يفتش، أن هذا الوضع حالة فوضى. أنا أعتقد أن ما يتحقق الآن هو نهج تنسجم بشأنه كل وجهات النظر. نهج التحم فيه وتوحد والتأم أمران مختلفان تماما، أولهما عجز قسم واحد من البيروقراطية الروسية عن البقاء، بقواه الذاتية، في السلطة، وثانيهما استعداده للتنازل أمام القوى الخارجية لكي يظل في السلطة. والجميع بين هاتين العمليتين هو الذي يحدد - برأيي — جوهر السياسة الحالية. وهنا أنا أتفق معك يا نيكولاي إيفانوفيتش، تماما حول أن هذه السياسة يجب أن تتوقف، هذه مهمة مشتركة لكل القوى السياسية على اختلاف توجهاتها.

ما العمل مستقبلا؟ هنا، على ما يبدو لي، تبرز مجموعتان من المشاكل:

المجموعة الأولى تتعلق بتوجهات مستقبل روسيا خلال مرحلة محددة تماما. وهنا يوجد، كما أعتقد، ما يكفي من نقاط الالتقاء. نحن جميعا نلتقي عند نقطةأن روسيا يجب أن تظل دولة عظمى.

المجموعة الثانية من المشاكل هي ضرورة الحوار حول المسائل التي سيترتب على أي حكومة تصل إلى الحكم تحقيقها.

المسألة المهمة جدا بالنسبة لي هي مسألة أين يجب الحصول على الموافقة — أي مسألة الانتخابات.

ستانيسلاف فيودوروف

في ظل الاشتراكية فشلت محاولة بناء

الاشتراكية على قاعدة من العمل المأجور شبه العبودي. في البداية سارت المحاولة بشكل طبيعي لأنهم يكذبون وينافقون: غداً ستأتي الشيوعية. وعندما فقد الناس الإيمان بالشيوعية انهار هذا النظام. انهار ولكنه أبقى، كالسابق، المأجورين وحيدين في مواجهة آلاتهم ومدرائهم، الذين يسرقونهم، كما في السابق. ليس مهما أكان هذا المدير مالكا خاصا أو حكوميا، أم مساهما اشترى رزمة من الأسهم.

وإني أرى أن الخصخصة التي جرت اليوم لم توحد الإنسان مع نتاج عمله، لقد وحدت ثانية ما بين الصفوة السياسية وأدوات الإنتاج. إلا أن الصفوة السياسية، عادة مؤلفة من غير المحترفين.

إننا نسير اليوم إلى الكساد العظيم، الكساد الذي ساد في العام 1933 في الولايات المتحدة الأميركية. وأسباب هذا الكساد هي نفسها تقريبا ـــ هي الاسعار الحرة للمحتكرين، هي النهب وعدم إمكان خلق ناتج نهائي قادر على المنافسة في السوق العالمية بجودته وبسعره. إذ ذاك كان فرانكلين ديلانو روزفيلت الوحيد الذي توصل إلى الاستنتاج اللازم ـ عندما قرأت أنا عن هذا الأمر أخذتني الدهشة ـ فهو لم يدع إلى إدخال تكنولوجيا جديدة أو إلى تغيير الصفوة، أو إلى إعدام أو شنق البعض، بل قال: لا، تعالوا نسنّ قانونا للمنافسة النزيهة...

ليست الدولة من يفترض به أن يشتغل بالاقتصاد، بل الناس، المنافسون والمحترفون والأطباء والمعلمون والخراطون والحدادون والمهندسون. هؤلاء هم أساس الاقتصاد. عليهم أن يرغبوا بالعمل الجيد. اليوم، لا يريدون ذلك لأن ذلك ليس في مصلحتهم.

قصف البرلمان الروسي نقطة تحول أخرى في مسيرة الديمقراطية في روسيا

فاديم باكاتين

مـــرت عشر سنـــوات على ولادة البيريسترويكا، وقريبا يكون قد مضى أربع سنوات على موتها.

اليوم يوجد الكثير والكثير جدا من الإجابات عن سؤال: لماذا حدث هذا؟ ولكن يكاد لا يوجد إلا جواب واحد عن السؤال المعروف: من المذنب؟ من هو المذنب؟ هذا السؤال يطرح دائما في زمن الإخفاقات. المذنبون هم البيرويسترويكيون وغورباتشوف. هذا الجواب في الواقع جيد.

أنا لا أعتقد أنني خنت غورباتشوف في وقت من الأوقات، إذ كنت دائما في فريقه منذ أيام البيرويسترويكا الأولى. ومع ذلك فأنا مستعد أيضا أن أذعن لجنون أولئك الذين يريدون التهرب من المسؤولية، وأنا موافق عموما على أن جيل البيريسترويكيين هو المذنب وغورباتشوف كذلك، ولكن يجب أن نعرف فيمَ يكمن الذنب.

تاريخ البيريسترويكا بسيط ومعقد في آن واحد. تاريخ البيريسترويكا بسيط لأنها كانت طبيعية وضرورية موضوعيا. بدأت بداية سهلة ودون تصنع، دون أية خطط ودون أية مخططات. لكنها عادت لتطرح الشعارات، الشعارات الثورية. البيريسترويكا ـــ ثورة. هكذا اعتبروها. «اشتراكية أكثر» ولكن لا يوجد مسمار واحد.

انهزم غورباتشوف وانهزمنا في هذا الصراع (انا لا أزال أعد نفسي ضمن فريقه) الذي كان يفتقر إلى القواعد والضوابط. انهزمنا لأننا خسرنا، بالدرجة الأولى، الحزب. (أسباب الهزيمة كثيرة ولكنني أتحدث عن أهمها) إذ أن أولئك الناس الذين كانوا يرغبون في أن يروا في الحزب آلية من أجل الانتقال السلس إلى المجتمع الجديد، الجديد كليا، المجتمع الاشتراكي الديمقراطي بعمق، أولئك الناس لم يتمكنوا من تحويل البرنامج إلى أهداف اشتراكية ديمقراطية، بل غاصوا في مشاكل إشاعة الديمقراطية في الحزب التي لم تكن تهم أحدا ولم تكن لازمة لأحد.

إلا أنني، مع مرور الزمن، أزداد قناعة بأن البيريسترويكا كانت قادرة على الاستمرار، كانت قادرة على أن تكون فعلا إعادة للبناء، كانت قادرة على أن تخرج من سلسلة الأفعال الانفعالية ومن الهيولية إلى طريق مراقب وواضح أكثر وأقدر على التحكم بالسير نحو الديمقراطية، لو لم تفقد «مجموعات الرفاق» السيطرة على أعصابها، ولو لم تحدث محاولة ذلك الانقلاب العجيب. لقد أخطأ غورباتشوف وخدع في تقدير دوافع ومصالح ونوايا قادة الحضارة الغربية. لقد بالغ في تقدير درجة حريتهم واستقلاليتهم عن الناخبين، ولم يقيم تقييما كافيا أنانية رجال الأعمال الحرة والمنتجين، التي لا يمكنهم التخلص منها.

أناتولي لوكيانوف

هل كانت البيريسترويكا ضرورية؟ نعم.

وأنا أستطيع أن أؤكد أن هدف البيريسترويكا الذي أعلن منذ بدايتها هو تعزيز الاشتراكية وتمتين البناء السوفييتي وترسيخ اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية. أما كيف جرى العمل لتحقيق هذه الأهداف، فهذا أمر آخر.

أكان من الممكن إجراء الإصلاحات مع إضعاف نظام الإدارة؟ أنا أرى أن هذا لم يكن ممكنا. فكلما خطت البيريسترويكا خطوات أبعد ازداد ضعف نظام الإدارة، ولم يقدم إحداث منصب رئيس الاتحاد شيئا. وفي النهاية ـ وأنا هنا متفق مع فاديم فيكتوروفيتش باكاتين ـ كان من المستحيل المراهنة، ولا بأي حال من الأحوال، على دعم خارجي ذي هدف واحد. في هذه الحالة تحولت البيريسترويكا من التحسين والإصلاح ـ ولنقل صراحة ـ إلى ترميم الرأسمالية في مرحلة التراكم الأولي لرأس المال.

أكان هناك من مخرج؟ أنا أرى أنه كان يوجد مخرج. كانت هناك الاقتراحات التي قدمها مجلس الوزراء ونيكولاي إيفانوفيتش ريجكوف في اجتماع المكتب السياسي، حول مرحلة مختلفة تماما، حول فترة مختلفة تماما، حول وتيرة مختلفة للتغييرات. جدوى ومدى نجاح تلك المعالجة تثبتهما تجربة بلدان أخرى وبخاصة الصين.

على ماذا حصلنا؟ من وجهة النظر الجيوسياسية، دفعت البلاد إلى المؤخرة. منذ فترة وجدت بعض معطيات الباحثين الألمان، الذين يقولون إن روسيا تراجعت إلى المركز المئة من حيث سلامة قدراتها الاقتصادية.

يلتسين وحسبولاتوف: هل انتصر الرئيس؟

لا يجوز أن نقول إن علينا أن نقسم بشكل من الأشكال هذه السنوات العشر إلى أقسام وأن نضع بينها حدودا. في الفترة الأخيرة زرت 29 مدينة وفي كل مكان يدور الحديث نفسه، والعويل نفسه: لقد دفع بالعمال إلى الخلف، وسيتبع ذلك انهيار آخر هو تدمير البنية التحتية التي كانت تحيط بالكولخوزات واقتصاديات القطاع العام.

ماذا علينا أن نفعل؟ نحن نرى أن القوى السليمة في المجتمع يجب أن تفعل كل ما بوسعها لتغيير الوضع. المقصود بهذا هو تشكيل حكومة ثقة شعبية، وضرورة التقيد التام بالدستور وإجراء انتخابات.

الكساندر سالوتسكي

أنا سأتحدث عن النتائج الاجتماعية – الجماهيرية لهذا العقد، ولا أقصد هنا الطبقة العليا، بل أقصد نسبة الـ90٪ من السكان.

لم يعر علماء الاجتماع الحزبيون مسألة صراع الأجيال الذي يبرز عند منعطفات الأزمنة أي اهتمام. ربما كان هذا الصراع هو تلك العصي التي عرقلت دوران عجلة البيرويسترويكا.

لنأخذ ذلك الجيل الذي كان، حتى العام 1985، قد استنفذ احتياطيه من النشاط الحياتي. إنه جيل مسروق ومن حسن الحظ، أن لدى هذا الجيل يوجد مأوى.

ولنأخذ الجيل الذي أصبح في مقتبل عمره القوة المحركة للبيريسترويكا، والمتمثل بفئة المثقفين العلميين التقنيين. ماذا حصل لزيلينوغراد، وللمثقفين ولهذا الجيل؟ – وجود فقير شبه متسول ،وتهديد بالبطالة. أما بشأن مسألة من سيجني ثمار البيريسترويكا، فان الرأي القائل إن الشباب قد تلاءموا بشكل أفضل مع الزمن الحديث، ماهو الا سخرية شريرة. والعكس هو الصحيح – لقد بيع ونهب كل شيء قبل هذا الجيل.

الأنظمة الديكتاتورية تلقي دائما بالتبعية على الاجيال التي تقطف ثمار الهزات الكبيرة المرة، مدمرة أولئك الذين أعدوا لهذه الهزات وقاموا بها. وحتى العام الألفين سيدرك المحرومون إدراكا تاما مأساتهم ومأساة جيلهم وستصبح جمهرة هذا الجيل في موقف حرج جداً وستنمو موضوعيا الفاشية في روسيا. أما الإجراءات اللازمة للحيلولة دون مأساة عام الألفين المحتملة فهي كثيرة، سأتذكر واحدا منها يرتبط ارتباطا مباشرا بمنظمي هذه «المائدة المستديرة».

الجيل المحروم غارق في بيئة جرائدية تلفزيونية لغوية مشوهة للنفوس فعنوان الصفحة الأولى «الشيوعيون ـ اللواطيون» وهذا في ضوء ما قلته ليس سياسة، بل خطوة نحو تدمير المجتمع ذاتيا، فظائع شيشنيا، بطريقة عرضها الحالية، لا تثير التعاطف، بل تعلم العنف.

وزمننا الآن هو زمن الانتقال من التشويه النفسي إلى المعالجة النفسية. على حرري الصحف الكبرى أن يبرموا ميثاقا غير معلن بشأن استراتيجية لغوية أكثر هدوءاً.

يغور غايدار

أظن أن كل الموجودين في هذه القاعة قد حصلوا على معارف ماركسية، والكل يعرف أن الاشتراكية هي بنية موجهة نحو التقليص الأقصى لدور الملكية الخاصة. فالصناديق والتقييدات والخطط والتوجيهات ـ هي كلها جزء لا يتجزأ من هذه الحياة المصغرة. وواضح أيضا أية مسائل تحل هذه البنية بشكل جيد.. مثل تسريع التصنيع على حساب السحب المكثف للموارد من القطاع الزراعي.

عندما تنضب الموارد وتنتفي إمكانية توزيع الموارد الناتجة من القطاع الزراعي تبدأ أزمة الاشتراكية التقليدية كأسلوب لا سلعي «تنتفي فيه الملكية الخاصة» لإدارة الاقتصاد. بعد موت ستالين مباشرة جاءت فترة استطاعت فيها النخبة السوفييتية أن تحول التطور برفق باتجاه ذلك الطريق الذي راح يسمى فيما بعد، أي بعد عدة عقود «الطريق الصيني»، ومن المؤسف أن إمكانية إعادة الترتيب برفق أو إمكانية إعادة الترتيب «المجرية» العنيفة قد فوتتا، كما تعلمون.

إن الأزمة الاقتصادية الحالية هي بلا أدنى شك أزمة جدية وإحدى أكبر الأزمات في تاريخ روسيا، التي لا تمكن مقارنتها إلا بأزمة فترة الحرب الأهلية. إنها ثمن العجز عن تأمين الدعم السياسي الحاسم والمستمر للسياسة الإصلاحية في ظروف الانهيار التام لنظام الإدارة القديم.

يجب أن تكون لدينا صورة دقيقة عن أن استمرار التطور الاقتصادي في روسيا وحل المشاكل الاجتماعية متوقف على عامل واحد - متوقف على الادخارات والاستثمارات الخاصة.

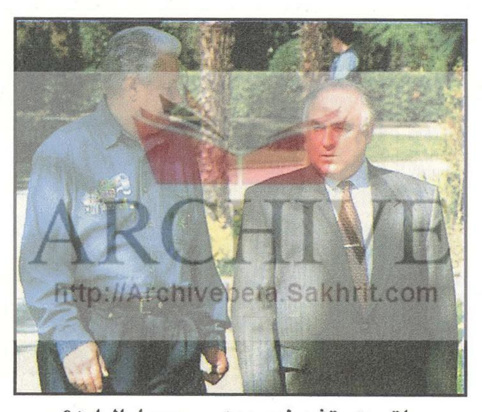
يوري لوبيموف

إنني مندهش لسماع هذا. الآن يبدو أن علينا اللحاق بالصين. ليس هناك ما هو جيد. أظن أنه ينبغي علينا حل كل شيء بعقلنا نحن. شجعوا الناس القادرين على العمل.

لودميلا فارتوزاروفا

من الواضح أننا احتجنا إلى عشر سنوات لكي نبدأ بالعودة إلى القيم الاشتراكية. نعم - إلى القيم.

يدهشني أننا نبحث في كل شيء ضمن ظروف الهرم المقلوب. لقد اختلطت الأهداف بالوسائل. وأنا أرى أن الإنسان يمكن أن يكون الهدف الأول.



يلتسين وتشيرنومردين .. روسيا إلى اين؟

أنا أسمح لنفسي بألا أوافق على ما يقوله يغور غايدار حول ان النموذج قد انتهى من استخدام مصادره حتى نهاية الخمسينيات، ولا أوافق على ما قاله نيكولاي ريجكوف حول أن التطور كان مستقرا عندنا حتى العام 1989. كلا - الأمر ليس كذلك، مع الأسف.

هناك نقطة ثانية لم تبدأ أبدا لا في العام 1985 ولا في آب 1991. إن غياب البرنامج يؤدي حتما، عاجلا أم آجلا، إلى اختلال التوازن وإلى تنفيذ خطوات غير منطقية. لم

يكن لدى البيرويسترويكا، بحسب رأيي، أي برنامج. بل كانت هناك اندفاعات ارتجالية في هذا الاتجاه تارة وفي ذلك تارة أخرى. واضح أنه كان يجب الإسراع والتجديد وتوفير كل الموارد في آن واحد. لا أريد هنا أن أتحدث عن أن البيريسترويكا كانت ثورة من الأعلى أيضا. والثورة من الأعلى لا تستطيع أن تسيّر كل العمليات الديمقراطية في وقت واحد.

علامَ حصل الإنسان؟ لقد غُرِّب الانسان أكثر مما كان مغربا في الدولة الشمولية. غُرِّب عن السلطة وعن الملكية وعن الثقافة وعن التعليم. بل إن الإنسان حرم من حقه بالحياة، بغض النظر عن كل الحقوق والضمانات الأخرى التي حرم منها. أنا لا أؤمن بأنه يمكن أن يقوم وفاق، بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، في مجتمع مفكك غير متكامل. إلا أن الاتفاق الاجتماعي الذي يحدد الواجبات المتبادلة بين المواطنين والفئات والبنى الاجتماعية الأساسية التي تمثل مصالح أكثرية المواطنين في البلاد ضروري جدا.

يغور ليغاتشوف

أنا مقتنع اقتناعا عميقا بأن البيريسترويكا لم تكن ضرورية فحسب، بل كانت ممكنة أيضا. هذا هو موقفي في السابق عندما كنت عضوا في المكتب السياسي، ما بين 1985 و1990، وهذا هو موقفي الحالي. إلا أن هناك وجهة نظر أخرى تزعم أن النظام الاشتراكي السوفييتي لم يكن قابلا للتحسين، ولذلك لم يستجب للإصلاحات.

هذا الموقف يريح جدا بعض الناس. يريح البعض لكي يفسروا تراجع الحزب عن نهجه السياسي. وهو يريح السلطة الحالية لكي تبرر تحطيم النظام السوفييتي وتدمير البلاد ومعاناة ملايين الناس. لا يجوز القول أيضا إن البيرويسترويكا كانت مشبعة بالنظرية المتماسكة. إلا أن خطوطها الرئيسية كانت مرسومة. وإذا أردنا الحديث عن الأغراض بحدودها الضيقة، يمكن القول إن البيريسترويكا تمحورت حول تحقيق اقتصاد عالي الفعالية وتحسين الوضع المادي والمعنوي للكادحين، وتعميق وتوسيع المشاركة الحقيقية للشغيلة في إدارة الدولة والمجتمع. لم تكن هناك أهداف رئيسية فحسب بل كانت هناك توجهات رئيسية أيضا.

فعلى قاعدة تحديث مجمع صناعة الآلات كان من المفروض تحويل اتجاه الاقتصاد تحويلا حادا باتجاه المشاريع الاجتماعية الضخمة.

جاء فشل البيريسترويكا نتيجة لتغيير قيادة البلاد السياسية، إذ فقدت البيريسترويكا التوجه الديمقراطي الحقيقي. كيف حدث هذا؟ لقد تحدثوا عن هذه المسألة، لكنني أريد أن ألفت الانتباه إلى تقليص دور الحزب. الخطر الأكبر في تلك المرحلة لم يكن من القوى المحافظة، بل من القوى المعادية للاشتراكية ومن القوى القومية الانفصالية.

ولكي تتكون صورة عن تقييمي إذ ذاك للأحداث سأتلو عليكم رسالتي الموجهة إلى



الجيش والبرلمان .. طرفا صراع لم يحسم بعد

المكتب السياسي: «في بداية العام 1990 كانت المسألة المطروحة: إما المحافظة على كل ما تم إنجازه بجهود أجيال كثيرة وتطويره وإعادة ترتيبه وتحديثه على أساس اشتراكي، وإما يكف الاتحاد السوفييتي عن الوجود».

نحن الشيوعيين نرى أنه توجد طرق لتجاوز الأزمة العصبية، وأن هناك مخرجا من هذا الوضع. نحن نرى أنه يمكن الالتفاف حول مسألة مشتركة واحدة ـ هي اتحاد مجدد للشعوب السوفييتية.

أوليغ بوبتسوف

كان هناك تنقيح للعلاقات وتنقيح للتفكير. لا مفر لنا من هذا. عندما يتحدث يغور كوزميتش عن الزراعة المزدهرة يتولد لدي انطباع وكأن كلاً منا يرتاد مخزنا مختلفا.

كثيراً ما نقول إن نتائج البيريسترويكا كان يمكن أن تكون غير هذه النتائج. وأنا أقول: مستحيل. لا يمكن أن تكون إلا ما هو الآن. في تلك المرحلة كان الحزب يعيش أزمة إدراك صعبة. كان الحديث عن الإصلاحات يشكل ثورة في الوعي. والمأساة أنه مرت خمسة أو ستة أعوام والكلام مجرد كلام. كان يجب حث البلاد وهزها. ما يميز برنامج يغور تيموفييفيتش غايدار «الـ 500 يوم» عن معلميه الأكاديمي أهانبيغيان وأبالكين وغيرهما هو أن أولئك أضاعوا الوقت بالكلام. أما يغور تيموفييفيتش فقد بدأ العمل. لقد بدأنا الإصلاح في اتجاهات مختلفة، والطريق الذي قطعناه صعب ومؤلم بحق، ولكن لم يكن أمامنا طريق آخر.

ف. نيكونوف

تنقسم هذه السنوات العشر إلى مرحلتين، فروسيا والاتحاد السوفييتي دولتان مختلفتان. في العام 1991 انتهت البيريسترويكا وانتهى الاتحاد السوفييتي.

لماذا أخفقت البيريسترويكا؟ هناك رأيان: رأي يقول: لأن غورباتشوف خانها، ورأي يقول: إن هذا حدث تاريخي طبيعي. وأنا لا أؤمن بقصة الحدث التاريخي الطبيعي عندما يدور الحديث عن بلادنا. هنا كل القوانين التاريخية الطبيعية تمت صياغتها حسب العقلية الغربية، واستنادا إلى التجربة الغربية، وهي ليست فاعلة في روسيا. إذن ما الذي دفن البيريسترويكا والاتحاد السوفييتي؟ أنا أعتقد أن أول ما دفنهما هو تخلف غورباتشوف والحزب الشيوعي عن المجتمع، وما دفنهما ثانيا هو القيادة الروسية بمطالبتها بالاستقلال عن ذاتها عمليا.

كان الاتحاد السوفييتي شكلا من أشكال وجود روسيا خلال فترة طويلة، وقد نُصب في «بيلوفيجسكايا بوشا» (غابة بيلوفيجسكايا)* صليب على قبر الاتحاد السوفييتي. لست أدري إن كان صانعو سياستنا قد حصلوا على توجيهات من الغرب ـ ربما حصلوا. إلا أنني واثق ثقة مطلقة بأن ثلاثة مجانين بإمكانهم أن يفعلوا في بلادنا ما تعجز عنه كل استخبارات الدنيا مجتمعة.

لقد فشلت البيريسترويكا لأنها كانت قائمة في الكثير من أسسها على الأوهام. فمن ناحية كان يوجد وهم بأنه يمكن تفعيل الاشتراكية فجأة بوساطة الشعوذة الكلامية، ومن ناحية أخرى ـ وهم تحول روسيا بسهولة إلى بلد ديمقراطي.

وبالنتيجة إلامَ وصلنا؟ لقد قال نيكولاي إيفانوفيتش إن الديمقراطية تُذبح في روسيا، وأننا وصلنا إلى الشمولية عن طريق التسلط. أنا لست موافقا أبدا. لو كانت هناك شمولية لما تحققت هذه «المائدة المستديرة»

أما بشأن مستقبل روسيا، فان التنبؤ به أصعب بكثير من التنبؤ بمستقبل العديد من الدول الأخرى. وهذا لأن السلطة عندنا تتعلق بالأفراد أكثر من تعلقها بالمؤسسات. هل ستكون عندنا ديمقراطية؟ ممكن. ولكن ـ كما هو واضح تماما ـ ليست على النمط الغربي.

ف. زوركالتسيف

أنا موافق على أن البلاد كانت تتوقع هذه التحولات. فقد آن أوانها. القوى المنتجة الضخمة التي خلقتها الاشتراكية انفلتت من عقالها، وما كان يمسكها هو عدم سلامة علاقات الإنتاج. كان الناس يتوقعون من مجتمعهم أكثر من ذلك، والتوقعات لم

* بيلوفيجسكايابوشا (غابة بيلوفيجسكايا) = هي المكان الذي عقد فيه رؤساء جمهوريات روسيا وأوكرايينا وكازاخستان السوفييتية اجتماعهم وقرروا نتيجة إعلان استقلال جمهورياتهم عن الاتحاد السوفييتي.



تفكيك الصواريخ النووية أم تفكيك قوة عظمى

تتحقق، فخلق هذا الوضع موقفا سلبيا من الواقع، علما بأن الناس اعتادوا على منجزات الاشتراكية وصاروا يعتبرونها أمرا عاديا ونقطة انطلاق يجب أن تتحسن أوضاعهم استنادا اليها.

الآن يحاولون تبييض صفحة البيريسترويكا بالحديث المتزايد عن الخطأ في الحسابات في مرحلة الإصلاحات. وقد عرضت بعض نتائج الدراسات الاجتماعية وقيل إن نصف السكان ميال بشكل أو بآخر إلى دعم أفكار البيريسترويكا. ولكن إذا ما طرحت أسئلة مباشرة حول النتائج الاجتماعية والاقتصادية للبيريسترويكا فإن الأجوبة ستكون مغايرة على ما أعتقد: الأجوبة ستبدو هكذا: الدولة غائبة عمليا، والحرب تعم الوطن. الجريمة مستشرية بشكل لا مثيل له في العالم، والثروات تنهب، أما القادة الذين دعوا الشعب إلى البيريسترويكا فقد خانوا شعبهم ومثله. الناتج الإجمالي القومي انخفض خلال عشر سنوات من 431 ملياراً إلى 210 مليارات. أما الدخل القومي فقد تقلص إلى الثلث. الدخل القومي للفرد الواحد لا يزيد الا قليلا على 800 روبل — فمن أين يحصل الناس على ما يحتاجون إليه للحد الأدنى من الحياة؟. والأهم من كل هذا هو أن إنتاج المواد الغذائية تقلص إلى الخمس تقريبا. وفي الدول التي لا تدعم إنتاج المواد الغذائية يموت ملايين الناس جوعا يا أوليغ مكسيموفيتش.

لو طرحنا على الناس سؤالا يقول: هل كنتم ستؤيدون البيريسترويكا لو كنتم تعرفون أنها ستؤدي إلى هذه النتائج؟، فأنا واثق أن جواب الأغلبية الساحقة سيكون



هل يعود اليسار الى روسيا؟

سلبيا.

الكثيرون يلومون حزبنا الشيوعي ويقولون: إذا وصلتم إلى السلطة ستعيدون كل شيء إلى ماكان عليه في الستينيات والسبعينيات والثمانينيات. نحن نعتقد أنه لا رجعة إلى الماضي، ولكنه من الخطأ الفاحش الاعتقاد بأن الرأسمالية قد ضربت جذورها عميقا.

وأود هنا أن أورد كلمات فلاديمير إيليتش لينين: «الخلاص هو في الاشتراكية، ولكن ليس في إدخالها السريع، بل في الانتقال إليها عبر عدد من التشكيلات التمهيدية» وهذه التشكيلات التمهيدية يمكن وضعها في أساس معالجاتنا المقبلة، إذا كنا نريد إيجاد وفاق مع المجتمع.

ف. ليبيتسكي

هناك رأي يقول إن كل ما حدث في البلاد هو نتيجة لمؤامرة كبيرة مرسومة منذ زمن بعيد من قبل مركز جبار. وأن الشخصيات الروسية كانت ربائب مجانية لهذا المركز. وهذا الرأي عدا عن كونه مهين جدا للشعب، فإنه من الصعب التصور بأن أشخاصا استطاعوا تحقيق كل هذا: يجب أن نعترف بأن واقعنا الراهن هو جملة معقدة من الظروف لم يكن ممكنا التنبؤ بها. نحن اليوم نعيش في جهنم، التي أوصلتنا إليها نوايانا الطيبة.

كونستانتين لوبينتشينكو

إن أقوالنا لا تتناقض، في الكثير من جوانبها، مع بعضها البعض، بل إنها تشكل هيكلا واحدا، لقد نضجنا نفسيا وروحيا لكي نخرج من هذا الوضع معا، دون الانشغال بالمماحكة فيما بيننا. قال غافريل خاريتونوفيتش بوبوف إن هدف روسيا هو إقامة دولة عظمى. وأنا أرى أن الدولة العظمى هي أحد أشكال حياة عدد كبير من السكان متعددي القوميات على أرض شاسعة تعيش عليها ثقافات متعددة مختلفة. المهمة الآن هي خلق تحالفات سياسية ضخمة قادرة على الوصول إلى الانتخابات وقادرة بالدرجة الأولى على انتخاب دوما الدولة التي يمكنها أن تكون الضمانة لتطوير المرحلة الديمقراطية اللاحقة.

غريغوري يافلينسكي

أنا أرى أن عددا من أعضاء المكتب السياسي ومعهم غورباتشوف، اتخذوا، لأسباب مجهولة بالنسبة لي، وبشكل مفاجيء تماما، قرارا غير متوقع أبدا، لماذا تحدث الزملاء المحترمون الآن عن انهيار الدولة؟ ولماذا بدأ يحدث كل ذلك؟ إلى جانب القوانين التاريخية التي لا يمكن تجاهلها، هناك أسباب ذاتية. أحدها هو العجز المرضي عن النظر ولو قليلا إلى الأمام.

الاقتصاد علم صارم. إذا كنا قد أدركنا أن النظام السابق قد انهار، وإذا كنا نريد الخير لمواطنينا، فعلينا ألا نجرهم إلى أية مآزق أسطورية مختلفة وغير مجربة، لأن الاقتصاد الفعال في الواقع هو الاقتصاد المبني على الملكية، التي تغلب فيها الملكية الخاصة، وعلى المنافسة.

مقولة العدالة الاجتماعية، وهي واحدة من أخطر المقولات السياسية، قد برهنت أكثر من مرة على أن الصراع من أجل العدالة الاجتماعية ينتهي نهاية مريعة. ولهذا فإن المقولة الصحيحة لبلادنا ليست مقولة العدالة الاجتماعية، بل مقولة القابلية الاجتماعية.

هذا التصور الأخير هو تصور ينطلق من أنهم تحدثوا كثيرا هنا عن الصين وعن المثال الصيني. عندنا لايوجد أي شيء من تلك المقدمات الموجودة في الصين. وهذه التجربة غير صالحة لنا.

ميخائيل شماكوف

ما سمي بيريسترويكا هو فكرة إعتاق الإنسان وإزالة التسطيح. وأثناء ذلك مصطلح «العدالة الاجتماعية» عاملا جبارا فتقبله الناس.

ما العمل؟ إذا لم يتغير الموقف من مسألة من يجب أن يستثمر الاقتصاد الوطني، ومن هي القوة المحركة للاقتصاد الوطني، فلا يمكن أن تكون هناك سوق. لن تظهر السوق ما لم يظهر آلاف وملايين المستثمرين الذين يسمحون بشراء سلع الاستخدام المديد. المعطيات تشير إلى أن 85٪ من الناس عندنا ينفقون الآن كل دخلهم على الطعام والشراب. أيعقل أن يكون الحد الأدنى للرواتب 20–30 ألف روبل، أو 50 ألف روبل؟ اليوم لا أحد يقدر أن يعيش بهذا المبلغ.

بوريس سلافين

أود قبل كل شيء أن أعترض على كلام بوبتسوف الذي أراد أن يبرهن (وغايدار كان يهز برأسه مؤيدا) مقولة إن الإصلاحات تحتاج إلى 10 أو 20 سنة أو أكثر. أنا أعتقد أن هذه المقولة زائفة. فالإصلاحات المجربة التي تعكس مصالح المجتمع تعطي أكلها بعد ثلاثة أشهر، كما حصل ذلك في مرحلة «النيب» (السياسة الاقتصادية الجديدة) وفي الصين.

البيريسترويكا رد فعل على البيروقراطية الاشتراكية. كان لها نهوضها، وكان هبوطها عندما أدار لها الشعب ظهره، فهو لا يؤيد

تحويل البلاد إلى بلاد رأسمالية.

أتخيل أمام ناظري الآن شعارين ـ الأول في بداية عام 1991، عندما كان صبي وأبوه يحملان يافطة كتب عليها «الرأسمالية هي الحياة والاشتراكية هي الموت»، والثاني في العام 1994، في مظاهرة الأول من مايو: «الرأسمالية ــ خر...»، وقد حمل هذه اليافطة الفوضويون الشباب. كان هذا رد فعل على الرأسمالية الليبيرالية. لقد تحولت هذه الرأسمالية عندنا إلى طريق مسدود في وجه التطور. وليس لنا رجعة إلى الوراء. ماذا بقي لنا أن نفعل؟ الاشتراكية الديمقراطية هي الحل الوحيد ليس هناك ما يمكن اختراعه غيرها. وروسيا ستصل إلى هذا عاجلا أم آجلا .

يوري بتروف

كان إصلاح مجتمعنا أمرا ضروريا حتما، وكان هذا ممكنا. أما أننا لم نستطع ذلك ـ فهذا سؤال آخر. المرحلة الراهنة هي استمرار منطقي للمرحلة الأولى بكل أغلاطها وتراجعاتها. يجب أن نعلن بصدق أننا عاجزون عن حل المشاكل المعقدة.

فلاديمير ليسينكو

أوروبا الغربية ليست بحاجة إلينا، وآمال أوكرايينا وبيلوروسيا بأن تكون بضائعهما قادرة على المنافسة في السوق العالمية لم تتحقق. أنا أعتقد بأنه ستتحلق حول روسيا مجموعة ضيقة من الدول ذات صفة كونفيديرالية، وهذه الدول ستتصل عن طريق التعاون الاقتصادي والعسكري والسياسي تدريجيا إلى اتحاد كونفيديرالي.

سأتحدث الآن عن خطرين ــ أولا خطر الأجنحة المتطرفة الموجودة في المعسكر الليبرالي الديمقراطي وفي المعسكر الشيوعي، المتحفزة لأشكال النضال العنيفة، في الشوارع والمهرجانات. والحظر الثاني في التعصب القومي. أنا موافق على أن ذروة تأثير الحزب الليبرالي الديمقراطي، الذي لا يعد، في الواقع، لا ليبراليا ولا ديمقراطيا، بل ولا يعد حزبا، إنما هو مكتب خاص لسيد معروف، قد انقضت. ولكن هناك خطراً آخر يربطه خصومنا بالديمقراطيين، باعتبار أن الديمقراطيين ساروا طويلا مع الرئيس الحالي. وأقصد هنا ذلك التشكيل الذي يسمونه حزب السلطة، وأنا أرى أن من الأفضل تسميته تكتل السلطة وليس حزب السلطة. لكن المنافس الحقيقي والقوة الحقيقية التي تهدد باحتلال مركز متفوق في البرلمان بعد الانتخابات القادمة هو حزب السلطة هذا. ولذلك أنا أرى أن الصراع الدائر الآن حول قانون الانتخابات ومسألة تشكيل الدوما والمجلس الاتحادي ما هو إلا صراع من أجل إبقاء حزب السلطة على قيد الحياة، من أجل وضع كل عملية الانتخابات تحت إشراف حزب السلطة.

أ. شابانوف

لن أدخل في جدل. لكن هل انتهى الخلاف بين ما يسمى الرأسمالية (فتسمية



من يدفع ثمن الانهيار؟

هذا المجتمع رأسماليا هي تسمية مجازية جدا. إذ دخل فيه الكثير من إنجازات الاشتراكية) وبين ذلك المجتمع الذي ينتقدونه باعتباره اشتراكية؟ كلا. لم ينته، ولن ينتهي. إنني ميّال الى الاعتقاد - وقد كتب عن ذلك العلماء ومنهم زينوفييف وبوبوف - بأنه باستثناء بعض المجتمعات، تتشكل في الحضارة منظومة فوقية، يتشكل مجتمع فوقي يحدد تطور بعض المنظومات الأدنى.

لقد كتبنا في برامجنا: هناك طريق وحيد وأمثل للحفاظ على الحضارة - هو طريق التطور الاشتراكي.

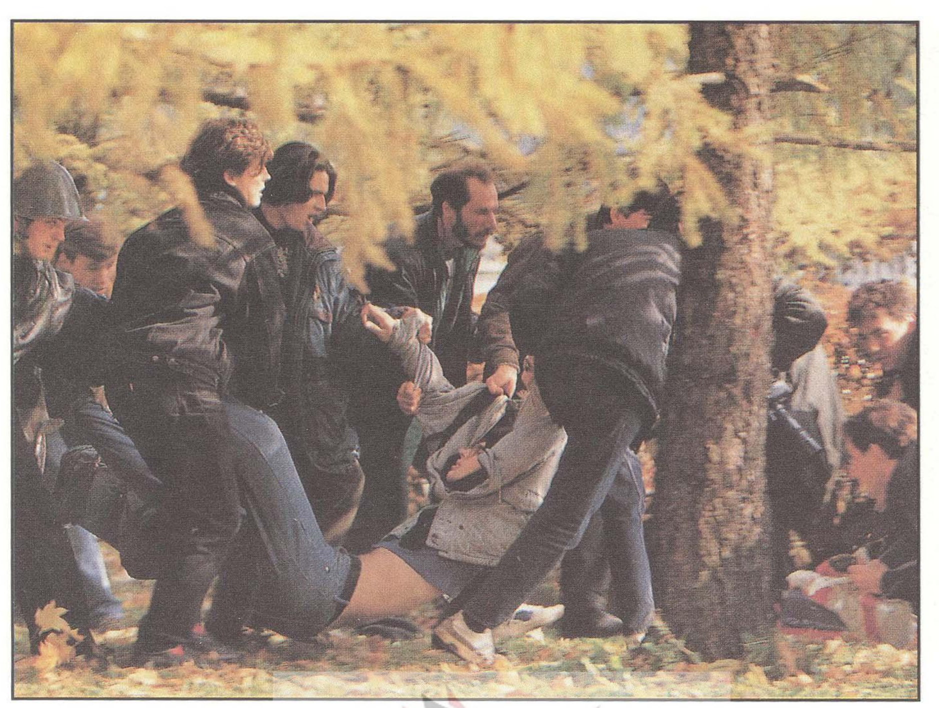
سمى البروفيسور شينيس ذلك التطور الذي عاشته بلادنا سبعين عاما تطور الطريق المسدود. إلا أن هذا هو تقييمه الذاتي.

نحن نرى أن البيريسترويكا كان يجب أن تبدأ في العام 1983 لولا موت أندروبوف. وهاهي تأتي اليوم ولكن على هيئة إصلاحات مضادة مزقت الدولة.

الشيوعيون يطرحون أفكارا وطنية من أجل إحياء الدولة. ونحن نرى الكثير من صفاتها في تلك الدولة العظمى التي كانت - في الاتحاد السوفييتي.

فيودور بورلاتسكي

علينا أن نفصل بدقة بين مرحلتين: مرحلة الثمانينيات وحتى 1991 ومرحلة ما بعد 1991، لأنهما مرحلتان مختلفتان مبدئيا، مع أنهما مرتبطتان بعملية تاريخية واحدة. في المرحلة الأولى كانت الأمور تسير.



شيوعيون يحتجون في ساحة الكرملين

أما في المرحلة الثانية فقد اتجه كل شيء نحو الثورة من الأعلى، نحو التغيير القسري للمجتمع حسب نموذج جديد. إن مسؤوليتي كإنسان كان يقدم النصائح كانت تنحصر في أنني كنت مقتنعاً بفكرة تحقيق القيم الغربية بشكل مباشر في مجتمعنا الروسي.

بماذا يمكنني أن أنصح؟

أولا: أن نضمن لبعضنا البعض بألا يتكرر مهما كلف الأمر ما حدث في 3و4 تشرين الثاني 1993.

ثانيا: طرح مهمة الحيلولة دون استشراس النظام التسلطي. فأنا انتظر من يوم إلى آخر الإعلان عن تأجيل انتخابات الرئاسة، ولدي شعور بأننا نتجه نحو ذلك، وبأية حجة كانت. فإذا تأجلت الانتخابات فإن كل شيء سيذهب كما جاء. وروسيا هي الخاسرة من هذا.

ثالثا: الاتفاق على تسهيل عملية التكامل.

يجب الدعوة لجمعية عامة لمؤتمر القوى السياسية، أو لمجلس منتخب من الشعب والإنفاق على طرح مرشحين أو ثلاثة كحد أقصى، على أن يكونوا من الشخصيات القادرة على تحمل مسؤولية شؤون الدولة.

مارك ماسارسكي

كيف انتهت البيريسترويكا؟ ليس عندنا لا رأسمالية ولا اشتراكية. عندنا رأسمالية بيروقراطية. هل هذه الرأسمالية فعالة اقتصاديا؟ إنها أكثر فعالية من الاشتراكية البيروقراطية، ولكنها أقل فعالية من



مظاهرات الغضب.. ظاهرة يومية في موسكو الجديدة

التكنوقراطية، من تلك البنية التي أطلقت عليها تسمية اقتصاد السوق ذي الاسترشاد الاجتماعي.

روى ميدفيديف(24)

يعجبني جدا الجو السائد في مائدتنا المستديرة هذه، إلا أننا لن نستطيع التوصل إلى وفاق. وقد لا يكون من الضروري إقامة وفاق في المجتمع، لأن الاختلافات والتناقضات هي القوة المحركة للمجتمع. ينبغي أن نتفق على صيغ حضارية لحل هذه الخلافات. ولن يلزمني أحد بالتخلي عن مفهوم «العدالة الاجتماعية» أو على اعتبارها مفهوما ضارا. فأنا كنت طوال حياتي أرى في ذلك واحدة من قيمي. ولن يتمكن أحد من إجباري على الموافقة على فكرة أن مستقبل روسيا الأفضل هو الرأسمالية الغربية.

يتحدثون كثيرا عن مسؤولية غورباتشوف. طبعا إن مسؤولية غورباتشوف وكذلك مسؤولية يلتسين كبيرة جدا. إلا أننا ناس نتمتع وما زلنا نتمتع حتى الآن ببعض النفوذ، وكنا قادرين في الكثير من الحالات على إيقاف غورباتشوف. حتى أنا، الإنسان الذي لم يكن في السلطة، كان بإمكاني في إحدى الحالات أن أوقف غورباتشوف. وذلك عند انتخاب ينايف نائبا لرئيس الاتحاد السوفييتي.

في حوارنا يدور الحديث حول الأجيال. إن البيريسترويكا تحمل معاني مختلفة للأجيال المختلفة. وأنا أستغرب سماع كلمات المخرج المحترم الذي قال إن علينا أن

نعمل بشكل أفضل فتحل كل مشاكلنا. عندي رفيق مهندس في مجال سلامة المحطات الكهرذرية. هل نحن بحاجة إلى هذه المهنة أم لا؟ لقد ترك منطقة خوروشيفسكي وسافر إلى جنوب أفريقيا، حيث لا توجد سوى محطة كهرذرية واحدة. قال لي: «روى الكسندروفيتش، هنا يعطونني 400 ألف روبل وأنا عندي أسرة ـ طفلان وزوجتي، أما هناك فيعطونني 3000 دولار شهريا وبيتا مستقلا على شاطىء البحر. فاذا كانوا ليسوا بحاجة إليَّ هنا، إذا كانوا لا يهتمون هنا بسلامة المحطات الكهرذرية، فليبقوا بلا مهندسي سلامة».

بعض الأسر، أسر الاختصاصيين بالنفط، وهذا أحد الفروع المهمة في اقتصادنا، تحصل على 140 ـ 180 ألف روبل. هؤلاء تركوا عملهم ويعملون تجار شنطة بين اليابان والشرق الأوسط وروسيا. يتاجرون في مختلف أنواع السلع، وأنا أقول لهم: تجارة الشنطة هذه ستتوقف، فماذا ستفعلون عند ذلك؟

نحن لم نستنفد بعد كل الفرص، الوضع في البلاد. والانتخابات المقبلة ستوفر لنا الظروف للخروج من هذه الأزمة.

لودميلا بياشيفا

تعالوا نجول الآن في المخازن. منذ عام 1917 لم توجد في روسيا مثل هذه الوفرة وهذا التنوع في البضائع. اتذكر الآن العام 1984 ـ ابنتي في العناية المركزة للإنعاش، وأنا بحاجة إلى ليمونتين ودواء. كنت مستعدة لأن أعطي كل شيء لقاء ليمونتين، ولكنهما غير موجودتين. اليوم حلت المشاكل وكل شيء موجود. واليوم تتوافر امكانات أكبر للشباب كي يبدأوا العمل.

أنا أرى أن غورباتشوف حقق ثورة سياسية عظيمة. لقد أهدانا الحريات السياسية مجانا وبلا دماء ـ حرية الصحافة وحرية الكلام، حرية الاجتماعات والمهرجانات والنظام متعدد الأحزاب لقد صدر مجلدان من كتاب «من هم» وفي هذا الكتاب عدد كبير من الأحزاب السياسية والحركات النقابية والتنظيمات ـ انهما مجلدان. وفي السابق لم يكن يوجد سوى الحزب الشيوعي.

لقد حصلنا على الديمقراطية السياسية، ونفذ غورباتشوف الدور التاريخي الذي كان عليه أن ينفذه.

ب. فولوبويف

لقد انتهت التغييرات الاجتماعية الاقتصادية الجذرية بالفشل التام. لقد هدم كل ما يمكن هدمه. العلم في حالة غيبوبة، تسرب جماعي للعقول، وتدمير للطاقات العلمية التقنية بما في ذلك للمجتمع الصناعي العسكري. والآن توضع إشارة × على انتقال روسيا الضروري تاريخيا من مجتمع صناعي إلى مجتمع ما بعد الصناعي، مجتمع معلوماتي. عند هذه النقطة بالذات تكسرت «الاشتراكية الواقعية» بشكل عام.

مأساة التاريخ للحرب الباردة

تأملات حول مسألة إعادة النظر

تأليف: جون لويس غاديس*

ترجمة: د. عنان حمدان وعثمان صالحية

لقد مر الآن أكثر من ثلاثة عقود على الدعوة التي كان وليم أبلمان وليامز قد أطلقها مناشدا فيها الباحثين من زملائه أن يقوموا بإعادة نظر دقيقة في الطريقة التي انتهجتها أمريكا لتحديد مشكلاتها الخاصة، وأهدافها العامة، وعلاقاتها بباقي أجزاء المعمورة. ففي كتابه «مأساة الدبلوماسية الأمريكية» - الذي يعد بحق من أعمق ما كتب في هذا الموضوع - يرفض وليامز رفضا قاطعا نغمة الزهو والعلو التي سيطرت على توجهات الباحثين السابقين، ويصر على القول إن سجل الأمة الأمريكية في السياسة الخارجية كان «مأساة» من مآسي العصر. والسبب في ذلك هو أن أمريكا كانت قد مارست سياستها الخارجية على نحو لا يزاوج بين طموح هذه الأمة وسياساتها الفعلية.

العنوان الأصلي للمقال:

The Tragedy of Cold War History Reflections On Revisionism, Foreign Affairs, January / February 1994.

مراجعة: د. سعد بن طفلة

* جون لويس غاديس كان رئيسا لجمعية مؤرخي العلاقات الخارجية الأمريكية في سنة 1992. وهذه المقالة كانت خطاب الرئيس سنة 1992 وقد نشرت بشكل آخر في Diplomatic History وبإذن منها تظهر هنا. أيضا مؤلف كتاب The Statesand The End of the Cold War: Implications Recordenations and Provocations

فنحن - مثلا - قد طالبنا بحرية تقرير المصير، غير أننا وقفنا في وجه الآخرين حين سعوا للوصول إلى ذلك، ونحن قد تغنينا بفضائل الحرية الاقتصادية في الوقت الذي كنا نعمل فيه جاهدين للسيطرة على اقتصاد الآخرين. والنتيجة التي يخلص إليها وليامز من هذا كله هي أن البرامج التي كانت قد وضعتها أمريكا تحت شعار مساعدة الآخرين لم تقتصر آثارها على اختزال طموح الأمة الأمريكية لمساعدة الآخرين فحسب، بل كادت تقوض هذا الطموح تقويضا تاما.

لقد جرت العادة أن تعرف المأساة بأنها خلل ينزل بساحة الشخصية العظيمة أو اختلال يصيبها في منظومة القيم الرفيعة التي تتحلى بها. وبالنظر إلى المصاعب والمتاعب التي خلقتها الولايات المتحدة لنفسها من خلال الغرور وغطرسة القوة التي مارستها أثناء الحرب الفييتنامية فإننا لن نفاجأ أبدا حين نجد أن نظرة وليامز المأساوية للدبلوماسية الأمريكية قد صادفت هوى لدى الكثيرين في أيامه مثلما أنها لا تزال تلاقي هوى في نفوس الكثيرين حتى أيامنا هذه.

وهنا مكمن الخطر: فالرأي الذي يحمله عدد كبير من الناس يصبح عرضة لأن يرقى إلى مرتبة الحكمة البالغة والقول المأثور. وهنالك أكثر من مؤشر يدل على أن هذا هو ما حصل بالفعل في موضوع تاريخ الدبلوماسية الأمريكية بيد أن الذين عرفوا شخصية وليامز حق المعرفة، وأدركوا أنها لم تكن شخصية عادية تقليدية، يقررون أنه كان بعيدا كل البعد عن هذا التوجه، وأن آخر ما كان يرمي إليه هو أن يرى آراءه الشخصية أو آراء غيره من الباحثين قد طارت في الآفاق حكما عامة أو أمثالا سائرة. ولنا فيما يورده هو نفسه في كتابه «مأساة الدبلوماسية الأمريكية» خير دليل على ذلك إذ يقول: «إن التاريخ هو طريقة من طرق المعرفة والاقتراب من الحقيقة، وليس لنا من أمل في إدراك ماهية المأساة إلا إذا طرحنا الكليشيهات والتعميمات والأحكام المبرمة جانبا».

وبالفعل، فقد كان انتهاء الحرب الباردة إيذانا لنا بالتخلي عن جميع تلك الكليشيهات والتعميمات والأحكام المبرمة التي طالما استمسكنا بعروتها ونافحنا عنها عقودا طويلة. وعليه، فإننا بهذه المنزلة، نعتبر كلنا من دعاة إعادة النظر في دبلوماسية مابعد الحرب الباردة. وهذا بدوره يدفعنا إلى إلقاء نظرة أخرى فاحصة على مادعاه وليامز «مرآة التاريخ» التي نستطيع من خلالها أن نرى أنفسنا على حقيقتها أولا ثم نراها على الصورة التي نتمنى أن نكون عليها ثانيا، إن كنا نتمتع حقا بالقدر اللازم من الجرأة والاستقامة في النظر إلى الأمور(1).

الرؤية الأمريكية

يلاحظ في هذه الأيام - بعد أن انتهت الحرب الباردة - أن كثيرا من الدارسين والباحثين قد

عادوا يتساءلون: ترى لماذا كانت هذه الحرب الباردة طالما كنا ندرك أن الاتحاد السوفييتي ضعيف من داخله، وأن الماركسية اللينينية ليست إلا ضربا من ضروب السخافة الاقتصادية، وأن الشيوعية العالمية لم تكن أبدا تشكل صرحا متحدا متماسك الجنبات؟ وما الذي كان يهدد المصالح الأمريكية على وجه التحديد؟ وما الذي كان يبرر ذلك الإنفاق الهائل على برامج التسلح؟ وما الذي كان يبرر الانتهاكات المتوالية لحقوق الإنسان في الخارج أو يبرر أن تنتقص الحريات المدنية من أطرافها في الداخل؟ وما الذي كان يبرر القفز على الأولويات الداخلية إلى السعي والتهديد بتفجير العالم على رؤوس أصحابه؟ وما الذي كان يبرر كل تلك الأفاعيل المؤسفة والتجاوزات السياسية والخطيرة التي كانت الولايات المتحدة ترتكبها أثناء الحرب الباردة إن لم يكن هنالك في حقيقة الأمر أي خطر داهم يهدد مصيرنا في أي وقت من الأوقات؟

لا جرم أن هذه التساؤلات وأمثالها من شأنها أن تثير شكوك وليامز في أن النظام الأمريكي لديه رغبة أصيلة في إيجاد طرف آخر يلعب معه دور الخصم ويشن عليه الحروب ساخنة وباردة.

إن جمهرة المؤرخين للدبلوماسية الأمريكية يجمعون على أن الولايات المتحدة كان مقدرا لها أن تسيطر على النظام العالمي في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وأنها قد سيطرت عليه بالفعل قبل أن يبرز الاتحاد السوفييتي على مسرح السياسة الدولية كخصم بارز لافت للأنظار. وكان ودرو ولسون - في أعقاب الحرب العالمية الأولى - قد مهد لهذا الدور الأمريكي حين دعا إلى قيام منظمة أمن جماعية للحفاظ على السلام العالمي، ومنح الشعوب حقها في تقرير مصيرها، وحين دعا كذلك إلى اقتصاد حر وأسواق مفتوحة بين الأمم والشعوب من أجل إزالة أسباب الحرب والقتال. وقد ظلت هذه الدعوة التي أطلقها ولسون صيحة في واد، نظرا لأن الإدارات الأمريكية المتعاقبة ابتعدت عن قيادة العالم للعمل على تحقيقها. واستمر الوضع على تلك الحال حتى سقطت فرنسا في يد الألمان في مطلع الحرب العالمية الثانية وحتى شن اليابانيون هجومهم على الأسطول البحري الأمريكي في بيرل هاربر.

وقد اقتضت هذه الرؤية المستقبلية لدور أمريكا القيادي العالمي أن تلعب أمريكا دورا عسكريا فاصلا في شؤون العالم، إذ لم يكن الأمريكان على استعداد - في أحسن الظروف - أن يتخلوا عن دورهم في الحفاظ على سلام العالم وأمنه تخليا كليا لصالح منظمة الأمم المتحدة بغض النظر عما كانوا يقدمونه لها من دعم مخلص ومساندة حقة. كما صار واضحا الآن كل الوضوح أن حسابات المصالح المادية هي التي كان يصدر عنها أولئك الذين أقاموا النظام الاقتصادي العالي في بريتون وودز (Bretton Woods). بيد أن هؤلاء جميعا كانت تعوزهم البراعة والدهاء اللذان كان يتمتع بهما ولسون حين استطاع أن يخفي المطامع المادية الأمريكية

الحقيقية تحت مسوح العفة ومثاليات النزاهة والبراءة. وقد ظل هذا التصور الولسوني ماثلا في أذهان أرباب النفوذ وصناع القرار في أمريكا حين شرعوا يخططون لعالم ما بعد الحرب العالمية الثانية(2).

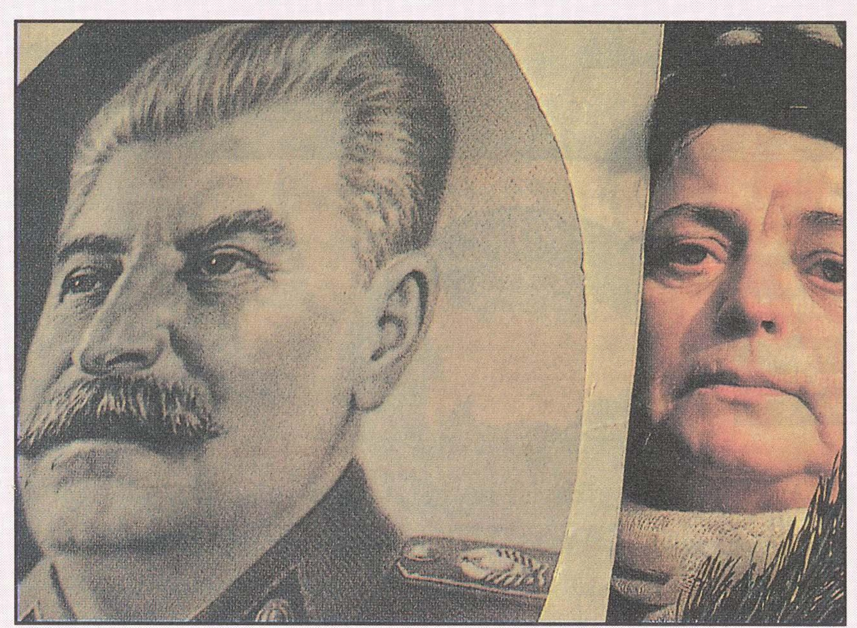
إلا أننا إذا أردنا أن ننصف هؤلاء المخططين حقا، فإن علينا أن نعترف ـ بادىء ذي بدء ـ بأنهم لم يضربوا بمصالح الآخرين عرض الحائط، بل افترضوا أن يكون التنسيق، وليس التنافس والصراع، هو الطابع الغالب على تصرفات الدول الكبرى. وبالفعل كان هذا الافتراض هو الأساس الذي بنى عليه فرانكلين روزفلت فكرته في موضوع الشرطة الأربعة الذين يعهد إليهم بحماية النظام العالمي، وكان هو أيضا الأساس الذي اعتمده في التخطيط لإنشاء منظمة الأمم المتحدة في تنظيم الاقتصاد العالمي كذلك. وقد طبقت هذه الأفكار تطبيقا حسنا خلال السنتين الأخيرتين من سني الحرب العالمية الثانية.

وما من شك في أن الولايات المتحدة كانت تستعد لإقامة النظام العالمي الجديد وقيادته، لأنها كانت هي الدولة الوحيدة القادرة على أن تضع القوانين وتوفر لها إمكانات التطبيق، ذلكما الشرطان اللذان يستحيل على أي نظام أن يعمل دون توافرهما. غير أن ذلك النظام العالمي الذي كانت أمريكا تزمع إقامته كان ينبغي أن يستند إلى مبدأ نظام الأمن الجماعي كما نسميه اليوم، وكان ينبغي له كذلك أن يعمل ضمن إطار من الوفاق والاتفاق، وليس في نطاق من الضغط والإكراه، خاصة بالنسبة للدول الكبرى. بيد أن أمريكا تركت أمر هذا النظام مفتوحا بلاضبط ولا ربط ظنا منها ـ ظن الساذجين ـ أن ذلك النوع من السيطرة يمكن أن يوجه ليحقق لها ما تصبو إليه من أمن ومصالح.

على أن مخططات أمريكا لعالم ما بعد الحرب العالمية الثانية لم يكن في الإمكان أن تنفذ بحذافيرها. ويرجع السبب في ذلك ـ بدرجة كبيرة ـ إلى تقصير الولايات المتحدة في أن تأخذ بعين الاعتبار مدى ما ألحقته الحرب بأوروبا من دمار، وما ترتب على ذلك من أن العودة إلى مشروع السوق الحرة لن يكون البلسم الشافي لحل مشكلاتها الآنية الملحة. إلا أن الصعوبة الكبرى التي واجهت أمريكا آنئذ لم تكن في المجال الاقتصادي، بل كانت في الميدان الاستراتيجي، حيث إن مفهوم واشنطن للأمن الجماعي قد اصطدم بمجموعة من الأولويات السوفييتية التي كانت ذات طبيعة تختلف اختلافا جذريا عما كانت تتصوره أمريكا.

ستالين والاتحاد السوفييتي

إن شخصية جوزيف ستالين الفذة الشريرة كانت قد تركت بصماتها على مختلف مناحي الحياة في الاتحاد السوفييتي الراحل فترة طويلة من الزمان. ولا يحتاج المرء، والحالة هذه، إلى كبير عناء كي يدرك من خلال مراجعة دور الرجل القوي في التاريخ أن الحكام الجبابرة كان



ستالين .. مازال هناك من يبكونه

لهم دوما تأثير بالغ في مجريات الأمور ينبغي أن يحسب له كل الحساب.

لقد كان ستالين قوميا روسيا متعصبا، وكان طموحه السياسي امتدادا لطموح أسلافه من حكام موسكو من حيث الرغبة الجامحة في ضم الأراضي المحيطة بروسيا والسيطرة عليها. ورغم أن ستالين ألبس هذا الطموح لباسا عقائديا يتمثل في الأممية البروليتارية فإن طبيعة هذا الطموح ودوافعه الحقيقية لا يجوز أن تخفى علينا. كتب روبرت سي تاكر ـ وهو أعمق من كتب عن سيرة ستالين ـ يقول: «إن أكثر من اقتدى بهم ستالين في حياته لم يكونا لينين أو كارل ماركس، بل كانا بطرس الأكبر وإيفان الرهيب». فقد كان حكمه، في الواقع، صورة أخرى من صور الاستبداد الفردي الذي مارسه القياصرة من قبل، ذلكم النمط الاستبدادي الذي وصفه المؤرخ الروسي كليوسفسكي وصفا رائعا حين قال: «سمنت الدولة وهزل الناس»(3).

والآن لو تصورنا أن الاتحاد السوفييتي لم يكن أكثر أهمية في النظام العالمي الذي أعقب الحرب العالمية الثانية من بلد كالأوروغواي، فإن النظام القائم فيه على الظلم والطغيان لم يكن ليتسبب في نشوب حرب باردة مع أمريكا وحليفاتها. ولو مضينا في تصوراتنا وافترضنا أن الاتحاد السوفييتي كان هو العملاق الذي عرفناه، غير أنه أوجد نظاما قائما على المحاسبة والكوابح والتوازن، بحيث يضع حدا لطغيان ستالين واستبداده، فإن حربا باردة كانت ستنشب بيننا وبينه، إلا أنها لم تكن لتأتي بمثل هذا الصراع الطويل والخطر الرهيب. ولو

تصورنا كذلك أن الاتحاد السوفييتي كان هو العملاق الذي عهدناه دولة ذات نظام استبدادي يتولى الحكم فيها شخص آخر غير ستالين كبهارين مثلا أو حتى تروتسكي فإن مقاليد السلطة سوف تكون في هذه الحال بيد زعيم لا تربطه بالديمقراطية أية قرابة، إلا أنه سوف يكون — على أقل تقدير ـ على معرفة جيدة بالعالم الخارجي وأحواله. وإذا ما قورن بستالين فإنه سيجد أن من الأسهل عليه والأفضل له أن يتعاون مع العالم الخارجي، ولو بشكل متحفظ حذر، وليس بشكل يتسم بعدم الثقة كما كان شأن ستالين.

غير أن أيا من هذه الفرضيات ـ مع الأسف الشديد ـ لم تتحقق، وتسلم ستالين مقاليد الحكم وفرض نفسه على شعوب الاتحاد السوفييتي كما فرض نفسه على المجتمع الدولي في نهاية الحرب العالمية الثانية. وكان ذلك مأساة بكل مافي الكلمة من معنى.

يحكى أن ستالين كان عنده ببغاء وضعها في قفص بشقته في الكرملين. وكان من عادته أن يذرع غرفته جيئة وذهابا لفترات طويلة من الزمن، وهو يدخن الغليون، ويفكر في أشياء لايعلمها إلا الله، ويبصق على الأرض بين الفينة والفينة. وذات مرة حاولت الببغاء أن تقلد ستالين في بصاقه، فما كان منه إلا أن تقدم نحوها وهشم رأسها بغليونه فقتلها على الفور(4)، ويروى أنه كان لستالين زوجة أقضت مضاجعها أعمال التعسف والقمع الوحشي التي اتسمت بها سياساته. وكانت امرأة ذات استقلالية في فكرها وآرائها. فراحت تحاوره ـ ذات ليلة ـ في أعماله وسياساته تلك، فما كان منه إلا أن أطلق عليها النار فأرداها قتيلة(5). وكان لستالين في الحزب الشيوعي وفي السلطة السوفييتية منافس قوي يدعى تروتسكي، فلما تغلب عليه بالحيلة والمكيدة والمناورة نفاه إلى خارج الاتحاد السوفييتي، ثم تعقبه بعد ذلك حتى قتله وقتل كل من كانت تربطه به أية علاقة. وكذلك كان يفعل في كل من يلمح فيه قابلية أن يكون منافسا قويا له على السلطة أو خصما عنيدا له في الحكم. وتقول التقديرات إن ضحاياه من المواطنين السوفييت الأبرياء في عمليات التصفية الجسدية قد تجاوزت الثلاثة ملايين(6).

خطرت له ذات مرة خاطرة تقول إن النظرية الماركسية قد ذهبت إلى ضرورة القيام بثورة صناعية حتى يكون هنالك دولة ماركسية. وهذا التصنيع يحتاج إلى تمويل. وليس من سبيل إلى ذلك إلا بتصدير كميات وافرة من القمح إلى العالم الخارجي. وهذا لا يتأتى إلا بتحويل الأراضي الزراعية التي يملكها الأفراد إلى ملكية جماعية تذوب فيها كافة الملكيات الفردية الزراعية. وتشير أدق التقديرات إلى أن مايربو على أربعة عشر مليونا من المواطنين السوفييت قد لقوا مصرعهم نتيجة ذلك التحول، إما بسبب المجاعات وإما بسبب النفي وإما بسبب المجازر والإعدامات التي ارتكبها النظام(7). أما بالنسبة للحرب العالمية الثانية فقد أدار ستالين دفة القتال فيها على نحو أزهق فيه قرابة ستة وعشرين مليونا من المواطنين

السوفييت. ولما انتهت الحرب هنأ نفسه ليس على النصر العظيم الذي أحرزه فيها بل على ما جلبه له ذلك النصر من فتوحات واسعة ومكاسب إقليمية شاسعة. وقد لخص مولوتوف - وزير خارجية ستالين - موقف ستالين من الحروب العالمية قائلا: «إن ستالين كان يعتبر أن الحرب العالمية الأولى قد أنقذت بلدا من عبودية الرأسمالية، كما أن الحرب العالمية الثانية قد خلقت نظاما اشتراكيا عظيما. أما الحرب العالمية الثالثة فسوف تقضي على الرأسمالية قضاء مبرما أبديا»(8).

إنني لم أكن أقصد من إعادة سرد هذه الوقائع غير إقامة الدليل على أن الولايات المتحدة وحلفاءها لم يكونوا يتعاملون - منذ نهاية الحرب الثانية - مع حاكم عادي من الحجم المتوسط، بل كانوا يواجهون دكتاتورا من الحجم الكبير، مسكونا بالعقد والاضطرابات النفسية، وعلى مستوى عالٍ من العبقرية والدهاء. وكانت شخصيته طاغية مؤثرة ليس في من حوله فقط، بل في الأمة كلها حيث كان دائبا على إعادة تشكيلها على صورته(9) حتى قبل أن تعطيه سياسات الولايات المتحدة المتعلقة بالحرب الباردة المبررات القوية الكافية لسلوك هذا المسلك الوعر وركوب هذا المركب الخشن. أجل، إن القرن العشرين قرن حافل بالمآسي والكوارث والنكبات الجسام، غير أن ما فعله ستالين بالاتحاد السوفييتي وبجيران الاتحاد السوفييتي يفوق كل تصور ويجاوز كل خيال.

وماذا في ذلك؟

وهنا لابد أن يتساءل المرء، وهو محق في تساؤله: وماذا يا ترى في ذلك؟ ألم تكن عيوب ستالين ومثالبه - على امتداد عقود من السنين - واضحة للغرب كل الوضوح؟ ألم تسلط عليها الأضواء في وقت مبكر من نشوب الحرب الباردة من المعسكرين؟ أوليست إثارة هذه القضية الآن أشبه بمن يجلد حصانا مات وتحجر وشبع موتا منذ زمن بعيد؟

في رأيي أن الطبيعة الستالينية موضوع سوف يظل مؤرخو الحرب الباردة في حاجة إلى الرجوع إليه المرة تلو المرة لأسباب تجعل إعادة النظر فيها أمرا في محله.

وأول هذه الأسباب: هو أن سجلات الأرشيف مهمة حتى لو اقتصرت على تأكيد وجهات نظر قديمة ولم تأت بأي جديد. غير أن المصادر السوفييتية الحديثة يمكن أن تخدم أغراضا أخرى غير توكيد المعلومات السابقة أو وجهات النظر السالفة. فالشواهد المتوافرة لدينا اليوم تدل دلالة قوية على أن الظروف داخل الاتحاد السوفييتي كانت في زمان ستالين، وفي زمان لينين، وفي زمان العديد من خلفاء ستالين من بعد، أسوأ مما كان يعتقد معظم الباحثين والخبراء خارج الاتحاد السوفييتي. وهذا ينسحب على أعداد القتلى الذين سقطوا في معركة تحويل الملكيات الخاصة إلى ملكية جماعية، وينسحب على التصفيات الجسدية لأولئك الذين

اتهموا بعدم موالاة النظام، وينسحب على ضحايا الحرب العالمية الثانية، وينسحب على مقدار القسوة التي عامل النظام بها سائر الناجين، وينسحب على مدى الدمار الاقتصادي والبيئي الذي لحق بالمناطق المختلفة التي عاش فيها هؤلاء المعذبون في الأرض، كما ينسحب على ما كان يعنيه النظام السوفييتي لدى البلدان التي ابتلعها أو ألحقها بمناطق نفوذه. فإذا نظر المرء إلى أي زاوية من زوايا التاريخ السوفييتي فإنه سوف يجد ـ فيما ترويه سجلات الأرشيف ـ من قصص الرعب ومن الأهوال ومصارع الرجال ما يزيد كثيرا عما كان قد افترضه أشد الناس عداوة للاتحاد السوفييتي قبل أن يطلعوا على هذه السجلات(10).

وثاني هذه الأسباب: أن مؤرخي الحرب الباردة من الأمريكان كانوا قد شغلوا أنفسهم بما يسمى بالعالم الأول، حيث كانت سجلات الأرشيف مفتوحة أمامهم على مدى سنين طويلة. غير أن بعض هؤلاء المؤرخين قد تنبهوا بعد حين إلى ضرورة أن يوسعوا آفاقهم ويأخذوا شؤون العالم الثالث وأحواله بعين الاعتبار، كما تنبهوا إلى ضرورة أن يصرفوا عنايتهم الكاملة إلى دراسة البعد العدواني في ممارسات الولايات المتحدة السياسية في هذا العالم. إلا أن هؤلاء المؤرخين ـ وعلى الرغم من تأكيدهم حاجة أمريكا إلى نظرة عالمية في علاقاتها الخارجية ـ لم يبذلوا غير جهد ضئيل للوقوف على حقيقة ما كان يجري فعلا في العالم الثاني وأثر السياسات الأمريكية فيه.

وهذا الإهمال في تقصي الحقائق داخل العالم الثاني مرده إلى ثلاثة أمور:

أ ـ نقص المعلومات المتوافرة لدى المؤرخين، وعدم إتاحة المجال لهم كي يدرسوا ذاك العالم من داخله. فقد استطاعت الحكومات في الاتحاد السوفييتي والصين الشعبية وأوروبا الشرقية وسائر البلدان الماركسية أن تخفي الشيء الكثير مما كان يجري في داخلها إخفاء تحفه العناية المركزة والسرية الفائقة.

ب ـ سلبيات المكارثية وتداعياتها: فالمكارثية بتجاوزاتها العقائدية في نهاية الأربعينات وأوائل الخمسينات قد صدمت الأكاديميين الأمريكان إلى درجة جعلت الكثيرين منهم لا ينظرون نظرة جدية إلى مدى تأثير الشيوعية تأثيرا فعليا في سياسات الدول التي تدين بها. أضف إلى ذلك أن اليمين الأمريكي أخذ يسرف في إلصاق تهم التجسس بالناس جزافا، كما أخذ يتوسع فيها ذات اليمين وذات الشمال حتى سمم أجواء الحرية وضيق الخناق على المفكرين الليبراليين.

جـ ـ الانسياق مع النظرية الواقعية في العلاقات الدولية التي تقول بمنح قدر متساو من الشرعية والاحترام لكل دولة من الدول الرئيسية في النظام العالمي، وغض الطرف عن الظروف التي جاءت بحكامها وبأنظمتها إلى سدة الحكم، وغض الطرف كذلك عن الوسائل التي

تستخدمها تلك الدول للمحافظة على السلطة. ولما كانت جميع الدول تسعى إلى القوة والنفوذ فإنها تستخدم لبلوغ ذلك شتى الوسائل والأساليب التي تكاد تقع كلها في المربع نفسه من التبرير. وهذا النمط من التفكير السياسي قد أدى بدوره إلى نوع من المساواة الأخلاقية التي لا تقيم كبير وزن للاختلاف بين تصرفات الدول الدكتاتورية وغيرها من الدول الديمقراطية.

إلا أن هذا الانسياق مع النظرية الواقعية في العلاقات الدولية لم يكن بالتأكيد شاملا جميع مؤرخي الحرب الباردة. فكثير منهم لم يتورعوا عن توجيه الاتهامات إلى الأنظمة الدكتاتورية في العالم الثالث على اعتبار أن حكامها قد وصلوا إلى السلطة بطريقة غير شرعية، كما أدانوا كذلك السياسة الخارجية الأمريكية إدانة قوية لأنها دأبت على مجاراة تلك الدكتاتوريات وتملقها.

غير أن هؤلاء النفر من مؤرخي الحرب الباردة الذين شذوا عن تلك النظرية لم يصيخوا السمع لما كان يقوله بعض مواطني العالم الثاني ممن أتيحت لهم حرية الكلام طوال فترة الحرب الباردة. وتتلخص مقولة هؤلاء الخارجين من وراء الستار الحديدي بأن الشيوعية، كما بلوها في التطبيق العملي، لم تكن غير نظام كامل في الكبت والاستبداد والطغيان، وهي بذلك تفتقر افتقارا تاما إلى الشرعية في الداخل والخارج، تماما كما هي عليه الحال بالنسبة لسائر الأنظمة الدكتاتورية في العالم الثالث. وبهذا المقياس فليس أبرز ما في الشيوعية أنها «إمبراطورية شريرة» كما كان قد وصفها رونالد ريغان، بل كونها نظاما عاريا عن الشرعية ولا يملك من مقوماتها شيئا.

وصفوة القول: إنني أعتقد أن على من يتصدرون لدراسة تاريخ أمريكا الدبلوماسي دراسة واقعية متوازنة أن يتخذوا من «مرآة التاريخ» التي أشار إليها وليامز، هاديا لهم ودليلا، إن كان لديهم الاهتمام الكافي بمأساة استمرت سبعة عقود، وكان لها أعمق النتائج وأبعد الآثار في حياة أكبر أمة على وجه البسيطة، وفي حياة معظم الأمم الأخرى التي كانت تحيط بها.

مسألة رودني كينغ:

(Rodney King)

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: ما أثر ذلك كله في كتابة تاريخ الحرب الباردة؟

لقد كان من أعوص التساؤلات التي كان على مؤرخي الحرب الباردة أن يواجهوها هو ما يمكن أن نطلق عليه التساؤل الذي تثيره قضية رودني كينغ وهو: ألم يكن في مقدورنا جميعا أن نتعايش في جو من التفاهم المتبادل لو أننا بذلنا جهودا مخلصة صادقة كافية لتحقيق ذلك؟

إن هذا التساؤل نفسه كان قد طرح منذ عهد بعيد بالنسبة للطاغية الكبيرأدولف هتلر. واليوم ـ وبعد أن انجلت حقائق الأمور ـ فإننا لا نكاد نجد أحدا من الناس يستعصي عليه أن يقتنع بأن ألمانيا النازية كانت تمثل الشر المطلق في عصرها، وأنه لم يكن هنالك أي مجال للتفاهم مع نظام بغيض كذلك النظام، حتى لو أننا تحلينا بكل النوايا الطيبة وبذلنا كل المساعي الحميدة.

وعلى الرغم من ذلك فقد ذهب مؤرخو الدبلوماسية الأمريكية إلى القول إنه كان على الولايات المتحدة أن تبذل من الجهد المخلص الموصول أكثر مما بذلت من أجل التفاهم مع الاتحاد السوفييتي قبل أن تندلع شرارة الحرب الباردة(11). وما ذلك إلا لأنهم كانوا يرفضون الفكرة القائلة إن ستالين لم يكن في حقيقة الأمر أكثرمن نسخة ثانية من هتلر، والقائلة كذلك إن ما كان يجري في الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية لم يكن في الواقع شيوعية حمراء، بل كان فاشية قانية. والصحيح أن الدكتاتور السوفييتي كان يختلف اختلافا كبيرا، في أمور كثيرة مهمة، عن مثيله النازي. فستالين كان أكثر تحفظا وأشد حرصا من هتلر، وكان لا يبالي بالتراجع إذا واجهته مقاومة عنيدة يخشى ألا يستطيع حسمها لصالحه، بل كان لا يبالي بالتراجع لمجرد قناعته بأن مقاومة عاتية ستهب عليه إذا أقدم على تنفيذ خطة من خططه أو برنامج من برامجه أو سياسة من سياساته.

غير أن روبرت تاكر (Robert Tucker) والان بولوك (Bolluck) قد ذهبا أخيرا إلى أن أوجه الشبه بين ستالين وهتلر تفوق كثيرا أوجه الخلاف بينهما(12). فكلا الرجلين كان قائدا لا هم له إلا التفرد بالزعامة والسيطرة على كل من حوله، وكلاهما كان يجمع في شخصه بين النرجسية وجنون الارتياب في الآخرين (البارانويا) مما أهلهما أيما تأهيل للوصول إلى السلطة والاحتفاظ بها حتى في أحلك الظروف. ورغم أنهما كانا يمارسان المناورة والتراجع التكتيكي فإنهما لم يكونا أبدا على استعداد أن يحيدا أو يتراجعا عن أهدافهما الاستراتيجية. وكانا ـ كلاهما ـ على جانب عظيم من المكر والخبث والدهاء، إن أعطيت أحدهما درهما سعى لحيازة قنطار. والأنكى من ذلك أن كلا منهما كان يرى أمنه في حرمان الآخرين أمنهم. ولقد نعلم ـ منذ زمن طويل ـ أن هتلر قد سفك دماء الملايين صدورا عن هذا التصور، كما نعلم أن ستالين قد سفك هو الآخر من الدماء ما تقشعر لهوله الأبدان.

إن القراءة الواعية المتأنية للدراسات التاريخية العميقة التي قدمها لنا المؤرخون من أمثال تاكر وبولوك والروسي ديمتري فولكوغونوف تجعل من العسير على المرء أن يتصور كيف كان لنا أن نتفاهم مع أي من هذين الطاغيتين تفاهما ناجعا، أو أن نتعايش معهما تعايشا طويلا نافعا. فنحن هنا كنا نتعامل مع دول أعيد تشكيلها على صورة أشخاص لم تكن تتوافر لديهم

الرغبة أو العزيمة في العمل مع الآخرين ضمن إطار من التعاون الصادق والتعايش الأمين، ذلكما الشرطان - أعني التعاون والتعايش - اللذان ينبغي لأي نظام سياسي في العالم أن يعض عليهما بالنواجذ كي يضمن بقاءه واستمراره وتماسك أجزائه.

غير أن مأساة الحرب الباردة - على الرغم من هزيمة الفاشية في ميادين القتال خلال الحرب العالمية الثانية - تتمثل في أن الاستبداد الذي رعته الماركسية اللينينية وغذته وحافظت عليه قد ظل باقيا على قيد الحياة السياسية بعد الحرب، يانعا كما كان قبلها، هو هو لم يهزم ولم يندحر ولم يتراجع. ولقد بلغ هذا النمط من الحكم الاستبدادي ذروة سنامه وقمة عنفوانه خلال النصف الثاني من أربعينات هذا القرن في الوقت الذي كان فيه الاتحاد السوفييتي برمته حطاما ماديا وركاما. إلا أنه يبدو أن الظروف المادية وحدها ليست هي سبيل الرشاد لتفسير أحداث العالم. وقد كان من جراء صموده هذه الظاهرة الاستبدادية على صعيد الحكم أن استطاع ستالين أن يوجد له أتباعا ومقلدين في مختلف أصقاع العالم، يقتفون آثاره، وينسجون على منواله ويستلهمون آراءه وأفكاره. ولقد امتد نفوذ هؤلاء الطغاة إلى ما بعد رحيل ستالين سنة 1953 بوقت طويل.

وأشباه ستالين هؤلاء ظهروا أول ما ظهروا في أوروبا الشرقية، حيث أقام ستالين هناك أنظمة دكتاتورية كانت حريصة غاية الحرص على اتباع خطواته والتزام شرعته ومنهاجه. وقد راحت هذه الأنظمة في أواخر الأربعينات تجري محاكمات تصفوية خاصة بها أسوة بما كان قد فعله زعيمها التقدمي من قبل. ولا ريب أنه كان لستالين تأثير عميق في ذلك الجزء من العالم، ذلك التأثير الذي كان لايزال واضحا غاية الوضوح بعد نيف وأربعين عاما، كما دلت على ذلك أبلغ دلالة سيرة حياة أريك هونيكر ونيقولاي تشاوتشسكو وأضرابهما من طغاة أوروبا الشرقية. ولامراء أيضا في أن ستالين كان هو المثل الأعلى لثالث كبار الطغاة في القرن العشرين، أعني ماوتسي تونج الذي لم تظهرعليه أية رغبة في التعاون مع الولايات المتحدة عندما تسلم مقاليد الحكم في الصين عام 1949 (13). وعلى الرغم من ظهور خلافات حادة بين ماو وخلفاء ستالين، فإن ماو كان لا يزال ماضيا في تقليد ستالين، خاصة عندما دشن برنامج سيىء الإعداد الذي عرف باسم «القفزة الكبرى إلى الأمام» في عام 1958، ذلكم البرنامج التصنيعي المكثف الذي يعتقد أنه أودى بحياة مايقارب الثلاثين مليونا من الصينيين. وهو عدد من الضحايا بين المدنيين يربو على ضحايا هتلر وستالين مجتمعين(14). زد على ذلك أن صغار الطغاة الذين ظهروا خلال الحرب الباردة كانوا صورة طبق الأصل عن ماو أو ستالين أو مثل كيم إيل سونج وهوشي منه وفيدل كاسترو ومنغستو هيلامريام وبابراك كارمل وغيرهم. كل أولئك ترسموا خطى سلفهم الصالح: وعدوا شعوبهم

بالحرية والتحرير ورفاهة العيش، ثم أذاقوهم الويل والثبور وعظائم الأمور.

وهنا ينبغي أن نعود إلى القول إن الطغاة ـ سواء منهم من كان حسن النوايا أم سيئها ـ ليسوا ظاهرة شاذة من ظواهر التاريخ. والولايات المتحدة نفسها كانت قد ارتبطت مع العديد منهم بروابط كثيرة أثناء الحرب الباردة وقبلها، على الرغم من أنهم كانوا يسومون شعوبهم سوء العذاب، ويذيقونهم من ضروب المذلة والهوان والخسف والحرمان مايقصر دونه الوصف والبيان.

غير أن طغاة الماركسية اللينينية كانوا يتميزون من بين سائر الطغاة بميزة خاصة، كان على مؤرخي عصر ما بعد الحرب الباردة أن يتنبهوا لها ويدركوا أصلها وفصلها. فهم كانوا ـ كما كان هتلر ـ مثاليين قتلة تحدوهم رغبة جامحة في توجيه كل طاقاتهم وطاقات بلادهم لتطبيق مجموعة من البرامج التي كانت ـ في الواقع ـ غير قابلة للتطبيق نظرا لأنه لم توفر لها الدراسة العميقة الشاملة والإعداد المناسب الكافي. لقد آمن هؤلاء الطغاة بأن قوة الإرادة وحدها قادرة على تخطي كل العقبات وتجاوز كل الصعوبات. وفي سبيل ذلك كانوا على استعداد تام للتضحية بأية أعداد من المواطنين يتطلبها الموقف. ولو أردنا أن نصدر اليوم حكمنا على هؤلاء الطغاة لقلنا إنهم لم يكونوا ساسة واقعيين، بل كانوا رومانسيين متوحشين، بعيدين كل البعد عن الرومانسية المثالية الرفيقة بالإنسان الحالمة بحريته وسعادته.

إعادة اكتشاف كارل ماركس

ولكن ما الذي جرى في هذا القرن العشرين حتى فتحت الأبواب على مصاريعها لهؤلاء الرومانسيين المتوحشين لكي يبلغوا ما بلغوا من جبروت خلال العقود الثمانية الأولى من هذا القرن، ثم ما أن يشرف العقد التاسع منه على الانتهاء حتى نراهم يتدحرجون من قمم السلطة ويخرون على رؤوسهم صرعى بشكل فجائي متسارع أذهل الناس جميعا.

لا شك، وعلى الرغم من كل مايقال، فإن أكابر الطغاة جميعا لم يهبطوا علينا من كوكب آخر. إنهم بشر من الناس نبتوا وترعرعوا في ظروف لا يد لهم في صنعها، استغلوها بمهارة فائقة وتصميم مدهش، فارتفعت بهم إلى الصف الأول بين القادة في هذا العالم. وكان التاريخ إلى جانبهم حينا من الدهر، ثم تخلى عنهم. ونحن بحاجة لأن نفهم أسباب ذلك.

ولعل مما يساعدنا على فهم ماجرى لهؤلاء الطغاة من إقبال الدنيا عليهم ثم إدبارها عنهم تلكم النصيحة التي أسداها إلينا وليم أبلمان ليامز(15) ـ تلكم النصيحة التي تدعونا إلى إعادة اكتشاف كارل ماركس. فإلى ماركس، أكثر من أي مفكر آخر، يعود الفضل في لفت أنظارها إلى وجود قوى فاعلة في التاريخ تؤثر ـ في المدى الطويل ـ في البنى الإنسانية فتشكل أنماطا معينة من الإنتاج الاقتصادي والتنظيم السياسي، ويتطاول تأثيرها إلى الوعي

الاجتماعي. فهو قد كشف النقاب عن وجود عمليات بنائية (Tectonic Processes) تحرك التاريخ في خط صاعد إلى الأمام شبيهة بتلك العمليات الجيولوجية التي تحرك القارات على وجه البسيطة. غير أن هذه القوي البنائية لا تحدد تصرفات الأفراد، لكنها تهيىء لهم الوسط الذي يتحركون من خلاله. ففي مقالته الشهيرة التي ظهرت عام 1852 بعنوان «الخريف الثامن عشر للويس بونابرت» يقرر ماركس أن الرجال هم الذين يصنعون تاريخهم بأنفسهم، غير أنهم لا يفعلون ذلك من خلال ظروف هم خلقوها، بل من خلال ظروف انتقلت إليهم من الماضي فاستغلوها أحسن استغلال حتى صارت الرياح تجري بما تشتهيه سفنهم(16).

وعلى الرغم من وجاهة هذا الرأي الذي ذهب إليه ماركس في تفسير التاريخ فإننا قد أعرضنا عنه طويلا وأهملناه كثيرا لأسباب عديدة:

أ ـ أولها: أننا ـ وبكل بساطة ـ قد خلطنا بين الماركسية والماركسية اللينينية التي لم تكن ـ في الحقيقة ـ غير تحريف ما بعده تحريف لأفكار كارل ماركس وطروحاته.

ب ـ وثانيها: أن ضعف ماركس في الفكر الاقتصادي كان شديدا إلى درجة طمست معها قوته كمؤرخ فيلسوف يعتد بفهمه لحركة التاريخ وتحليله لأحداثه.

ج ـ وثالثها: أن ماركس أضعف نفسه بنفسه في معرض تحليله التاريخي، حين وقع ضحية مايمكن أن نسميه اليوم «مغالطة فوكوياما» التي يتوهم أربابها أنهم قد وصلوا إلى السر النهائي لآلة التاريخ، وأن التاريخ بالفعل قد توقف عندهم. فماركس مضى إلى الجزم بأن التطور التاريخي الصاعد دوما سوف ينقلنا من الإقطاعية عبر الرأسمالية إلى الاشتراكية ثم آخرا وأخيرا إلى الشيوعية على نحو يستحيل معه إعادة التاريخ إلى الوراء، ولسبب مجهول لا ندري من أمره شيئا، يتوقف التطور التاريخي عند هذا الحد يراوح مكانه(17).

والذي يبدو لنا من استقراء أحداث التاريخ القريب أن القوى البنائية التي تمثلت في الثورة الصناعية والوعي الطبقي وما تمخض عنه من صراعات قد أضعفت نظام رأسمالية السوق الديمقراطية البرجوازية الحرة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. فمهدت بذلك السبيل لظهور الفاشية والشيوعية وما رافقهما على الساحة السياسية من طغيان واستبداد

غيرأن هذه القوى البنائية اتخذت أشكالا أخرى في النصف الثاني من القرن العشرين بعد أن استتبت أمور التصنيع في البلدان الرأسمالية الصناعية، وبدأت تشهد ثورة جديدة في عالم الاتصالات. فكان هذا مما أضعف الأسس التي قام عليها الطغيان والاستبداد. فبدلا من أن نتحول إلى الاشتراكية ـ كما تقول النظرية الماركسية في التطور التاريخي ـ رجعنا مرة أخرى

إلى رأسمالية السوق الديمقراطية البرجوازية الحرة. وبذلك يكون ماركس قد خلط بين الحركة التاريخية الصاعدة في خط مستقيم والحركة الصاعدة في خط دائري. وقد كان ذلك منه خطأ فادحا حقا، إلا أنه لا يقلل من شأنه كمفكر عظيم استطاع أن يتعامل مع أحداث التاريخ من منظور واسع، كما استطاع أن يرصد وجود قوى بنائية تاريخية فاعلة في المجتمعات البشرية، ويحاول في الوقت نفسه أن يستقرىء الدور الذي تلعبه تلك القوى في حياة الناس. وهذه الرؤية التي ذهب إليها ماركس تصلح أن تكون منطلقا لإعادة النظرلا في شؤون الحرب الباردة وحدها، بل وفي شؤون القرن العشرين برمتها.

وبناء على تلك الرؤية، فإن بوسعنا أن نفهم أن كبار الطغاة الذين ظهروا في هذا القرن قد تمكنوا في الأرض لأنهم استطاعوا أن يحولوا القوى البنائية المؤثرة لصالحهم، فهم قد وجهوا أشرعتهم في اتجاهها، فأوجدوا انطباعا لدى الناس بأن حركة التاريخ هي حتما إلى جانبهم في معظم أعمالهم. إلا أن هذه القوى البنائية الفاعلة في التاريخ قد تحولت ـ مع مرور الزمن ـ عن مسار الأول إلى مسار جديد، عجز الخلف من الطغاة المستبدين عن رصده والتكيف معه، فاضطربت أحوالهم، وعفا عليهم الزمن، فأصابتهم قارعة الديناصورات حين تغيرت البيئة التي ترعرعت فيها فلم تستطع أن تتكيف مع البيئة الجديدة. بل لعل في وسعنا أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول: إن النتائج التي آلت إليها الحرب الباردة كانت نتائج حتمية، وإن المأساة الحقيقية في تاريخ الحرب الباردة تتلخص في أن تلك الجهود الهائلة التي بذلناها لنورد الأنظمة الدكتاتورية الكبيرة موارد الهلاك كانت كلها جهودا ضائعة وتضحيات لا لزوم لها، لأن هذه النهاية التي لقيها أربابها كانت ـ لا محالة ـ هي مصيرهم المحتوم ولو لم ندخل معهم في حرب باردة بأي شكل من الأشكال(18).

إلا أنه كان من غير المحتمل أن يذهب ماركس إلى مثل هذا الرأي في فهمه وتحليله لحركة التاريخ، لأنه لم يكن أصلا من القائلين بالحتمية التاريخية. وبوسعنا أن نتصور كارل ماركس يقول: إن الطغاة المستبدين قد تسلموا مقاليد السلطة هنا وهناك لأنهم كانوا من أصحاب الأدوار المهمة في ظروف تاريخية مواتية أتاحت لهم إمكانات هائلة صنعوا من خلالها تاريخهم بأنفسهم. فالتقاء الفعل مع الظرف، أو لنقل إن العمل المناسب في الظرف المناسب هو الذي يقود إلى تحقيق النتائج والغايات، وليس العمل وحده ولا الظرف وحده بكافيين لبلوغ الأهداف الكبيرة وتحقيق الإنجازات العظيمة.

وتأسيسا على الإقرار بهذا المبدأ فإننا لا نجد مندوحة من قبول الدعوى بأن مقاومة الطغيان والاستبداد من قبل الولايات المتحدة كان لها أثر كبير فيما انتهت إليه الأمور بالنسبة للحرب الباردة. إذ ليس من المعقول أن نتصور أن الطغاة كانوا هم وحدهم القادرين على استغلال القوى البنائية في التاريخ، على حين كان خصومهم عاجزين عن فعل ذلك كل العجز.

وهذا يعيدنا إلى إعادة تقييم الدور الذي لعبته الولايات المتحدة وحلفاؤها في شؤون هذا القرن.

ولابد أن يتذكر الناس - في هذا الصدد - أن تاريخ القرن العشرين قد تميز تميزا رئيسا بنشوء الدكتاتوريات الكبرى وسقوطها. فلا مناص للمؤرخين - والحالة هذه - من أن يناقشوا الدور الذي لعبته الولايات التحدة في مقاومة تلك الأنظمة ومحاربتها. وليس عندي من شك في أن قراءتهم لذلك الدور قراءة بصيرة سوف توصلهم إلى جملة من الحقائق، صفوة القول فيها:

أ- إن الولايات المتحدة استطاعت أن تسخر القوى البنائية في التاريخ تسخيرا حقق من النجاح أكثر مما حقق الطغاة، وأن النظرة البعيدة لمستقبل العالم كما تصوره ولسون قد انتصرت - بعد صراع طويل - على تلك التي كان يقول بها لينين وستالين وهتلر وماو وأشياعهم.

ب- إن وقوف أمريكا في وجه المد الدكتاتوري قد أعطى الدليل على أن الطغيان ليس هو الطريق الأوحد لمستقبل الشعوب، وأنه قد زلزل بالفعل أركان الطغيان زلزالا شديدا أدى إلى هدم صروح الاستبداد الدكتاتوري والإطاحة بعروش أصحابه كما شاهدنا في الأعوام الأخيرة.

وبين هذه النظرة إلى حركة التاريخ وتلك فإن المؤرخين قد يجدون أن الحقيقة تقع في منزلة بين المنزلتين.

ومهما كانت النظرة التي ننطلق منها لتفسير أحداث الحرب الباردة، فإن دور الولايات المتحدة في مقاومة الدكتاتوريات الكبرى ينبغي أن يكون محور المناقشة. كما أن على مؤرخي العلاقات الخارجية الأمريكية أن يكونوا في قلب هذا النقاش، رغم أنني لا أرى أي شاهد على ذلك. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أننا - نحن المشتغلين في هذا الميدان - قد وقعنا تحت تأثير وليامز في فهمه لمعنى المأساة مما أوجد على أعيننا غشاوة جعلتنا لا نرى الأمور على حقيقتها.

صحيح أن الآراء الناقدة التي تناول فيها وليامز المسلمات السائدة في عصره كانت غريبة كل الغرابة إلا أننا - مع غرابتها - أنزلناها منزلة الحكم البالغة والأقوال المأثورة. فلابد إذن أن نستدرك على فهم وليامز لأنه إن طال به العهد فسيؤدي لا محالة إلى الإضرار بفهمنا لدورنا في هذا العالم كما سيؤدي إلى تشويه فهمنا لأنفسنا.

فنحن حين نتكلم عن المأساة ينبغي أن يتبادر إلى أذهاننا أن نتسائل: بأي مقياس من المقاييس يصح لنا أن نعتبر أمرا ممن الأمور أو حدثا من الأحداث أنه مأساة؟ صحيح أن

هنالك فجوة موجودة دائما بين طموح الدول ومنجزاتها الفعلية كما هي موجودة في حياة سائر الأفراد في هذا العالم، غير أن مجرد وجود الفجوة لا ينبغي أن يكون هو المقياس لتقرير وجود المأساة أو تعريفها، لأن ذلك سوف يجعل منها ظاهرة ملازمة للوجود الإنساني لا تنفصل عنه بحال من الأحوال.

وهذا بدوره يضعف قابليتها في أن تخضع للدرس والتحليل إضعافا شديدا. أما إذا عرفنا المأساة تعريفا يتناسب تناسبا طرديا مع حجم الفجوة التي تفصل بين الطموح والإنجاز الفعلي فإن مثل هذا التعريف يصبح حينئذ مفهوما نافعا في الدرس والتحليل.

وبناء على هذا التصور فإننا لو قارنا سجل الولايات المتحدة بسجل غيرها من الدول الكبرى في القرن العشرين لوجدنا أن البعد المأساوي في السياسة الأمريكية الخارجية باهت وغير لافت للأنظار. ولعل هذا هو مايفسر لماذا كانت الولايات المتحدة الملاذ الآمن والفردوس الموعود لأولئك الذين كانوا يبحثون ـ خارج أوطانهم الأصلية ـ عن حياة كريمة وحرية غامرة وعدالة لا تشوبها شائبة.

وإذا كان على المؤرخين أن يصيخوا السمع لأصوات المظلومين والمسحوقين في هذا العالم، فإن علينا ألا نختار أو ننتقي من تلك الأصوات مايروق لنا أو يناسب أحكامنا المسبقة، بل ينبغي أن نستمع إلى صيحة كل مظلوم وأنة كل مسحوق.

وما ينطبق على سائر الناس ـ من ناحية مأساوية ـ ينطبق كذلك على الأمريكان. غير أن المؤرخين حين أرادوا أن يطبقوا معنى المأساة على السياسة الأمريكية تناولوا الموضوع تناولا اتسم بالضحالة وقصر النظر والبعد عن الشمول، لأن العالم الذي نعيش فيه بعيد عن المثالية والكمال، قيم الحق والخير فيه هي قيم نسبية وليست قيما مطلقة. وهذا يعني أن نقارن البعد المأساوي في السياسة الأمريكية بغيره من الأبعاد المأساوية في سياسات القوى الكبرى الأخرى التي تحيط بأمريكا في هذا العالم. وهذا هو السبيل الذي يجعلنا نوظف التاريخ توظيفا ناجعا، نستفيد من عبره ودروسه ولا نتخذ منه منصة ننطلق منها للإسراف في جلد الذات أو للإسراف في تمجيدها.

وهذا كله يعني ـ أساسا وقبل كل شيء ـ أن نقوم بواجبنا، كمؤرخين، خير قيام، وذلك بأن نتحلى بالأمانة، ليس مع أنفسنا فحسب، بل مع جميع الناس الذين يشكلون الدائرة التي نعيش في داخلها، والدوائر الأخرى التي يعيش في داخلها سائر البشر. وهو يعني أخيرا أن نقدم التحية والاحترام للأحياء كافة من بني الإنسان، كما نستمطر شآبيب الرحمة على كل أولئك الموتى الذين قضوا في سبيل قضاياهم العادلة، أو أزهقت أرواحهم ظلما وعدوانا.

وإني أخشى ألا نكون قد فعلنا ذلك بعد.

هوامش ومراجع

1 ـ وليام أبلمان وليامز. نشرت الطبعة الأولي من كتاب وليامز سنة 1959.
The Tragedy of American Diplomacy rev. ed. New York: Norton, 1988 pp (13-26)

2 ـ أحسن بحث حديث في التخطيط الأمريكي لما بعد الحرب هو مقالة ميلفن بي لفلر والحاصلة على جائزة بحق خصوصا الصفحات 1 ـ 24 وهي:
A preponderance of power: National Security, the Truman Administration and the Cold War, Stanford University Press, 1992.

3 ـ النقل من كليوشفسكي في الصفحة 22.
Robert C. Tucker, Stalin in Power: The Revolution from Above, 1928 - 1941 New York: Norton, 1990 pp 17-23, 60-64, 276-82, 282-86.

4 ـ المصدر نفسه ص 147.

5 ـ المصدر نفسه ص 215 ـ 217 انظر.
Dimitri Volkogonov, Stalin Triumph and tregedy ed. and Translated by Harold Shukman, New York, Grove, Weidenheld 1991, p94.

6 ـ Robert Conquest, The Great Terror: A Reassessment New York Oxford University Press, 1990 p.486.

7 ـ Robert Conquest, The Harvest of Sorrow : Soviet Collectivization and the Terror - Famine. New Yor;: Oxford University Press, 1986, p 306.

8 ـ Albert Resis, ed., Molotov Remembers. Inside Kremlin Politics: Conversations with Felix Cheuv, Chicago: Ivan R. Dee, 1993, p.63.
هذا التعليق يردد صدى تعليق آخر أكثر شهرة نقله منذ مدة طويلة ميلوفان جيلاس «ستنهي الحرب قريبا وسنسترد قوانا في مدى خمس عشرة أو عشرين سنة، وسنعيد الكرة مرة أخرى» أرقام ضحايا الحرب العالمية الثانية مأخوذة من كتاب فولكوغونوف «ستالين ص 505.
Conversations With Stalin, trans by Michael B., Petrovich, New York: Harcourt, Brace and World, 1962, pp. 114-115.

9 ـ يعطي هذا المصدر تفسيرا واضحا مبنيا على المصادر المستمدة من علم النفس، للقول بأن البارانويا لا تؤدي بالضرورة إلى تعطيل القدرة على القيام بالواجب. بخصوص ذكاء ستالين راجع كتاب فولكوغونوف السابق الذكر صفحات 225 ـ 236.
Alan Bullock, Hitler and Stalin: Paralled Lives, New York: Knopf, 1992 Alan pp. 360- 62.

10 ـ بخصوص هذه النقطة أنا مدين لزميلي من جامعة أوهايو ستيفن مايز. هناك شذوذ مثير للجدل في هذا الخصوص وهو:
VictimslJ. Arch Getty, Gabor T. Ritterspoon and N. Z Zemskov, of the Soviet Penal System in the Prewar years: A first Approach

on the Basis of Archival Evidence, American Historical Review, October 1993, pp. 1017 - 94. Cold War International History Project at the Woodrow Witson Intenational Center for Scholars in Washington:

تعطي هذه النشرة وأوراقها العملية خدمة مفيدة للغاية بمتابعة وتقييم المعلومات الجديدة من ملفات الأرشيف السوفييتي وفي أوروبا الشرقية والصين.

11 ـ أحدث دراسة رئيسية تتبنى هذا الموقف حتى وإن اعترفت بالكبت الذي مارسه نظام ستالين ـ هي دراسة Leffler التي سبقت الإشارة إليها خصوصا في الصفحات 347 ـ 352، 726.

12 ـ هذه الفقرة تلخص كثيرا من الآراء الرئيسية لكل من تاكر وبولوك المشار إليهما سابقا. يوضح تاكر أوجه التشابه في الصفحات 591 ـ 592 من كتابه، وكتاب بولوك بأكمله يبحث في أوجه التشابه، انظر على الخصوص صفحات 347 ـ 352، 726.

13 ـ في هذا الخصوص انظر:

She Guong Zhang, Deterence and Strategic Chlture: Chineses - American Confronation 1949 - 1958, Ithaca: Cornell University Press, 1992, pp. 13 - 33.

والمبني على أدلة جديدة مهمة من سجلات الأرشيف الصيني.

The Unmasterable Past: History Holocaust, and German National Identity Cambridge: Harvard University press, 1988, pp. 74-75.

14 ـ أنا مدين لجون مولر لهذا المرجع.

Basil Ashton, Kenneth Hill, Alan Piazza and Robin Zeitz, Famine Population and Developmaent Review De- in China 1958-61, cember 1984, 623-45.

15 ـ William Appleman Williams, The Great Evasion: An Essay on the Contemporary Relevance of Karl Marx and on the Wisdom of Admitting the Heretic into the Dialogue about Americals future. Chicogo: Quaadrabgle, 1946. Quoted in Robert, 2nd ed.

16 ـ New York, The Marx-Engels Reader, 2nd ed. Norton 1978 - p. 595

17 ـ هذه التسمية ترجع بالطبع إلى فرنسيس فوكوياما الذي لم يكن موفقا في اختيار صيف سنة 1989 لينشر مقالا قرىء على نطاق واسع بعنوان «نهاية التاريخ».

18 ـ أنا مدين لأحد طلابي فيليب ناش لاقتراحه هذه النقطة.



مستقبل روسيا
بلد الفوضى المنهكة

تأليف: تشارلز إتش. فيربانكس

ترجمة: محمد ظافر قطمة

تعد روسيا، بالنسبة إلى مسؤولينا وموجهي السياسة الخارجية لدينا مكانا مخيفا وغريبا بصورة متزايدة، ولايبدو أننا نعرف موقعنا إزاءها أو ما الذي نفعله فيها.

وقد أفضت حرب الشيشان إلى تصعيد متزايد في الأحداث الغريبة والمقلقة.

العنوان الأصلي للمقال:

The Washington Quarterly, Spring 1995, p.p. 25 - 33.

مراجعة: هيئة التحرير

فقد تسلم الصحافي الروسي ديمتري خولودوف الذي كان يحقق في فضائح جنرالات الجيش من سرقات وتدريب لعناصر «مافيا» الاغتيالات وعمليات جهاز الاستخبارات السري المعروف باسم «إف إس كي» الذي حل محل جهاز «الكي جي بي» الهادفة إلى زعزعة الاستقرار في جمهورية الشيشان تسلم حقيبة من الجهاز المذكور. وعندما قام بفتحها انفجرت وأودت بحياته على الفور.

وتركز الاهتمام على الجيوش الخاصة التي لا توجد في مناطق القوقاز فقط وإنما في موسكو أيضا عندما تعرض «حراس أمن» أحد المليونيرات لهجوم في الشوارع من قبل مسلحين مقنعين تبين أنهم أعضاء في مجموعة الحراس الشخصيين للرئيس يلتسين.

وقد هرع رجال «الكي جي بي» في موسكو لنجدة «حراس الأمن» واشتبكوا مع حرس يلتسين، وكانت الحصيلة طرد رئيس مكتب «الكي جي بي» في موسكو وإخضاع ذلك المكتب إلى الحرس الشخصي لبوريس يلتسين.

وأصبح هذا الحرس الشخصي الذي كان تحت إمرة الرائد السابق في «الكي جي بي» ألكسندر كورجاكوف والإدارة الرئيسية الأكبر بقيادة جنرال «الكي جي بي» بارسوكوف، أصبح مركزا للسلطة غير المنضبطة تضم قوة من أربعين ألف جندي بما في ذلك الدبابات والقوات شبه العسكرية المنتشرة في الأقاليم.

ويقوم كورجاكوف الآن بنقل الوزراء الجدد ويصدر الأوامر إلى رئيس الوزراء لوقف جهود الإصلاح الاقتصادي.

ويعمل «مركزه التحليلي» الجديد على وضع الخطط «للحرس الوطني» وهو نوع من الجيش الموازي مثل «الحراس الحمر» أو «إس إيه» أو «الفافن إس إس» والذي يتغلغل في جميع الأقاليم ويتصل مباشرة مع بوريس يلتسين.

إن مثل هذه الأحداث وفي خضم الشائعات المتزايدة حول إلغاء الانتخابات وحكم الطوارئ الرئاسي وحفلات يلتسين الصاخبة أو مرضه المهلك تدفع إلى جنون العظمة والذعر. ولا شيء من هذا يبعث على الثقة.

لكننا علقنا مع بوريس يلتسين. وكلما تصرف بصورة غريبة أو كيفية أو جنونية، وكلما قلت سيطرته ازداد تشبثا به وذلك من خلال حاجتنا إلى شيء يمكن تعرفه ويبعث على الاطمئنان.

يذكر أن ستروب تالبوت كمسؤول في الإدارة قال لأحد الصحافيين: «من الذي سنتعامل معه؟ إن يلتسين هو رئيس روسيا».

في عام 1987 وعندما بدأت قوى التفكك بإظهار نفسها لأول مرة كان هناك عذر قوي

لعدم الاعتراف بهذه الحقيقة أو لإعداد سياسة للتعامل معها. ولكن في هذه المرحلة وبعد أن انتظرنا طويلا ظهور دولة الإصلاح الخاضعة لغورباتشوف، ومن ثم ظهور الدولة نفسها في عهد يلتسين بدأت الأمور تبدو غريبة.

عبر إدارتين تمسك مسؤولنا بعناد بسياسة تقضي بالتعامل مع الحكومات، وحكومة روسيا في المقام الأول، ومن ثم وضع جميع آمالنا على القائد الموجود آنذاك. الجميع يقولون الآن إن ذلك يجعل سياستنا شخصية بقدر كبير، ومع هذا فإننا نواصل اتباعها. هناك شيء يجري هنا يتجاوز مدى سوء التقدير البشري والمصالح البيروقراطية والزهو والغرور رغم أن جميع تلك العوامل موجودة فعلا. إن هذا الأسلوب بحاجة إلى تفهم على أساس كونه أشبه باضطراب استحواذي ملزم.

إجماع ماقبل الحرب الشيشانية

كانت الحرب الشيشانية ذروة اتجاهات تفاقمت خلال العام الماضي. وأثناء تلك الفترة أصبح الاتجاه الجديد في السياسة الخارجية الروسية واضحا، وكان جازما ومعاديا لأمريكا بصورة متزايدة.

وبحلول خريف عام 1994 بدا أن هناك اتفاقا في الرأي لدى نخبة السياسة الخارجية بوجوب قيام روسيا بتأكيد ذاتها بقدر أكبر وخاصة في الجمهوريات المستقلة في «الخارج القريب» ونيابة عن الرعايا الروس المقيمين هناك.

بدا هذا الإجماع وكأنه استجابة لمزاج شعبي عريض ولكنه كان أيضا محط مشاطرة من جانب معظم المثقفين الديمقراطيين الذين كانوا من أصدقائنا.

وقد تعزز هذا الإجماع البلاغي من خلال أعمال فعلية وحقيقية في جمهوريات «الخارج القريب». وهناك يشترك الناس في إجماع شبه عالمي على أن روسيا هي دولة قوية للغاية، وأنها تسعى الآن لاستعادة الاتحاد السوفييتي السابق، وإن كل ما يحدث هناك تقريبا هو نتاج تخطيط روسي سواء بدا أن له أية علاقة مع روسيا أم لا.

كنت أظن ذات مرة أن تلك الشكوك هي نتيجة تخيلات جنون الريبة وهي حالة شائعة بالنسبة للغربيين في عالم ما بعد الشيوعية. لكن دراسة متأنية للأمور الجلية أظهرت أنه في ثلاث حالات مهمة على الأقل عملت روسيا على زعزعة الاستقرار بالنسبة إلى الحكومات المستقلة لدول سوفييتية سابقة.

وعندما أوشك أبوالفضل الشيبي، وهو رئيس وزراء وطني ومؤيد للغرب على توقيع اتفاقية استثمار نفطية مع شركات غربية تمت الإطاحة به من قبل «سرات حسينوف» وبأسلحة روسية. وعندما قام خليفة الشيبي وهو حيدر علييف بتوقيع اتفاقية مماثلة في الخريف الماضي اعترضت روسيا وجرت محاولة مماثلة للإطاحة به.

وفي جورجيا زودت «وزارات السلطة» وهي وزارة الدفاع التابعة لغراتشيف ووزارة الشؤون الداخلية والوكالات التي خلفت «الكي جي بي» الثوار الأبخاز الذين كانوا يحاربون من أجل الانفصال عن جورجيا بالأسلحة وبالمرتزقة الروس والشيشانيين بغية الضغط على الجانب الجورجي للتوقيع على هدنة. وبعد أن تم التوقيع على الهدنة وسحب الأعتدة الجورجية الثقيلة عمد الجانب الأبخازي الذي استعاد معداته من الروس إلى نقض الهدنة وحصل على نصر تام.

وعندئذ استغل يلتسين الكارثة من أجل إرغام جورجيا على قبول وجود عسكري روسي مستمر وعضوية في «سي آي إس». وقد وصف رئيس لجنة الدفاع في المجلس التشريعي الروسي سيرجي يوشنكوف مبادئ السياسة الروسية كما يلي:

«إنها بسيطة للغاية. لنأخذ القوقاز على سبيل المثال: نحن نحاول إرساء سلطتنا في المنطقة عن طريق استخدام الآخرين وإثارة حرب أهلية ودعم القوات والجماعات المتحاربة بأسلحة وذخائر وحتى بأفراد».

الأزمة الشيشانية

يوفر النزاع الروسي ـ الشيشاني فرصة أفضل لرؤية السياسة الروسية الحقيقية وردة الفعل الداخلية إزاءها وذلك بقدر أكبر من أي من تلك الأحداث.

وقامت جمهورية الشيشان، كأحد الآثار الجانبية لتفكك الاتحاد السوفييتي عام 1991، بإعلان استقلالها بزعامة الجنرال دوداييف. وكان ذلك أحد الأحداث في العالم التي استطعنا بصعوبة استيعابها. ذلك أنه كان أشبه بقيام كويبك أو بريتاني أو اسكتلندا بإعلان استقلالها وتسلحت بكثافة تامة وتحولت إلى قاعدة للمجرمين الذين أخذوا يسرقون القطارات المتجهة من جزء من البلاد إلى الجزء الآخر. ولم يبذل الجنرال دوداييف أية جهود لإعطاء الشيشان البنية النظامية لدولة عادية. فقد تصرف كقاطع طريق، أو في أحسن الأحوال مثل شخصية روبن هود في العصور الوسطى، والذي أصبحت لديه بفضل الليونة الروسية دولة يعبث بها.

إن جمهورية الشيشان لم تكن مشكلة حقيقية فحسب، وإنما مهانة قائمة ومستمرة لروسيا وأسهمت في تحريض المناطق الأخرى غير الروسية على إعلان استقلالها. ولذلك فقد كان لروسيا أسبابها بالغة الخطورة من أجل رفض استقلال الشيشان. وهنا سوف تفكر أن إجماع السياسة الخارجية القومية الجديدة سوف يتم تطبيقه.

وفي الواقع كان هناك تدخل أثر إعلان استقلال الشيشان. لكنه أخفق وتنصل منه مجلس السوفييت الأعلى، ولحسن الحظ لم تكن هناك حاجة إلى استخدام القوة لأن الشيشان كانت معزولة تماما بالأراضي

الروسية في جوانب ثلاثة، وبأعلى سلسلة من جبال القوقاز في الجانب المتبقي، ولا توجد طرقات عبر جبال القوقاز هنا، كما أن جميع الطرق البرية والحديدية وجميع أنابيب النفط بين الشيشان والعالم الخارجي تمر عبر روسيا.

ورغم ذلك لم يكن هناك حصار فعلي لجمهورية الشيشان. وقد يكون التفسير كما اتهم العديد من الصحافيين الروس، هو أن المسؤولين المتنفذين كانوا يستخدمونها كنوع من الميناء الحر لأجل عمليات تصدير غير مشروعة للنفط والذهب والماس والسلاح. وربما كانت هناك أيضا أسباب سياسية، فبعض الأسلحة غير المشروعة كانت تشحن كما يبدو إلى صربيا.

وكان المرتزقة الشيشان يستخدمون في العمليات الروسية الرامية إلى سلخ أبخازيا عن جورجيا والشيء المذهل بقدر أكبر كان أن الشيشان التي أعلنت استقلالها قد تحدت روسيا، وأنشأت جيشا وعزمت على إقامة علاقات خارجية ومع ذلك فإنها ظلت حتى وقت قريب جدا تتلقى مساعدات من الحكومة الروسية مثل أي إقليم آخر متخلف.

وهكذا حافظت جمهورية الشيشان على استقلالها لأعوام ثلاثة، وهي واحدة من عشر دول صغيرة من حقبة ما بعد الشيوعية وتمتد من كرواتيا إلى الحدود السوفييتية - الصينية القديمة في «باميرس» والتي تتمتع باستقلال فعلي ولكن دون اعتراف دولي أو مسؤوليات عالمية. وخلال ثلاث سنوات من استقلال الشيشان حدث خروج بطيء للروس. ذلك أن العاصمة «غروزني» هي مدينة روسية قديمة تأسست عام 1818 كقلعة ضد الشيشان.

وعندما انهار الاتحاد السوفييتي كان نحو ثلاثة أرباع سكان «غروزني» من الروس. وتم طرد قرابة نصف أولئك السكان ليس نتيجة قرار من الحكومة الشيشانية حسب ما يبدو وإنما بسبب حقيقة أن الحياة هناك غدت بالغة الصعوبة والخطر. إن قلق روسيا على المواطنين الروس في الخارج يجب أن يشاهد في ضوء هذا النوع من الحقائق. إن الروس في الخارج القريب يعانون من التمييز وهم يشعرون في بعض الأماكن أو يتم دفعهم للشعور بأنهم ليسوا موضع ترحيب. ولكن روسيا، بصورة عامة، لم تفعل أي شيء إزاء ذلك خلافا للأوهام السائدة داخل روسيا وفي الغرب معا.

ونحو نهاية صيف عام 1994 تخلت الحكومة الروسية عن أسلوبها الذي اتبعته طوال ثلاثة أعوام من التساهل إزاء واقع استقلال الشيشان. وتم تسليح وتنظيم العشائر التي كانت تعارض باستمرار دوداييف بهدف الإطاحة به. وكان مثل هذا القرار مسألة مفهومة بالتأكيد من جانب روسيا. ولكن يبدو أنه كان جزءا من أسلوب يهدف إلى استعادة النفوذ والوجود العسكري

الروسي في جميع أنحاء القوقاز وذلك كجزء من السياسة الخارجية التي سلف ذكرها. وقد سبق ذلك في الواقع مناورات استهدفت زعزعة الاستقرار في البلدين المستقلين جورجيا وأذربيجان اللذين كانا النموذج المتبع.

كان يجب أن ينظر إلى قرار يلتسين في سياق اعتماده المتزايد على «وزارات القوى» التي قامت بتنظيم تلك المغامرات السابقة. وقد أدى صراعه مع المعارضة الشيوعية والوطنية في مجلس السوفييت الأعلى، الذي أصبح «الدوما » الآن، والذي بلغ ذروته في معركة الشوارع في أكتوبر 1993 قد أثار عداء اليمين. في هذه الأثناء وفي غياب عدو شيوعي، تحولت القوى الديمقراطية إلى مجموعات صغيرة متصارعة أغضبها استخدام يلتسين للقوة ضد مجلس السوفييت الأعلى.

ولم يعد هناك سوى عدة كيانات متماسكة بإمكانها إسناد يلتسين وذلك باستثناء الجيش وقوى الأمن.

حاول قادة تلك الوزارات ولمرات ثلاث قمع جمهورية الشيشان ولكنهم أفسدوا الحملات شهرا بعد آخر وأحالوها إلى أزمة قومية هددت موقف يلتسين ذاته. ولأنه لم تتم إزاحتهم نتيجة هذا الفشل فقد ازداد الانطباع بأن يلتسين يعتمد عليهم بشكل شخصي.

بدأت المرحلة الأولى من الحملة خلال خريف عام 1994. وقامت وزارات القوى معتمدة على «النموذج الأبخازي» في استخدام وكلاء محليين لتحقيق غايات موسكو بتنظيم وتسليح عشائر المعارضة الشيشانية لمهاجمة دوداييف. لكن تلك الهجمات أخفقت، ولم ينجح النموذج الأبخازي هناك.

وبدأت المرحلة الثانية في 25 نوفمبر. يومها تم إرسال تعزيزات من الوحدات الخاصة في القوات الروسية، مثل فرقة كانتيميروف، التي تقوم بحماية وضع يلتسين في موسكو، لدعم المعارضة الشيشانية، وتم إبلاغ الصحافيين بأن تلك القوات سوف تستولي على «غروزني» وتحتل قصر الرئاسة في اليوم التالي.

في تجاهل لسلسة التلال المحيطة بمدينة «غروزني» انطلق الهجوم مباشرة بالدبابات نحو مركز المدينة المزدحمة وقصر الرئاسة. ولم يكن مفاجئا أن الهجوم أخفق وتراجعت المعارضة الشيشانية مع حلفائها الروس إلى قواعدهم بصورة مهينة.

وبعد سوء التصرف من جانب «الكي جي بي» و«إم في دي» بشكل تام في العمليات «السرية» الأولى لزعزعة استقرار الشيشان أنحى يلتسين باللائمة على الجيش غير المدرب. كان معظم كبار قادة الجيش الروسي يعارضون ذلك. لكن وزير الدفاع غراتشيف تقبل الأمر بارتياح، ثم وجه يلتسين إنذارا مدته 48 ساعة لقوات دوداييف لإلقاء السلاح، تم تمديده عدة مرات، بشكل أظهر

حالة التشوش في موسكو، ولكن المرحلة الثالثة ـ أي الغزو ـ بدأ أخيرا في الحادي عشر من شهر ديسمبر ومن جديد أخفق الهجوم، وعندما عمدت القوات الشيشانية التي وجدت نفسها في خضم الغزو إلى أخذ رهائن رفض القادة الروس التقدم أو القتال من أجل إطلاق سراح الرهائن. ثم قامت موسكو بمحاولة ثانية عبر هجوم واسع النطاق عشية رأس السنة الجديدة. ومن جديد تقدمت القوات العسكرية مباشرة نحو مركز مدينة «غروزني» حيث حوصرت وتعرضت للموت حرقا بالدبابات أو استسلمت وهي في حالة ذعر.

ويبدو أن الأوامر التكتيكية قد أعطيت ليس من قبل رجل عسكري وإنما من نيكولاي يغوروف وهو رئيس مزرعة جماعية سابق قام يلتسين بتعيينه من أجل تنسيق عملية القضاء على استقلال الشيشان.

وحسب تخمين أحد جنرالات الجيش فان يغوروف قد قرأ عندما كان شابا شيوعيا بعض كتب الحزب التي روت كيف صدرت الأوامر عام 1917 إلى البحارة البولشفيك بالاستيلاء على القصر وعلى محطة السكك الحديدية وغير ذلك، وهكذا أصدر يغوروف الأوامر ذاتها في آخر يوم من عام 1994. وحسب بعض المصادر الروسية فإن توقيت الهجوم قد تحدد في يوم ميلاد غراتشيف نفسه أي في الأول من شهر يناير.

ورد يلتسين على تلك الكارثة بإضافة عمليات قصف مكثفة وعنيفة وغير دقيقة إلى الهجوم البري على «غروزني». وكانت تلك التكتيكات أكثر فعالية رغم أنها تمت على حساب سقوط أعداد ضخمة من الضحايا المدنيين وفرار اللاجئين بمن فيهم العديد من الروس. وبحلول منتصف شهر يناير تخلت قوات الميليشيا الشيشانية عن القصر الرئاسي، وفي مطلع فبراير تم تدمير «غروزني» بشكل فعلي وبدأت قوات دوداييف الانسحاب من الموقع الذي كان قاعدة دعمه الرئيسية.

وهكذا نجح يلتسين بصورة عامة في إضعاف دوداييف، ولكن على حساب آخر صلة له بالحركة الديمقراطية ومعظم ما تبقى له من تأييد شعبي، إضافة إلى ما تبقى من دعم للعلاقة الروسية في الشيشان وأرواح عشرات الآلاف من المدنيين والعسكريين. لكن إضعاف دوداييف لم يسفر عن تقوية إدارة يلتسين ولم تتوقف المقاومة في أية مدينة كانت تنشط فيها سابقا. واعتبارا من 24 يناير استمرت مقرات القيادة الروسية في «غروزني» في العمل بشكل سري تحت الأرض خشية رصاص القناصة الشيشان في الأبنية المجاورة المحيطة بها. إن ما حققه يلتسين في الواقع كان إضافة المزيد إلى المناطق الواسعة أصلا في الاتحاد الروسي والتي لم تكن خاضعة لأية حكومة.

أربعه استنتاجات

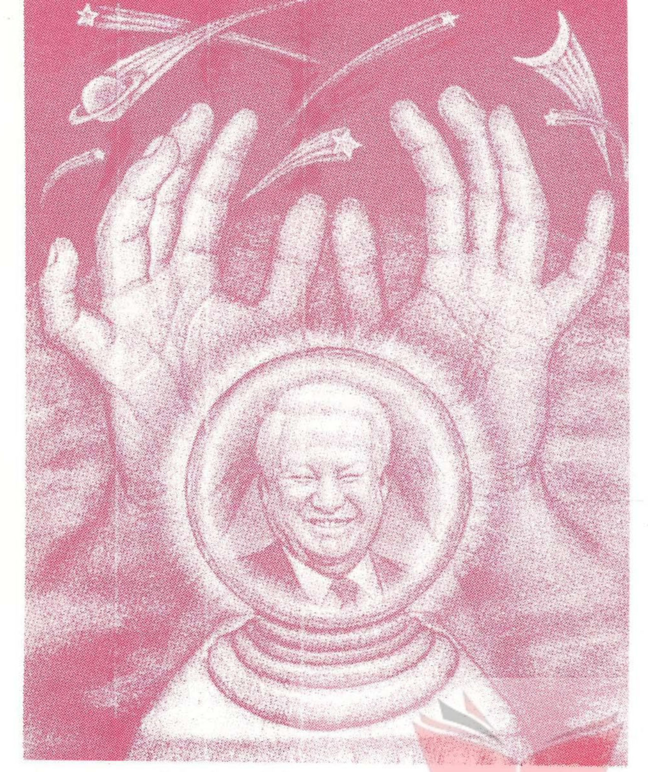
وإذن ماذا كانت ردة الفعل في «روسيا

الشوفينية» إزاء الغزو؟ وخلافا لذلك الوصف فإن جميع القوى الديمقراطية والرأي العام بشكل عام عارضوا بصورة عاطفية الحرب الشيشانية، وقد عارض الحزب الشيوعي بشدة القتال الذي اندلع في الشيشان، وكانت المفاجأة الأكبر هي تلك التي صدرت عن العناصر الوطنية الروسية. فقد أصبح جيرينوفسكي، وهو أشد الوطنيين تطرفا، واحدا من ثلاثة سياسيين بارزين فقط يؤيدون الحرب. ولكن ردة الفعل الأولى لحزبه كانت على شكل شجب وإدانة: «إن الحكومة غير الوطنية في الكرملين تتصور الحرب في الشيشان كحرب دون نهاية حتى موت آخر روسي، كما قد يظن البعض، ولكن ليس شيشانيا». هذه العاطفة الغريبة قد تعد، من مفهوم روسي، على أنها مغالاة في الوطنية.

أما بالنسبة إلى الجيش فإن حامي النزعة الوطنية الجنرال غروموف نائب وزير الدفاع والجنرال ليبد وكلاهما في الخدمة الفعلية ومن أبطال المعارضة الوطنية الشيوعية قد نددا بسياسة الرئيس ووزير الدفاع. وفي يوم 16 ديسمبر صرح الجنرال إيفان بابتشيف قائد الثلث الغربي من قوات الهجوم الروسية وآمر الفرقة الخاصة المحمولة جوا «بسكوف» علانية بأنه بغض النظر عن الأوامر فإنه لن يتقدم إلى مواقع أخرى. وقال بابتشيف: «نحن لن نستخدم الدبابات ضد الناس». وبدلا من أن يعزل من منصبه بسبب عصيانه الأوامر فقد تم إرساله لقيادة جزء هادئ من الجبهة، حيث وقع معاهدة عدم اعتداء شخصية مع المقاتلين الشيشان. (ثم تم إقناعه فيما بعد بالعودة إلى ساحة القتال) كما أنه مع استمرار الحرب المدمرة ضد المدنيين رفض العديد من الضباط والوحدات في قوات الجيش والأمن التورط في القتال وعمدوا إلى الاستقالة أو العودة إلى بلادهم دون أوامر.

هذه أحداث بالغة الغرابة يمكن للمرء أن يستخلص منها أربعة استنتاجات: الأول أنه ليس لروسيا حكومة طبيعية بما تحمل الكلمة من معنى: أي منظمة تكون قرارات المسؤول الأعلى فيها ملزمة للمسؤول الأدنى رتبة. لقد عاشت الدولة السوفييتية مرحلة تفكك منذ عام 1985 ويمكننا أن نرى الآن أن محاولات يلتسين لجمعها ثانية قد أخفقت بعد قتال الشوارع الذي اندلع في شهر أكتوبر 1993.

وهذا ليس مجرد استنتاج من أكاديمي غربي. ذلك أن أندريه كورتونوف الذي يعد أحد أبرز الاختصاصيين في السياسة الخارجية في المؤسسة الروسية قد توصل إلى استنتاج من الحرب الشيشانية يقول: «للأسف ليست هناك دولة بالمفهوم الغربي في روسيا». ومن جزء مختلف تماما من المنظور السياسي يؤكد الجنرال ألكسندر ليبد ببساطة أن «الدولة لم تعد موجودة». وقد أدت المغامرة في الشيشان إلى تفاقم الوضع بشكل سيئ. وقال كبير مسؤولي إدارة يلتسين أخيرا إن «في استغلال للوضع في الشيشان تحاول القوى الرجعية في بعض



الأقاليم سلخ أجزاء من السلطة بعيدا عن السلطات الفيدرالية وأن هذه المشاكل يجب أن تحل في أقرب وقت ممكن».

وحسب «مسؤول رفيع» في إدارة كلينتون فإن «يلتسين هو رئيس روسيا» وهو يستخدم هذا اللقب لمنع التحقيق في الواقع الذي يفترض فيه أن يوضحه. وعندما نتحدث عن رئيس فإننا نعني الشخص الذي يرأس الدولة ويكون قادرا بشكل عام على معالجة القضايا المهمة. وإذا لم تكن هناك دولة بمعنى وجود تركيبة من المسؤولين يطيعون بعضهم البعض فلن يكون هناك رئيس يهمنا من الوجهة الدبلوماسية. وقد يكون من الملائم أن نقتبس أقوال كورتونوف مرة ثانية.

«إن بوريس يلتسين لم يعد يسيطر على أعمال أجهزته ولديه فكرة غامضة للغاية عن الأحداث التي تجري خارج الكرملين. ونظرا لأن هذه هي الحال فما الحكمة من عقد مؤتمرات القمة الحالية والمحادثات التي تجري على أرفع مستوى والمؤتمرات والمشاورات الدولية وغيرها؟ إن المحادثات مع الرئيس تصبح ممارسة بلاغية عديمة المعنى».

والاستنتاج الثاني الذي يمكن استخلاصه هو أن نسيج الجدل حول السياسة الخارجية في روسيا اليوم هو من النوع الديمقراطي الغربي. بمعنى أنه على القدر نفسه من الفوضى المتمثلة في قيام الجميع بتوجيه الاتهامات لكل شيء. وليست هناك وحدة وطنية، كما أنه في غياب الإجماع العام على وجود خطر حقيقي ودون توافر ثقة عامة في الحكومة فإن الحكومة لا تتمكن من حشد الدعم الشعبي لها.

وإذا كانت لدى الحكومة الروسية الحالية مايكفي من الوطنية والشرعية والكفاءة للقيام بالجهود الصعبة باسم المصالح القومية الروسية فإن هذا النوع من المناخ العام سوف يشكل عقبة حقيقية أمام خدمة المصلحة العامة. ولكن في ضوء النظام السياسي الحالي في روسيا الذي يعد شبه

موجود وشبه منهار فإن الصورة يجب أن ينظر إليها ضمن إطار التحقق والتوازن.

ولذلك فإن من الأهمية بمكان الحفاظ على نوع ما من الديمقراطية الغامضة في روسيا. لأن اضطراب قيود النقاش العام هناك سوف يكون ضارا بالنسبة إلى روسيا ولنا.

لقد أظهر الروس من خلال رفضهم محاولات حكومة يلتسين لتعبئتهم من أجل الحرب الشيشانية أنهم مثلنا وبشكل بالغ الأهمية. وربما أن تلك هي أكبر مفاجآت الأزمة الشيشانية. أن صناع الآراء عندنا يميلون إلى تقديم المسؤولين الروس على أنهم من ذوي التوجه الغربي، ولكن ذلك ينطوي على وجود قوى كبيرة من العدوان وعدم التسامح في صفوف الشعب الروسي. هذه النظرة التقليدية تبدو الآن عكس الحقيقة تقريبا. فهناك، من جهة، دائرة صغيرة من المسؤولين الشيوعيين السابقين الذين يحاولون إعادة تكوين الاتحاد السوفييتي ولكن بطابع روسي عن طريق استخدام التكتيكات القاسية والحاسمة التي وضعها النظام الشيوعي. ومن جهة أخرى هناك الجزء الأكبر من الشعب الروسي. ومثل نظرائهم الغربيين (ولكن بخلاف الشيشان والصرب) فإن شعب روسيا اليوم لا يحب المعارك والقتل والموت.

وهناك خشية عميقة من استخدام القوات المسلحة للدولة في أية أغراض خطيرة. وفي الحقيقة يبدو أن الروس هم أقل رغبة من الأمريكيين في استخدام القوة، وربما أنهم أشبه بالألمان اليوم في كراهيتهم لها. وكما كانت الحال في ألمانيا ربما أن بطش الأنظمة الديكتاتورية قد أدى إلى تشويه صورة استخدام القوة بصورة دائمة.

واستنتاجي الثالث هو أن الاستراتيجية العسكرية والعامة قد تعثرت من البداية حتى النهاية، والسؤال المطروح هو هل أن الحكومة التي قامت بكل ذلك سوف تتمكن من معالجة عمليات الإصلاح الاقتصادي وتكريس الديمقراطية التي تتصف بالقدر نفسه من التعقيد والجدل؟.

كان أداء قوات دوداييف جيدا نوعا ما إذا أخذنا في الاعتبار أنها مكونة من مدنيين أو رجال عصابات. والسؤال هو من أين حصلت تلك القوات على أسلحتها وتدريباتها؟ لقد وقع الجيش الروسي عندما أخلى جمهورية الشيشان على اتفاقية لتسليم نصف أسلحته بما فيها الطائرات والدبابات والصواريخ. وقد حصل الشيشان على المزيد من الأسلحة والتدريب والخبرة القتالية البالغة القيمة في الأبخاز حيث قاتلوا إلى جانب الروس ضد حكومة جورجيا. وهكذا قام الروس بتدريب وتجهيز قوات تقف الآن ضدهم. وقد تم تجنيد مقاتلين في الأبخاز للحرب مع دوداييف، وحذر المتحدثون الروس الرئيس الأبخازي آردزينبا بشأن إرسالهم. لكن روسيا هي التي نصّبت آردزينبا هناك وجعلت من الأبخاز دولة صغيرة مستقلة، وهذه أيضا صورة غير مترابطة للغاية عن التوسع الروسي.

والاستنتاج الرابع والأخير هو أن عملية إعادة التوكيد والجزم الروسية الوطنية ليست مطلبا جماهيريا وإنما مجرد حالة أو إيماءة. وكي أوضح ما أقصده فإنني أقول إنها أشبه بالعنصرية في الولايات المتحدة. فأنت تسمع عن نكات عنصرية ولكنك إذا سألت من يطلق تلك النكات لجاء الرد: «حسنا. هل نعيد العزل؟ ومتى؟ وكيف؟» إنهم يكونون عادة في حالة ارتباك شديد وربما خوف، وأنا أظن أنه ليس هناك ميل عام نحو التوكيد القومي الروسي يؤيد تلك السياسة التي بدت، حتى منذ أسابيع قليلة، وكأنها صورة لإجماع المؤسسة الروسية، وحتى أوضح ما أقول فإن «الشعب الروسي ليس إمبرياليا».

إن القلق على الروس في الخارج يمثل حالة في هذا المضمون أيضا. ذلك أن روسيا فعلت الكثير لأجل الصرب والأبخاز والعشائر المناوئة لدودابيف في الشيشان وبقدر يفوق ما قدمته للروس في الخارج حتى الآن. وربما أنها سوف تفعل المزيد أيضا.

تظهر النزعة القومية الروسية ذاتها عبر الاستياء من الأجانب. غير أنها لم تسفر حتى الآن عن تضامن وانضباط أو تضحيات بين الروس. ولذلك لم تكن لها الذيول التي تميز القومية الصربية أو الفلسطينية.

واقعية جديدة وسياسة جديدة

الصراع الذي استمر 60 عاما ضد الديكتاتورية أفرز واقعا جديدا يتمثل في تفكك الدول. إن تجربتنا إزاء هذه الظاهرة، كما كانت الحال في تشاد في الثمانينات أو الصين في الثلاثينات والأربعينات كانت في العادة تهدف إلى حل المشاكل الأكثر إلحاحا. وحتى في الصين ومن ثورة عام 1911 إلى انتصار الصين الحمراء عام 1949 كان الصراع دائما بين قوى فعالة لبناء الدولة: الغومیندانغ، اليابانيين، والشيوعيين. أما اليوم فلا يوجد في الاتحاد السوفييتي السابق مثل تلك القوى، ولا حتى أيديولوجية تتمتع ولو بشكل بعيد بسحر الشيوعية في الصين التي كانت نهبا للحرب.

ولكن إذا كان قدر روسيا وجيرانها كما يبدو هو خوض حقبة من الفوضى، فإنها سوف تكون من النوع المنهك. ذلك أن القومية الروسية هي من النوع المقاتل وليس الإمبريالي، ومن غير المحتمل أن تنتهي تلك الفوضى إلى حرب أهلية تقليدية تهدف إلى أغراض محددة، ذلك أن الروس وبعد أفغانستان والحرب الشيشانية لم تعد لديهم الرغبة في القتال.

وعلى الولايات المتحدة أن تدرك أنه يمكن بسهولة تثبيط النزعة القتالية الروسية، والتي لا تعكس رغبة متواصلة لتحقيق أهداف معينة وإنما مجرد الحاجة إلى الاعتراف بروسيا كمجتمع. وعندما تخلق تلك الرغبة أخطارا حقيقية -سواء لنا أو لروسيا ذاتها- يجب عندئذ أن تواجه عقبات، وليس من الضروري أن تكون كبيرة كي تصبح

فعالة.

كما أنه ليس هناك ثمة سبب للقول ما إذا كنا نحن المسؤولين عنها.

الرمزية

وهكذا تصبح الرمزية أساس العلاقة الدبلوماسية الأمريكية ـ الروسية، ومن هذا المنطلق يجب أن نحرص بشدة على عدم تجاهل أو استبعاد روسيا. وعلينا البحث عن فرص لإشراك روسيا في المواقع التي لا نختلف فيها مثل الصومال أو رواندا. كما أن علينا تجنب الجدال العلني أو تحدي روسيا.

وفي الحالات التي لا نتفق فيها فقد يكون من الجيد الاتفاق على عدم الاتفاق كما فعل كلينتون ويلتسين في القمة المتعلقة بالبوسنة، وعلينا قبل كل شيء تجنب اختبارات الإرادة.

إن توسع حلف شمال الأطلسي باتجاه الشرق مقدر له أن يكون مصدر انقسام بشكل خاص، وإن دفع التحالف الأطلسي إلى الحدود القديمة للاتحاد السوفييتي سوف يكون مثلا قويا على رفض روسيا من جانب الغرب. وهذا لا يعني أن تضمين بولندا وجمهورية التشيك وهنغاريا هي فكرة سيئة، ذلك أنها في حد ذاتها مفيدة للغاية. لكن المشكلة تتمثل في غياب «بنية أمنية» موازية تربط بين الغرب وروسيا، وليس لدينا الخيال لاستنباط شيء جديد تماما لأجل حقبة جديدة تماما من التاريخ.

هذا لا يعني أن علينا الاندفاع لتوقيع معاهدات مع حكومة روسية متداعية، لأنها لا يمكن أن تلزم البلاد والمستقبل. ويجب أن ندرس فقط الاتفاقيات التي يمكن تنفيذها فورا. وبعد التحقق من مصادرنا الخاصة، وقد تكون واحدة من مثل تلك الاتفاقيات هي المتعلقة بالتدمير الشامل لفئة معينة من الأسلحة النووية، لأنه إذا تم تدميرها بشكل تام فلا يمكن أن تظهر ثانية بسهولة.

لكن المعاهدات والاتفاقيات التي تتطلب قيام حكومة روسية متفككة بتطبيق سياسة معقدة تنطوي على العديد من الخطوات البيروقراطية وعلى فترات طويلة من الزمن إنما تمثل دعوة إلى المتاعب. إن معاهدات (سالت وستارت) في الماضي ومعاهدة (سي إف آي) التي نقضت أصلا هي النماذج لما يجب تجنبه في المستقبل. إن الجنرالات الروس لا يطيعون الأوامر في أوقات الحرب فكيف نتوقع منهم التقيد بتفاصيل معقدة لمعاهدة دولية ولسنوات في كل مرة؟

وما هو أكثر أهمية يتمثل في ضرورة إدراكنا أن الدبلوماسية هي جزء فقط من العلاقة الإجمالية بين الولايات المتحدة وروسيا. أن حكومة موسكو ضعيفة بشكل لا يمكن معه تحقيق تقدم رئيسي عن طريق الدبلوماسية. إن التفكير في الموقف الروسي يجب ألا يتم وفقا لوضع حكومة موسكو فقط، وإنما لمواقف البرلمان والوزارات المتعددة والأقاليم والمجتمع الروسي الأوسع. وفي جمهورية الشيشان على سبيل المثال

كانت سياسة حكومة موسكو هي القاسية والغبية بينما اتسم موقف المجتمع الروسي بالحكمة والإنسانية. إننا نسمح للسياسات بتوجيه علاقاتنا مع روسيا وبأسلوب مهيمن.

منذ قيامها بتسهيل انهيار حلف وارسو وإعادة توحيد ألمانيا، وهما إنجازان مهمان، لم تقدم الدبلوماسية سوى القليل في عالم ما بعد الشيوعية. فقد حاولنا إنقاذ غورباتشوف والحفاظ على تماسك الاتحاد السوفييتي. وحاولنا إنقاذ «الإصلاح» بإبقاء يلتسين في السلطة. وحاولنا حل الأزمات في البوسنة وناغورنو كراباخ عن طريق المفاوضات. وقد أخفقنا في كل حالة. إن تفكك أجهزة الدولة في حقبة ما بعد الشيوعية هو عقبة هائلة أمام الدبلوماسية. وبينما تبرز الدبلوماسية على السطح فإن الشكل الحقيقي للواقع الروسى يرسم في نطاق المجتمع والاقتصاد.

الارتباط وحدوده

رغم الفرص المحدودة للدبلوماسية فإن العلاقة بين الولايات المتحدة وروسيا لا تزال ذات أهمية قصوى. ويصعب البقاء في معزل عن الثورات الكبرى والمعاناة الإنسانية كما أظهرت معاناتنا الطويلة في البوسنة. لكن تفهما للأوضاع واتباع سياسة متماسكة يمكنه أن يرسم شكل وحدود التزاماتنا. إن الرد الملائم يتطلب إدراكا للحاجة إلى ارتباط مستمر وإلى إحساس بحدوده.

إن مسألة الارتباط ملزمة وملحة، ويشكل الاتحاد السوفييتي السابق مخزونا ضخما للقوة التي ستلحق الضرر بالمصالح الأمريكية إذا ما استخدمت بصورة خاطئة. ويتمثل صلب المشكلة الآن في وجود عشرات الآلات من الأطنان من الأسلحة والمنشآت النووية والمهارات البشرية التي تشرف عليها. ونحن لا يمكننا التنبؤ من عام إلى آخر بمن الذي سوف يسيطر على تلك الأسلحة، كما أنه في الواضع الراهن فإن السوابق والاحتمالات لا تبعث على الارتياح. إن للاتحاد السوفييتي تقليده الطويل في استخدام التهديدات النووية، التي كادت تؤدي إلى حرب إبان أزمة الصواريخ الكوبية، والتلويح بالأسلحة النووية قد يصبح ردة فعل سهل لحالة الاستياء المتزايدة الآن في روسيا.

وفيما هو أبعد من المخاوف النووية هناك الخطر البعيد الأجل المتمثل في أن روسيا سوف تصبح من جديد دولة عدوانية تهيمن عليها نظرة عالمية متطرفة. إن مزيجا من الاضطراب والمعاناة والإذلال قد يسفر عن تلك الحصيلة. وهناك القليل من التحرك في هذا الاتجاه الآن، لكن البذور واضحة للعيان والإدراك العام يشير لوجود حاجة إلى الإبقاء على ما لدينا من نفوذ على الفوضى التي يمكن لتلك البذور أن تنمو أو تذبل فيها. كما أنه بعملنا هذا فإننا نقوم بشراء بوليصة تأمين. ونحن نقوم بتطوير التفاهم والصلات والقدرة على العمل بصورة أكثر حيوية إذا ما حدث تهديد كبير. (وعدم السماح لقواتنا

المسلحة بالتراجع هو جزء آخر من بوليصة التأمين هذه وجانب أساسي من استراتيجية التعامل مع اضطرابات ما بعد الحقبة السوفييتية).

وعلى أية حال فإن الارتباط بالروس يجب ألا يعني فقط مسألة احتواء الأخطار الحالية أو المستقبلية. إن الجدال حول السياسة الخارجية لحقبة مابعد الحرب الباردة قد تركز بصورة غريبة على التهديدات بينما تجاهل الفرص المتاحة. وهناك فرص كبيرة في أية منطقة واسعة تتعرض للانفتاح وللتغييرات الأساسية. إن الشبان الأمريكيين يتوجهون إلى براغ وبودابست وموسكو بأعداد كبيرة لأنهم، بخلاف النخبة القديمة للسياسة الخارجية، يشعرون أنها الحدود الأخيرة.

إن الحاجة إلى الارتباط يجب أن تحكم من خلال حساب إمكانات النفوذ الأمريكي. ومن السهل وقوع المبالغة وسوء التقدير معا. وإذا جادل مسؤولو الإدارة بأن على صندوق النقد الدولي تقديم قرض بمبلغ ستة بلايين دولار إلى روسيا من أجل إبقاء يلتسين في السلطة أو لإبقاء «الإصلاح» في حالة استمرار فإنهم يحاولون جعلنا نؤمن بالسحر. إن القرارات الرئيسية في السياسة الروسية سوف تتخذ لأسباب روسية والفوضى الروسية معقدة إلى حد كبير ومتغيرة بصورة سريعة كما أنها ليست مفهومة جيدا من قبلنا بشكل لا يمكننا معه التأثير فيها بأسلوب تكتيكي.

ولكن لدينا قوة هائلة، ونحن نملك ما يريده شعب الاتحاد السوفييتي السابق: العملة الصعبة والكفاءة والتقنية العالية والحياة العادية (حسب ما يعتبرها ذلك الشعب) في الحضارة الدولية. والمطلوب هو تحديد كيفية تحويل هذه القوة الخام إلى نفوذ يمكن استخدامه. نحن محظوظون لأن قوتنا قد استخدمت بسهولة أكبر في مجتمعات واقتصاديات ما بعد الشيوعية مما استخدمت في الدولة المركزية، وذلك هو الجزء الأكثر أهمية في العلاقات الأمريكية - الروسية.

إن السياسة إزاء المجتمع الروسي يجب أن تهدف إلى تعميق الروابط مع الغرب وفي المقام الأول الأشخاص والمجموعات من التوجه الديمقراطي والرأسمالي. ولكن ذلك يجب ألا يعني أبدا التخلي عن القوميين الروس أو تحديدهم منذ البدء على أنهم خصومنا. لقد كشفت الحرب الشيشانية فراغ البلاغة القتالية، والمعارضة المشتركة للديمقراطيين والشيوعيين والقوميين تكشف لنا كم يمكن لهذه الصفات أن تكون مضللة. إن استراتيجيتنا يجب أن تركز على توجيه القومية الروسية في اتجاه بناء وليس على مقاومتها. ويجب توجيه السياسة الاقتصادية حسب المبادئ القائلة إن الخصخصة تخدم المصالح الأمريكية حتى وإن كانت عبر السرقة أو أنها تذهب إلى الرموز الشيوعية القديمة لأنها سوف تشكل بشكل بطيء مجموعات مهتمة ستدافع عن

تلك المصالح وتبدد إمكان أية عودة إلى الاستبداد الفعلي، كما أنها سوف ترسي الأساس اللازم من أجل سياسات أوليفاركية أو حتى ديمقراطية أيضا.

السبل الأمريكية والروسية

هناك طائفة من الأدوات لتحقيق هذه الغايات السياسية. وقد تبدو تلك الأدوات أضعف أو أقل فعالية مباشرة من تلك المألوفة إبان الحرب الباردة، ولكن عددها، في الغرب وفي روسيا، كبير جدا ويشتمل على عناصر حكومية وخاصة معا.

إن الآلية الأكثر أهمية بالنسبة إلى تعزيز المجتمع المدني الروسي تتمثل في المؤسسة الوطنية للديمقراطية والمؤسسات السياسية والعمالية والتجارية المرتبطة بها. وفي حالة تفكك الدولة الروسية فإن تلك المؤسسات تصبح، من حيث المبدأ، الأدوات الأساسية لسياستنا نحو روسيا. ونجاح تلك العملية يصعب قياسه ولكن حسب ما أرى فإن تعضيد المجموعات الديمقراطية مثل «مجموعة سيرجي كوفالييف لموسكو وهلسنكي» قد ساعد بالتأكيد على إقامة لهجة ديمقراطية غربية في الجدال العلني الذي تجلى بوضوح إبان الحرب الشيشانية. وفي ضوء هذه الوقائع هناك تفاوت مذهل بين معدلات دعمنا -للمؤسسة التي تصل موجوداتها إلى نحو ثلاثين مليون دولار سنويا- ودعمنا للبرامج والمنظمات مثل المؤسسات المالية الدولية ووزارة الخارجية التي تعالج احتياجات المجتمع الروسي بصورة أقل نجاحا ومباشرة.

إن الآلية الرسمية الرامية إلى تحسين الحياة الاقتصادية الروسية ليست ملائمة تماما لهذا الهدف. وتفضل حكومتنا، شأن الحكومات الأخرى، توزيع المساعدات عبر مؤسسات مالية دولية لأن ذلك يجعلها أقل إثارة للجدل. لكن تلك المؤسسات موجودة بشكل أساسي من أجل تقديم المعونات إلى الحكومات المستقرة بشكل جيد وذلك في مقابل إحداث تغييرات في سياسة الحكومة. لكن معظم حكومات ما بعد السوفييت لم تكن قوية بما يكفي لتنفيذ تلك الأنواع من الشروط والمطالب. ويجب على البنك الدولي أو صندوق النقد الدولي أن يغيرا من مقاييسهما -كما أصبحت العادة لديهما في تلك الدول- أو تأكيد الاعتقاد السائد المناوئ للغرب في وجود قوى خارجية شريرة تحاول السيطرة على روسيا. غير أن المشكلة الأساسية هي في تقديم مساعدات إلى دولة متفككة. إن علينا تقديم المعونات إلى المجموعات والأفراد الذين يؤيدون الديمقراطية وسياسة الأسواق الحرة.

وتعد المساعدات الثنائية فائقة في هذا الصدد. وبينما تحتاج برامج مساعداتنا إلى تقليص وإعادة تنظيم كي تصبح سريعة الاستجابة فإن علينا أن نحرص على عدم القضاء على المساعدات الخارجية. وبالنسبة إلى الدول المتفككة فإن الأموال هي وسيلة

الضغط الأقوى المتاحة لنا من أجل توضيح صورة تطور الاتحاد السوفييتي السابق. هناك قلة فقط تدرك مدى ما يمكن إنجازه لقاء كلفة قليلة للغاية. إن دافع الضرائب الأمريكي يقوم بتشغيل مئات الآلاف، وفي الحقيقة الملايين من الأشخاص للتفاوض ورسم السياسة وإمكان الدفاع ضد تلك الدول، وفي مقابل كل شخص نعينه في واشنطن يمكننا تشغيل نحو خمسين شخصا في روسيا أو خمسمائة شخص في جورجيا وبالكلفة ذاتها.

ولكن التأثير الاقتصادي الكبير سوف يصدر بالطبع عن الأعمال التجارية الأمريكية. وحتى مع الإمكانات القاتمة التي تواجه روسيا بعد كارثة الحرب الشيشانية فإن هناك كميات ضخمة من الأموال التي يمكن أن تتحقق في الاتحاد السوفييتي السابق. ومع ذلك فإن التعاون بين الأعمال التجارية والحكومة يمكن تحسينه بدرجة كبيرة. إن رجل الأعمال لا يود أن يكون سياسيا بشكل كبير وهذا يعني أنه غالبا ما يخطئ في قراءة المضمون السياسي الذي يحدد ما إذا كان باستطاعته العمل في بلد ما أم لا. وفي الجانب الحكومي لا يرغب الدبلوماسيون بالعمل لصالح الشركات الأمريكية.

ومن المفارقات أن الفوضى والتفكك يفتحان آفاق التقدم. وليست الحكومات الإقليمية ذات الأهمية النسبية الأعظم وإنما البيروقراطيات المتعددة في موسكو أيضا توفر الآن فرصا للنفوذ الأمريكي.

ثم إن سلطة الأقاليم، المهمة أصلا، أخذت بالازدياد. وهي مبنية ليس على الأنظمة الحكومية الرسمية وإنما على حقائق مجتمع ما بعد العهد السوفييتي مثل القرابة والصداقة والاحترام المحلي والمصالح المتبادلة والقوة اللازمة لإرهاب الآخرين أو الدفع لهم. وهي عمليا أكثر واقعية من السلطة في أية بيروقراطية. وبناء عليه فإننا بحاجة إلى البقاء على اتصال مع جميع أقاليم الاتحاد الروسي، وأن تكون لنا سياسة إزاء كل إقليم حتى وإن اقتصرت على تقرير أن مايحدث هناك لا يهمنا. وفي الوقت نفسه فإننا بحاجة إلى القيام بذلك دون مزيد من التشويه بالنسبة لسمعة حكومة موسكو. وأن الغرض الرئيسي لاتصالنا مع الأقاليم الروسية ليس لممارسة الدبلوماسية وإنما لإيصال المساعدات الخارجية ودعم اتجاهات بناء الديمقراطية وتوجيه الاستثمارات الغربية إلى المناطق التي نستطيع فيها تحقيق اختلافات بارزة. وقد تكون تلك مناطق تكون فيها المشاعر الديمقراطية قوية أو تتمتع بفرص أعلى من المعدل إزاء الازدهار إبان تفكك روسيا أو المناطق التي تجمع بين المطلبين معا.

والغاية النهائية هي خلق نواة من النظام النسبي والرخاء والتعددية بشكل يمكنه التأثير بشكل متزايد في تطور روسيا ككل. وفي الظروف المحتملة حيث انهار التخطيط الاقتصادي عبر روسيا وحيث لم تعد مساعدات الدولة قادرة على حماية المناطق الأكثر فقرا فإن بعض الأقاليم ببساطة

سوف تكون أكثر نجاحا من البعض الآخر. كما أن المناطق التي يحتمل أن تشهد نجاحا أكبر هي تلك الغنية بالطاقة والواقعة في المحيط الخارجي حيث سيتحسن الاقتصاد المحلي من خلال الاتصال مع الاقتصاديات الأوروبية والصينية الدينامية.

وسوف يكون العامل الحاسم والأكثر أهمية إزاء النجاح هو ما إذا كانت الأسواق وقوى الاقتصاد العالمي سوف يسمح لها بالعمل أم أنها سوف تتعثر بدافع الخوف من الأجانب أو الحنين إلى التخطيط المركزي وأحلام السيادة المطلقة والمبالغة في الأنظمة والضرائب العالية أو محاولات النخبة السياسية للسيطرة على جميع الثروات. كما أن الديمقراطية سوف تقرر مدى النجاح، بمعنى أن الأقاليم القادرة على إعطاء السكان قدرا من الشعور بالمشاركة في المجتمع والسيطرة على الاستياء الشعبي الواسع الموجود حاليا في روسيا سوف تكون أكثر استقرارا. وسوف تحتفظ موسكو، وهي إقليم في حد ذاتها، بأهمية من حيث وجود السلطة المركزية فيها ولكونها منطلق القوة الديمقراطية.

وبمرور الوقت سوف تتسع الفجوة بين الأقاليم الناجحة والفاشلة وسوف تصبح تلك الناجحة أكثر قوة وهدفا للتقليد. وسوف تتمكن تلك الأقاليم من دفع الأقاليم الفاشلة والحكومة المركزية الضعيفة إلى التعاون حسب شروطها. وإذا ما تمكنت موسكو من تأكيد سلطتها ذات يوم فإن الأقاليم الناجحة سوف تحتفظ بدور غير متكافىء في تركيبة ونوعية الحكومة التي سوف تبرز عندئذ.

ويجب توجيه السياسة الأمريكية إزاء أقاليم روسيا عبر منظور متشدد من الأولوية. ومن المحتم أن تغيب بعض الأقاليم لأن حكامها غاصوا بصورة لا أمل منها في سبل التفكير الشيوعية. أو لأنها لا تحتوي على مصادر ولا تربة خصبة ولا مكان يمكن لأحد أن يختار العيش فيه. إن مصادرنا محدودة وسوف تكون لها أهميتها إذا ما قمنا بتركيزها في مناطق قليلة واعدة بصورة خاصة. ولحسن الحظ فإن وسائلنا المتواضعة سوف تكون قوية نسبيا بالمقاييس الإقليمية، وأولئك الذين يواجهون خطر الفرق سوف يتطلعون إلى أية مساعدة يمكنهم الحصول عليها.

هذا المبدأ يجب أن يوجه بالمثل تعاملاتنا مع البيروقراطيات المتعددة في موسكو. ويمكننا، ضمن حدود معينة، اختيار شركائنا. وعلى سبيل المثال فإن كوزيريف يؤيد الحرب الشيشانية، بينما عمل رئيس الوزراء تشيرنوميردين صراحة ضدها. ومع قيام نائب الرئيس الأمريكي آل غور بفتح خط اتصال مع تشيرنوميردين لماذا يجب علينا أن نكافىء كوزيريف بإعطائه الأشياء التي يريدها يلتسين؟ إن علينا تقديمها إلى تشيرنوميردين وإضعاف الأقنية بين كوزيريف ووزير الخارجية الأمريكي وارن كريستوفر. إن هذا «الاستهداف البيروقراطي» سوف يسمح لنا

بتحقيق أقصى قدر من الفائدة من دعمنا المادي. وعلينا أن نقلص بصورة جذرية مساعداتنا إلى الحكومة المركزية ولكن دون إلغائها، وعلينا عدم تقديم أية مساعدات في المواقع التي لا نوافق فيها على الوحدات البيروقراطية المحددة التي سوف تراقبها وتدفعها وتستفيد منها. إن ذلك كله سوف يغضب حكومة عادية في أوقات عادية. لكن هذه الأوقات غريبة.

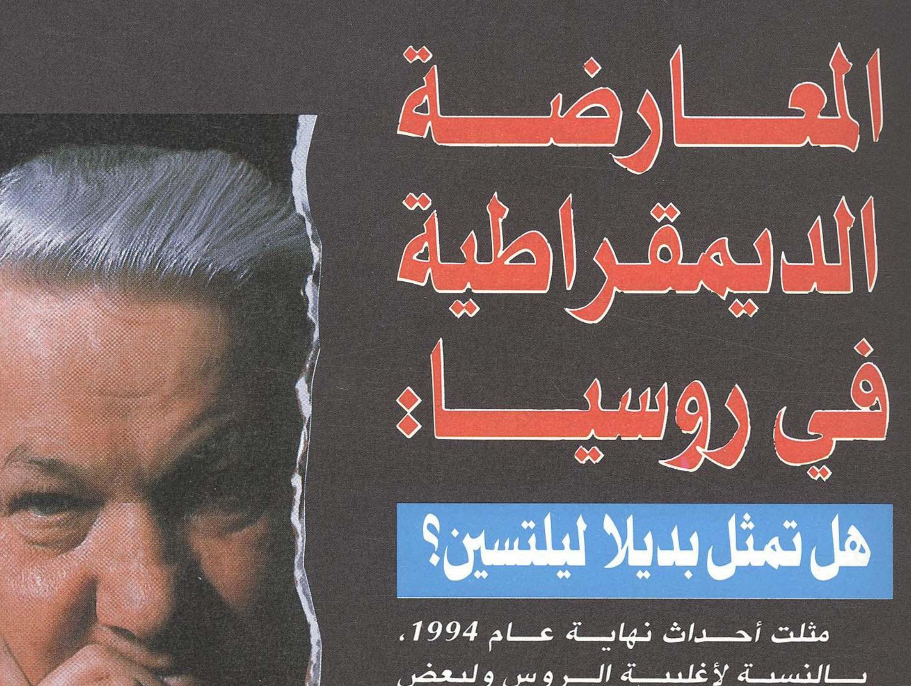
إن أكثر ما يحتاجه الروس والأمريكيون معا هو تحديد أفضل لما يجري في عالم ما بعد الشيوعية. ولأن النزعة القتالية الروسية رمزية أكثر من كونها مجرد مكاسب راسخة لدولة روسية متفككة فإن كيفية وصف الأحداث التي يقول صانعو السياسة عنها أحيانا إنها مجرد «بلاغة» تصبح جزءا حيويا من السياسة بالنسبة إلى روسيا ولنا. إن التعلق الروسي بالقتال والتعصب الغربي يتجذران بصورة عميقة في أسطورة ثورة «مخملية» خالية من الألم. وعندما شرع غورباتشوف في بيريسترويكا ورحب الغرب بها كنا جميعا نريد التغيير ولكن دون فوضى واضطراب. لكن ذلك كان أملا مستحيلا. كانت شعوب الكتلة السوفييتية تتوق بشدة إلى حياة عادية. وفي وضع روسيا كان ذلك يعني سياسة خارجية تعود إلى القرن التاسع عشر، وكما قال لي أحد مستشاري يلتسين بسرور هذا الخريف فإن «هذه كانت تدعى اللعبة الكبرى، وقد عدنا إليها». لكن القرن التاسع عشر قد انتهى والمحاولة الدبلوماسية لإعادته قد أوجدت المزيد من عدم الاستقرار في المحيط المجاور لروسيا وفي موسكو، كما أظهرت الورطة الشيشانية مرة ثانية.

وفي الغرب كانت ردة الفعل إزاء الاضطراب، سواء في روسيا أو البوسنة، ترجح عزل وهجر المنطقة، وقد أحدثت الحرب الشيشانية التي شنها يلتسين تصريحات جديدة تفيد بأن روسيا لا أمل منها، لكن ردة الفعل هذه تعتبر مدمرة لمصالحنا.

كان انهيار الشيوعية تحولا تاريخيا كبيرا يماثل انهيار النظام القديم في فرنسا (قبل ثورة عام 1989) أو حتى نهاية الإمبراطورية الرومانية في الغرب. والأكثر من ذلك أن هذا التحول لا يحدث في عالم مستقر وإنما في عالم يتعرض في الوقت ذاته إلى تحولات أخرى مثل تلك المتصلة بالاقتصاد العالمي الجديد. إن العالم بأسره، وليس العالم الشيوعي فحسب، يدخل عصرا جديدا. وفي الحقيقة فإن الاتحاد السوفييتي السابق الذي شهد تحطم جميع الأشكال والأنظمة القديمة معا قد يكون أول من يدخل العصر الجديد. إن فوضى تحولات ما بعد الشيوعية لن تهدأ بسهولة أو بسرعة. وبينما تحدث تلك التحولات وهي أكبر أحداث العالم التي تتميز بكونها واعدة جدا ومهددة إلى درجة لا يمكننا معها أن نظل في معزل عنها.

المعارضة الديمقراطية في روسيا:

هل تمثل بديلا ليلتسين؟



تأليف: جوليا ويشنفسكي

ترجمة: عبدالسلام رضوان

مثلت أحداث نهاية عام 1994، بالنسبة لأغلبية الروس ولبعض المراقبين الغربيين، علامة واضحة على تنامي النزعة الاستبدادية في روسيا والتباعد المطرد للرئيس بوريس يلتسين عن حلفائه السابقين من الليبراليين ذوي التوجه الإصلاحي في صفوف المثقفين الروس. وبحلول نهاية العام، لم تعد الغالبية العظمى من الروس ترى فيمن كان ذات يوم «معبودا للجماهير» سوى ذلك الحاكم الفرد المفتقر للشعبية الذي بدأ الهجوم غير الشعبي ضد جمهورية الشيشان الانفصالية في شمالي القوقاز ـ وهو تحرك أضاف دليلا جديدا على عزلة الرئيس الروسي عن شعبه(1). وما أن انتهى العام حتى تبدد أي شك في تضاؤل فرصة يلتسين في الفوز بالانتخابات الرئاسية القادمة والمقرر إجراؤها في يونيو 1996.

العنوان الأصلي للمقال:

Democratic Opposition in Roussia: An Alternative To Yeltsin? The Washington Quartedy, Spring 1995

لكن هل ستمثل نهايه حقبة يلتسين انهيارا للتجربة الديمقراطية قصيرة العمر في

هناك بديل ديمقراطي ليلتسين؟ وإذا كان مثل هذا البديل موجودا، فما التيارات المعارضة الديمقراطية التي شكَّلها؟ وما مدى قوة الالتزام العام في روسيا بالعمليات والمؤسسات الديمقراطية؟ وهل سيكون الانتقال سلميا، أو سيجلب معه عنفا جديدا؟ يعالج هذا المقال تلك الأسئلة من خلال تناول عينات الرأي العام، وتقييم أحداث أواخر عام 1994، والتذكير بالمناقشات التي دارت حول من يخلف يلتسين في وسائل الإعلام الروسية.

منذ أكتوبر عام 1993، أصبح عدد متنام من المثقفين الروس متزايدي التشاؤم فيما يتعلق بالاحتمالات المستقبلية للديمقراطية الروسية. وأصبح عدد كبير منهم -مثل فيتالي تريتياكوف رئيس تحرير الصحيفة اليومية «نيزافيزيمايا جازيتا» التي تصدر في موسكو- يرى أنه لن تكون هناك انتخابات على الإطلاق، وأن الاحتمال الواقعي الوحيد فيما يتعلق بمن يحل محل يلتسين هو إما وفاته أو وقوع انقلاب، وهو مايعد حدثا متكرر الوقوع في التاريخ الروسي، بل لقد ذهب آخرون إلى أبعد من ذلك، طارحين أن التدخل جمهورية «الشيشان» كان ذريعة بفرض حالة طوارىء في البلاد والهدف من ذلك إلغاء الانتخابات. على أن هناك عددا آخر ظل محتفظا بتفاؤله.

وفي يونيو 1994، ذكر «إيجور كليامكن»، رئيس مؤسسة الرأي العام الروسية، أن واقعا سياسيا جديدا تماما قد نشأ في روسيا، في أعقاب المواجهة الدموية بين الرئيس يلتسين والبرلمان القديم، مؤتمر نواب الشعب، في خريف عام 1993. وذهب كليامكين إلى أن الجمهور العام أخذ ينظر إلى الأحداث السياسية الكبرى التي تجري في الاتحاد السوفييتي وفي روسيا، اعتبارا من بداية إصلاحات غورباتشوف عام 1986 وحتى حل البرلمان على يد يلتسين من خلال مرسومه الرئاسي في سبتمبر 1993، من زاوية الصراع بين «الديمقراطيين» و«اللاديمقراطيين»، أو بالتحديد مختلف التجمعات المناصرة للشيوعيين أو للقوميين الروس. ويرى كليامكين، مستشهدا بنتائج استطلاعات مؤسسته، أن فكرة الديمقراطية ظلت تمثل القيمة الوحيدة الأكثر شعبية في روسيا، ولهذا السبب، فقد زعم حتى السياسيون المناهضون لليبرالية ـ مثل القومي المتطرف فلاديمير جيرينوفسكي، ورئيس الحزب الشيوعي الروسي جينادي زيوجانوف، ونائب رئيس الجمهورية السابق ألكسندر روتسكوي- أنهم جميعا «ديمقراطيون». على أن كليامكين يرى أن الناخبين كفوا، منذ أكتوبر 1993، عن إطلاق صفة «الديمقراطية» على يلتسين وأعضاء حاشيته السياسية. وقد أثبتت استطلاعات الرأي التي أجرتها مؤسسة الرأي

العام في بدايات 1994 أن خطا جديدا للتصنيف السياسي أصبح سائدا في أوساط الناخبين الروس، وهذا الخط يميز بين «الديمقراطيين الحقيقيين» و«الديمقراطيين المزعومين» أو «المزيفين»، وليس بين «الديمقراطيين» و«اللاديمقراطيين». وهذا التمييز الجديد سيلعب، حسبما يرى كليامكين، دورا رئيسيا في الانتخابات العامة القادمة في روسيا(2).

الحركة العمالية وإحياء الستالينية:

إن تأكيد كليامكين فيما يتعلق بالشعبية المزعومة للديمقراطية في روسيا ينبغي النظر إليه بشيء من التحفظ في ضوء التطورات التي شهدتها فترة أواخر أكتوبر وبداية نوفمبر عام 1994. فقد أثبتت سلسلة الأحداث التي وقعت في تلك الفترة خيبة الأمل التي أصابت الجمهور الروسي. وبخاصة العمال اليدويين، لا فيما يتعلق بـ «الديمقراطيين المزعومين» المسكين بدفة الحكم وحدهم، بل في فكرة الديمقراطية ذاتها. ولخصت إيلينا بونر - أرملة صاحب جائزة نوبل أندريه ساخاروف، التي كانت من أشد المعجبين بيلتسين عند بدء ولايته - خيبة الأمل تلك بقولها في مقابلة تلفزيونية أجراها معها التلفزيون الروسي: «إننا لم نعش أبدا في ظل الديمقراطية، لكننا نجحنا في تشويه الديمقراطية في الأعوام الثلاثة الأخيرة»(3).

وتمثل التجسيد الأكثر اعتدالا لهذه النزعة الجديدة في «يوم الفعل»، الذي نظمته نقابات العمال في 27 أكتوبر، حيث طالب ثمانية ملايين عامل بدفع أجورهم المتأخرة، والتي لم تدفع في بعض الحالات منذ شهر مايو، واحتجوا على إغلاق العديد من المشروعات الصناعية الروسية وعلى البطالة المتزايدة(4).

وهذه المظاهرات التي استهدف منها منظموها التركيز كليةً على المظالم الاقتصادية لا أن تكون مظاهرات سياسية، شارك فيها مع ذلك شيوعيون ينتمون إلى حركة عمال روسيا. وفضلا عن ذلك، فقد طالب المحتجون في بعض المناطق بالاستقالة الفورية للرئيس والحكومة.

لقد ميزت هذه الفترة عودة ظهور غير متوقعة للتوجه الستاليني في الشيوعية كقوة سياسية مستقلة في روسيا. وكان من بين الأحداث التي أوضحت التأثير المتنامي للشيوعيين الروس التقليديين بمختلف ضروبهم ذلك الانتصار المفاجىء، في نهاية أكتوبر أيضا، لكتلة «شيوعيي لينينجراد» في الجولة الثالثة من الانتخابات المحلية في سان بطرسبرج، وهي المدينة التي كانت تعد حتى ذلك الوقت المعقل القوي للديمقراطية الروسية(5). وأوضحت نتائج الأصوات في سان بطرسبرج تغير المزاج العام خلال أشهر



صوت المعارضة : متظاهرين في الميدان الأحمر يطالبون روسيا من دون يلتسين

قليلة، إذ لم تنجح الكتلة الشيوعية خلال الجولتين الأوليين، في مارس وأبريل 1994، في الفوز بمقعد واحد في الهيئة التشريعية للمدينة. وتمثلت إشارة أخرى أوضح دلالة على الزخم المحافظ في الاحتفال بالذكرى السابعة والسبعين لثورة 17 أكتوبر، في السابع من نوفمبر، حيث شارك ألوف من الناس يرتدون ثيابا عليها صور ستالين في حشود الشيوعيين التي تجمعت فيما يزيد على مائة مدينة في الاتحاد الروسي. ونذكّر هنا، على سبيل المقارنة، بأن هذه الحشود لم تكن تجذب أكثر من بضع عشرات من المؤيدين عشية صعود يلتسين إلى السلطة.

وقد رأى أحد المراقبين الروس في إعادة إحياء الستالينية كحركة سياسية شعبية في روسيا المعاصرة دلالة أخرى على خيبة الأمل العامة في حكم يلتسين. ففي مراجعته النقدية لمقال بعنوان «ستالين وروسيا»، كتبه لوري بيلوف أحد زعماء شيوعيي سان بطرسبرج ونشرته الصحيفة اليومية المتشددة «سوفستاكايا روسيا» في العشرين من أكتوبر، رأى المعلق الليبرالي أن نشر مثل هذا المقال كان يمكن أن يثير عاصفة من الاحتجاج من قبل المثقفين الليبراليين الروس لو أنه ظهر قبل ديسمبر 1993(6). وذهب المعلق الليبرالي إلى أن غياب أي رد فعل إزاء مثل هذا الظهور للستالينية الساخرة يمثل إنذارا لنظام الحكم الحالي في روسيا، الذي أصبح «فاقد الحيلة، كذابا، مشغولا طوال الوقت بتدبير المكائد».

فقدان الشعبية

وهناك تطور رئيسي ثان ساد الساحة السياسية الروسية أيضا في خريف عام 1994، وأعني به الانهيار المفاجئ لشعبية يلتسين في صفوف الجمهور الروسي بوجه عام وحلفائه السياسيين السابقين بوجه خاص. فخلال الشهور التسعة التي أعقبت يناير 1994، هبطت شعبية الرئيس الروسي بمعدل 12 نقطة، لتبلغ مستوى يمكن مقارنته بالكاد بمعدل شعبية أي زعيم غربي معاصر مثل بيل كلينتون رئيس الولايات المتحدة، أو جون ميجور رئيس الوزراء البريطاني، أو فرانسوا ميتران الرئيس الفرنسي. وطبقا لاستطلاع للرأي أجري في أكتوبر 1994، قال 61٪ ممن أجابوا عن أسئلة الاستطلاع إنهم لا يثقون في رئيسهم، بينما قال 13٪ فقط إنهم يثقون فيه إلى حد ما، كان من بينهم 3٪ فقط أعربوا عن ثقتهم المطلقة فيه(7).

وواكب هبوط شعبية يلتسين تخلٍ واسع النطاق من جانب حلفائه السياسيين السابقين، بل أصدقائه الشخصيين، بما في ذلك نشطاء حقوق الإنسان، والصحفيون الديمقراطيون، ورجال الأعمال، والسياسيون. وكان من بين من تخلوا عن تأييده أغلب رفاقه المقربين السابقين، ومن بينهم جينادي بيربوليس، والذي اشتهر عنه أنه مهندس الانتصار الذي حققه يلتسين في أول انتخابات رئاسية عام 1991. فقد رأى بيربوليس، وكان أول نائب رئيس وزراء في حكومة يلتسين، أن عصر يلتسين انتهى، وأن عليه ألا يخوض الانتخابات من أجل فترة رئاسة ثانية(8). وفي وقت لاحق، هاجمه ميخائيل بولتورانين ـ وكان أيضا أحد رفاق يلتسين المقربين، وهو حاليا رئيس لجنة الصحافة والاتصال في المجلس التشريعي (الدوما) ـ بسبب قرار «النقض» (الفيتو) الذي أصدره فيما يتعلق بتعديلات قانون الإعلام الروسي. وقال بولتورانين، الذي شغل يوما منصب وزير الإعلام في حكومة يلتسين، إن «فيتو» يلتسين يعد دليلا على أن البلاد تتجه نحو نظام حكم استبدادي شمولي، وأن يلتسين قد أظهر أنه «ليس هناك ديمقراطي حقيقي في داخله»(9). وقد أوضح الهجوم العنيف لبولتورانين على شخص يلتسين بداية تلاشي التأييد الذي كان يحظى به في صفوف تلك المجموعة البرلمانية التي كانت تعد حتى الآن «موالية للرئاسة»، وأعني بها «خيار روسيا»، التي يعد زعيمها إيجو جايدار ـ مهندس الإصلاح الاقتصادي في روسيا ـ في الوقت الراهن السياسي المستقل البارز الوحيد الذي يواصل تأييده ليلتسين. ولقد اتضح إلى أي حد يمكن ليلتسين أن يعتمد على تأييد مجموعة جايدار في المؤتمر الذي عقدته تلك المجموعة، والتي أصبحت تعرف الآن بـ «الخيار الديمقراطي لروسيا»، في التاسع من أكتوبر 1994، عندما طالب بوريس فيدوروف ـ وزير المالية السابق في حكومة جايدار ـ المشاركين في المؤتمر بأن يعلنوا الحزب بوصفه

«معارضة ديمقراطية» ليلتسين، وأيده 40٪ من عدد الأعضاء الذين صوتوا على الاقتراح(10). والواقع أن مسألة البديل الديمقراطي المحتمل في ضوء الشعور العام بخيبة الأمل إزاء حكم يلتسين، أصبحت تمثل قضية ملحة الآن.

لماذا خاب أمل الجمهور الروسي في يلتسين؟

على الرغم من أن توجيه الانتقادات لسياسة يلتسين مثل ظاهرة متكررة الحدوث عبر الفترة كلها التي شغل فيها منصب الرئاسة، فإن ظهور معارضة ليبرالية بوصفها ظاهرة سياسية مستقلة يمكن إرجاعه إلى أحداث سبتمبر وأكتوبر 1993، أي إلى صدور مرسوم يلتسين رقم 1400، والذي حل به البرلمان - على الرغم من أن نص الدستور الذي كان لا يزال معمولا به وقتها كان يحظر بصورة قاطعة على الرئيس أن يفعل ذلك - وإلى الأحداث الدامية التي أعقبت ذلك. وقد شملت تلك الأحداث إرسال الدبابات لإطلاق النيران على مبنى البرلمان وتجميد أنشطة المحكمة الدستورية، التي لم تستأنف أعمالها إلا بعد مرور عام كامل. هذه الأحداث قسمت المثقفين الليبراليين الروس إلى معسكرين: الأغلبية التي ساندت الرئيس، والأقلية التي لم تسانده. ومن بين من انتموا إلى هذه الفئة الأخيرة زعماء حزب «اليابلوكو»، والأجنحة المختلفة في حزب روسيا الديمقراطي، ومن بين هؤلاء الزعماء الاقتصادي جريجوري يافلنسكي، ووزير التجارة الخارجية السابق سيرجي جلاتسيف، والمخرج السينمائي ستانسلاف جوفوروكين، اللذان نجحت تكتلاتهم في الفوز بما لا يقل عن 13٪ من المقاعد في الانتخابات البرلمانية التي جرت في الثاني عشر من ديسمبر 1993 (نحو 5٪ منها بقائمة «اليابلوكو» و8٪ لحزب روسيا الديمقراطي). وقد أخفقت، في ذلك الوقت، المحاولات التي بذلها نشطاء حقوق الإنسان في خريف 1993 لإقامة حركة معارضة على نطاق جماهيري في كسب التأييد الشعبي.

وبعد عام من الأحداث المأساوية التي شهدها أكتوبر 1993، كان تقييم الجمهور العام لتلك الأحداث قد تغير. ففي استطلاع للرأي أجري في أواخر عام 1993 أيدت أغلبية سكان مدينة موسكو تحرك يلتسين. على أن 69٪ من المجيبين على استطلاع آخر للرأي أجري بمدينة موسكو في الرابع من أكتوبر عام 1994 أدانوا استخدام القوة ضد البرلمان في عبارات واضحة. وفضلا عن ذلك فقد قال أكثر من 62٪ ممن أجابوا عن أسئلة هذا الاستطلاع أن الحدث قوّض ثقتهم في الديمقراطيين الممسكين بالحكم(11). ويكشف هذا التغير في المزاج الجماهيري عن ميل عام في السلوك السياسي الروسي يمثله خير تمثيل التعبير الشعبي «التزام الحكمة والتأني بعد الحدث - أحيانا لعدة شهور بل وربما عام». وقد عبر هذا الميل عن نفسه لا في حالة المواجهة الدموية بين يلتسين والبرلمان السابق

فحسب، بل أيضا فيما يتعلق بدوره في الانهيار التاريخي للاتحاد السوفييتي في نوفمبر 1991. ففي ذلك الوقت، رحبت وسائل الإعلام الديمقراطية كلها تقريبا بالاتفاق الذي تم بين زعماء الدول السلافية الثلاث بإحلال «كومنولث الدول المستقلة» محل الاتحاد السوفييتي. واليوم أصبح ينظر إلى هذا الاتفاق بوجه عام على أنه مأساة قومية كبرى. ولقد أسهم هذا الميل بالتأكيد في الهبوط المفاجئ لشعبية يلتسين في أكتوبر 1994، مثلما أسهم فيه الفتور الواضح في التزام روسيا بفكرتين بروتستانتيتين رئيسيتين ـــ المفهوم الأنجلوساكسوني المتعلق بالإنصاف وفكرة الالتزام الفردي أمام الله بوصفه ثمنا للحرية.

ولا تبدو الحوادث التي استشهدت بها وسائل الإعلام الروسية في أواخر عام 1994، لتدعيم إدانتها الروتينية للرئيس، منطوية على أي أهمية رئيسية هنا. فقد قيل إن يلتسين كان ثملا أثناء حضوره المناسبتين في شهر سبتمبر في إطار حدثين دوليين رئيسيين، وفي إحدى هاتين المناسبتين حاول أن يقود فرقة أوركسترا ألمانية خلال الاحتفال بخروج الجيش الروسي من ألمانيا. وفي المناسبة الثانية ألغى موعدا مع رئيس الوزراء الإيرلندي، ألبرت رينولدز، عندما فشل في الخروج من طائرته في مطار «شانون»، تاركا رينولدز وزوجته وفرقة الموسيقى العسكرية وحرس الشرف ومجموعة الأطفال الحاملين للزهور واقفين في انتظاره على الأسفلت لمدة ثلاثين دقيقة.

وتمثل حادث آخر، كان أكثر خطورة ووقع في الحادي عشر من أكتوبر، في الانهيار غير المتوقع للروبل في سوق العملات بموسكو، وما أعقبه من ارتفاع صاروخي في أسعار كل السلع الأساسية، بما في ذلك المواد الغذائية. وقد سمى يلتسين الارتفاع المفاجئ في سعر الدولار الأمريكي الذي نتج عنه انهيار الروبل «عملا تخريبيا» قام به خصومه السياسيون، وطالب «الهيئة الفيدرالية للاستخبارات المضادة» (كي جي بي سابقا) بالتحقيق في الحدث.

وكان الحادث الأخير هو اغتيال ديمتري خولودوف، المحرر بقسم التحقيقات بالصحيفة اليومية الأكثر شعبية في موسكو، «موسكوفسكي كومسومولتين»، في السابع عشر من أكتوبر. ولقد تخصص هذا المحرر الشاب في كتابة مقالات تفضح الفساد في صفوف العسكريين لذلك سارع زملاؤه، وخاصة رئيس تحرير الصحيفة، بافيل غوسيف، بتوجيه اتهامات غير مقترنة بأدلة، في أعقاب اغتياله، إلى العسكريين بما في ذلك وزير الدفاع بافل جراشيف، زاعمين تورطهم في الجريمة. ومن جانبه اندفع يلتسين إلى الدفاع عن جراشيف بسلسلة من العبارات المفتقرة للدقة، قائلا إن جراشيف له شعبية

كبيرة في صفوف الجيش، وأنه تصرف ببطولية خلال صراع الرئيس مع البرلمان، وأن الأقاويل حول تورط جراشيف المزعوم في اغتيال جولودوف ليست سوى محاولة من جانب مؤيدي البرلمان السابق للانتقام من بطولة جراشيف المزعومة (وواقع الحال أن صحيفة «موسكوفسكي كومسومولتين» وقفت إلى جانب يلتسين طوال صراعه مع البرلمان).

على أننا لا نجد جديدا في أي من هذه الأحداث. فقصة انتظار رئيس الوزراء الإيرلندي في مطار شانون، على سبيل المثال، لم تكن المناسبة الأولى التي تخلف فيها يلتسين عن موعد دولي مهم، نتيجة لمشكلة إدمانه الخمور حسبما تورد التقارير. ففي أوقات أخرى ألغى يلتسين بصورة مفاجئة مقابلات مع رئيس الوزراء الياباني كييشي ميازاوا ورئيس الولايات المتحدة السابق ريتشارد نيكسون، وذلك على سبيل المثال لا الحصر. والأكثر ترجيحا هو أن هذه الأحداث ـــ أو الحوادث ـ كانت بمنزلة القشة الأخيرة التي «قصمت ظهر» التأييد الجماهيري لأول قيادة منتخبة ديمقراطيا لروسيا، مما دفع مواطنيها إلى إعادة تقييم أداء قيادتهم.

وفضلا عن ذلك فإن أغلب السياسات التي اتبعت في ثلاث السنوات الأخيرة لم تكن ناجحة بأي معنى من وجهة نظر رجل الشارع في روسيا. فعلى سبيل المثال قد يمكن اعتبار الإصلاح القائم على اقتصاد السوق، والذي تولى تنفيذه إيجور جايدار نائب رئيس الوزراء في حكومة يلتسين، تطورا إيجابيا من وجهة نظر الاقتصاديين، لكن من الصعوبة بمكان إنكار آثارها التي لا تحتمل جموع السكان في روسيا. فحتى وسائل الإعلام الأكثر موالاة للنظام الحاكم نشرت قصصا كثيرة حول عمال مناجم الفحم الذين يتضورون جوعا في مناجمهم(12)، وعن الأمهات اللائي يطعمن أطفالهن من غذاء الخنازير(13)، أو العمال الذين أضرموا النار في أنفسهم في محاولة يائسة منهم للحصول على أجورهم المتأخرة(14).

لقد رأى أغلب العمال الروس في عملية خصخصة المشروعات الصناعية صفقة جائرة، وجائرة بشدة. فأي كفاءة اقتصادية أعلى يمكن اكتسابها عن طريق الخصخصة لا يزال يتعين البرهنة عليها، لكن تأثيرها المباشر والفوري، الواضح اليوم، تمثل في تحول الملكية التابعة للدولة سابقا إلى ملكية خاصة للمديرين الذين قامت بتعيينهم في وظائفهم لجان الحزب الشيوعي قبل سنوات قليلة خلت. وما جعل الأمر أكثر سوءا أن هؤلاء المديرين لم يدفعوا مقابلا لأنصبتهم، التي وزعت عليهم مجانا. ولأسباب عديدة متنوعة، وبسبب الخصخصة أيضا، فقد شعر العمال أنفسهم بأنهم عاجزون تماما في مواجهة مديريهم

نتيجة لأن الأخيرين كانوا متحررين من أي رقابة، بما في ذلك رقابة اللجان(15).

لقد حرم الدستور الروسي الجديد، الذي تم اعتماده وبدأ العمل به من خلال الاستفتاء الذي أجري في الثاني عشر من ديسمبر عام 1993، البرلمان من ممارسة أي رقابة فيما يتعلق بأمور الدولة. وخلافا للنظامين الأمريكي والفرنسي، فإن كلا من الناخبين والهيئة التشريعية ليس لهما أي رأي فيما يتعلق بتعيين المسؤولين الروس. ويحكم روسيا اليوم هرم من المسؤولين غير المنتخبين تعاونهم «إدارة» مركزية عمادها 1800 من التابعين. وتقوم هذه الإدارة، التي تتألف من مستخدمين سابقين في الحزب الشيوعي والجهاز الحكومي السوفييتي، بتعيين رؤساء الإدارات على المستوى الإقليمي والمحلي وممارسة عمليات الإشراف والرقابة عليهم. والرجل الذي يحكم روسيا في الوقت الراهن «يوما بيوم»، هو سيرجي فيلاتوف، رئيس هيئة موظفي يلتسين، الذي جرى تعيينه بدوره، وليس انتخابه، في هذا الموقع(16). وإجمالا يمكن النظر إلى التركيبة الحالية للحكومة على أنها إعادة إحياء للنظام القديم، حيث كانت تحكم البلاد شبكة من لجان الحزب الشيوعي على رأسها اللجنة المركزية للحزب، والسكرتارية العامة، والمكتب السياسي.

ويترافق مع الافتقار إلى أي إشراف أو رقابة برلمانية أو قضائية على السلطة التنفيذية عدم الاكتراث من جانب الحكومة بالرأي العام، جنبا إلى جنب مع انتهاك يلتسين للقوانين ولأحكام الدستور الجديد بصورة يومية. (عندما نقض البرلمان الفيتو الرئاسي بشأن القانون المتعلق بميزانية عام 1995، قال يلتسين إنه لن ينفذ القانون). والواقع أن مراسيم يلتسين كان لها الأسبقية عمليا على القوانين وعلى الدستور. وفي روسيا اليوم، لا يقدم المسؤولون المتهمون في وسائل الإعلام بالفساد، أو بالتجاوزات المالية، أو بأية انتهاكات أخرى، استقالاتهم من مناصبهم، كان ذلك هو واقع الحال مع جراشيف، كما ذكرنا في موضع سابق، وحاكم الإقليم الساحلي إيفجيني مازدراتنكو، الذي قيل إنه تورط في عملية خطف وتعذيب أحد الصحفيين المحليين، ووزير العدل يوري كاليكوف والمدعي العام الروسي (بالنيابة) إليكسي إليشنكو، اللذين وجه إليهما الاتهام في قضية تتعلق بتزييف أدلة من أجل تجريم نائب الرئيس السابق ألكسندر روتسكوي.

من يخلف يلتسين؟

بما أن يلتسين، شأنه في ذلك شأن أي مخلوق بشري فان، يمكن أن يتوفى في مكتبه أو يترك الحكم لأسباب صحية قبل يونيو 1996، فإن الأسئلة المتعلقة بمن يكون خليفته لا تبدو أسئلة ترتبط بالمستقبل بالبعيد، وأيا كان السبب، فإن عددا متزايدا من الناس

يبحثون اليوم عن وريث ليلتسين. وعلى الرغم من أن هناك فردين على الأقل من أفراد حاشيته مدرجان في القائمة في ضوء دعوتهما لـ «تأجيل» الانتخابات، فإن من غير المرجح أن يحدث ذلك. والأكثر ترجيحا هو أن الانتخابات سيتم إجراؤها في الموعد المقرر لها طبقا للدستور الروسي، أي في الثاني عشر من يونيو عام 1996. (على أنه علينا ألا نستبعد أن تجرى الانتخابات ثم يعلن أنها غير صالحة بسبب قلة عدد الناخبين المشاركين فيها). في أكتوبر عام 1994، دعت مختلف القوى السياسية ـ من بينها الحزب الشيوعي الروسي، والرئيس السوفييتي السابق ميخائيل جورباتشوف، ومجموعة «إليابلوكو» في دوما الدولة ـ إلى عقد انتخابات رئاسية مبكرة في عام 1995. وفي العاشر من نوفمبر، وافق مجلس الدوما على مشروع قانون يتعلق بإجراء تلك الانتخابات مقترح من مجموعة اليابلوكو بقيادة جريجوري يافلنسكي.

وفي غضون فترة وجيزة، سميت مجموعة من المرشحين البدلاء للرئاسة. وكان صاحب الاقتراح الأكثر راديكالية هو الرئيس يلتسين نفسه، الذي اقترح أن يخلفه في الرئاسة بوريس نيمتسوف، الحاكم الشاب لإقليم «نيزني نوفجورود» هذا الإقليم قد أصبح، منذ عام 1991، مركزا لعملية إصلاح اقتصادي متقدم خطط له يافلنسكي. وقد اشتهر كل من نيمتسوف ويافلنسكي بأنهما استطاعا تطبيق الإصلاحات بصورة سلمية دون إثارة عداوة أي شريحة من سكان الإقليم. وأدى نجاح الإصلاحات القائمة على تطبيق نظام السوق في «نيزني نوفجورود» إلى أن يصبح الإقليم مزارا للعديد من السياسيين الغربيين البارزين، كان من بينهم مارجريت تاتشر وجون ميجور. وخلافا للمرشحين المحتملين الآخرين، لم يكن نيمتسوف ـ وهو عالم نووي سابق ـ عضوا في أي يوم من الأيام بالحزب الشيوعي، كما أنه سيجلب معه بالتأكيد، لو أنه تولى السلطة الأعلى في روسيا، نمطا مختلفا تماما من النخبة الحاكمة. على أن نيمتسوف أحجم تكرارا عن خوض انتخابات الرئاسة، ومن المفترض أنه فعل ذلك لصالح صديقه يافلنسكي(18).

ولقد دعا أحد المرشحين المحتملين للرئاسة، لوري لوتسكوف محافظ موسكو، يافلنسكي إلى الإشراف على عملية الخصخصة في العاصمة السوفييتية. ومن الواضح أن في ذلك إشارة إلى أن لوتسكوف قد اختار أيضا ألا يدخل منافسا ليافلنسكي في الانتخابات. وفي وقت لاحق، أعلن جورباتشوف تأييده ليافلنسكي(19). وباستثناء يلتسين نفسه، فإن المرشح الديمقراطي الوحيد الذي لم ينسحب لصالح يافلنسكي حتى الآن هو جراح العيون سفياتوسلاف فيدوروف. أما يلتسين نفسه فلم يعلن حتى الآن ما إذا كان ينوي خوض الانتخابات من أجل فترة رئاسة ثانية.

وإذا ما حصرنا الأمر بين يافلنسكي وفيدوروف، فإن فرصة الأول تبدو أفضل في الفوز بالانتخابات. والواقع أنه يبدو من غير المرجح حتى الآن أن يفوز مرشح يتبنى خط الإصلاح الاقتصادي في الانتخابات الرئاسية القادمة، على أن يافلنسكي يبدو المرشح الوحيد الذي يملك فرصة حقيقية. ففي بداية سبتمبر عام 1993، أصبح يافلنسكي أول سياسي يحظى بثقة عدد أكبر من المجيبين عن استطلاع للرأي مقارنة بيلتسين(20).

وفي وقت لاحق، وفي استطلاع للرأي أجراه علماء اجتماع روس بناء على طلب «مؤسسة فريدريش إيبرت» بألمانيا، جاء يافلنسكي بوصفه الشخصية المدنية الأكثر شعبية في مرتبة واحدة مع كبار القادة في الجيش(21). ومثلما كان الحال مع يلتسين في 1991، فإن من المتوقع أن يحظى يافلنسكي بتأييد عدد من المنظمات الديمقراطية، مثل «المركز الديمقراطي الموحد»، التي أنشئت في سبتمبر 1994، والعديد من الأحزاب الديمقراطية الاجتماعية الروسية. على أن يافلنسكي، وخلافا لفيدوروف، لا تتوافر لديه أموال كبيرة ومن ثم سيحتاج في حملته الانتخابية إلى الاعتماد على رعاة ماليين.

على أن ظهور هؤلاء المؤيدين الجدد، وبغض النظر عن فوزه أو خسارته في الانتخابات الرئاسية القادمة، يطرح أمامنا قضية أخرى. فهل يقدم يافلنسكي بالفعل بديلا ديمقراطيا للحكومة الراهنة؟ وهل هو قادر على تخفيف ألوان المعاناة اليومية لروسيا، وهل لديه الإرادة الفعلية للمحاولة؟ إن إيجور كليامكين يرى في يافلنسكي ممثلا للديمقراطية «الجديدة» الحقة، على عكس الديمقراطية «القديمة» الراهنة، المتجسدة في بوريس يلتسين. وفي نوفمبر 1994 أعاد كليامكين مرة أخرى طرح مقولته التي سبق الاستشهاد بها في بداية هذا المقال:

[ليس من الحكمة في شيء أن نضفي طابعا مثاليا على «ديمقراطيتنا الجديدة» على النحو نفسه الذي أضفينا به صفة المثالية على ديمقراطيتنا القديمة. فمن المحتم أنها ستكون أسوأ بالمقارنة بالديمقراطيات الحديثة في الدول المتقدمة. ومع ذلك فسوف تمثل خطوة إلى الأمام بالمقارنة بالديمقراطية التي لدينا اليوم](22).

إن الوقت لا يزال مبكرا للحكم على ما إذا كان تفاؤل كليامكين بشأن الاحتمالات الانتخابية بالنسبة لـ «الديمقراطيين الجدد» مبررا. ومع ذلك فإن تأكيده فيما يتعلق بسلوكهم المحتمل في حالة فوزهم يبدو واقعيا تماما. فـ «الديمقراطية الجديدة» يتوقع، من ناحية، أن تمضي قدما في عمليات الإصلاح الاقتصادي المبنية على نظام السوق بطريقة أقل صدامية، وأكثر إنسانية، على حد تعبير بوريس فيدوروف صديق يافلنسكي(23).

ومن ناحية ثانية فإن «الديمقراطيين الجدد» يبدون أناسا أكثر جدية، حريصون على سمعتهم كما أنهم أكثر احتراما لكلمتهم ولوعودهم من القادة الشعبيين من أمثال يلتسين

وجيرينوفسكي. وليست هناك أية علامة على ارتباط ظاهرة «عبادة الفرد» بيافلنسكي أو أي من الديمقراطيين الروسيين الجدد،، على عكس حالة يلتسين في المراحل الأولى من ظهوره على مسرح العمل السياسي. فالديمقراطيون الجدد، وخلافا للشعبيين، يخاطبون «الحس المشترك» (أو «الموقف الطبيعي») لا العواطف والانفعالات.

وأخيرا فإن وجود رجل جديد في الكرملين يمكن أن يجلب إلى السلطة نمطا مختلفا تماما من المسؤولين. ففي حين تألف فريق يلتسين إما من راديكاليين من دون خبرة سابقة في العمل الحكومي أو من كوادر من الحزب الشيوعي من الدرجتين الثانية والثالثة صادقهم خلال عمله كمسؤول قيادي في الحزب بموسكو وسفيردلوفسك، فإن يافلنسكي أو أي شخصية أخرى مشابهة يمكن أن يستعين بأصدقائه وزملائه، أي بالمهنيين والباحثين. ومثل هؤلاء الناس لا يرجح أن يلجأوا إلى العنف أو حتى إلى شن حملات تهجم في وسائل الإعلام ضد خصومهم، كما كان الحال غالبا في أواخر الثمانينات وبداية التسعينات. والأكثر ترجيحا أنهم سيحاولون تعلم التكتيك الغربي في تشكيل «جماعات الضغط» ومحاولة التوصل إلى حلول وسط من أجل إحراز إجماع في الرأي على المستوى المجتمعي. كذلك يختلف الديمقراطيون الجدد عن الجيل الأقدم في أنهم لا يخافون المناقشة العامة سواء في البرلمان أو في وسائل الإعلام. ومن المتوقع، في ظل أناس كهؤلاء، أن تصبح عملية صنع القرار أكثر انفتاحا، وأن تكون دائرة المشاركين في صنع القرارات السياسية أكثر اتساعا مما هي عليه الحال الآن.

على أن السؤال الذي يظل مطروحا هو ما إذا كانت الديمقراطية الجديدة ستتجه إلى استعادة الإشراف العام على شؤون الدولة، حائلة بذلك دون عودة ظهور الحكم الشمولي، الذي يمكن أن يشكل خطرا داهما على بلد مثل روسيا. هل يستطيع حكام روسيا الأكثر ذكاء تخليص أنفسهم من ذلك الإرث المترسخ منذ أمد طويل والمتمثل في استخفاف الحكام بشعبهم، أو «عامة الشعب»، والذين لا يفترض تقليديا أن لديهم القدرة على تمييز ما ينفعهم وما يضرهم، وهل سيضع هؤلاء الديمقراطيون الجدد إرادة الناخبين فوق أفكارهم الخاصة حول «ما فيه الصالح»، كما يجدر بالديمقراطيين الحقيقيين أن يفعلوا؟ وهل يقاومون إغراء الاحتفاظ بالسلطات الأوتوقراطية التي استحدثها يلتسين في سياق الدستور الروسي الجديد الذي بدأ تطبيقه عام 1993؟

وهل يدمرون «الهرم الرئاسي» القائم الآن من المسؤولين المعينين لصالح منهج أكثر ديمقراطية في اختيار المسؤولين في كل مستويات سلطة الدولة، أم أنهم سيكتفون بإحلال معينين جدد من قبلهم محل المسؤولين المعينين من قبل يلتسين؟ الواقع أن الوقت لا يزال مبكرا جدا حتى لمجرد تخمين الإجابات عن تلك الأسئلة.

هـوامـش:

(1) طبقـا لاستطلاع للـرأي أجـراه «المركز التحليلي المستقل» بمـديـنـة سان بطـرسبرج، في 12 ديسمبر 1994، اعترض 61,5٪ من المجيبين على الاستطـلاع على استخدام القـوة في جمهوريـة الشيشان، في حين وافق عليـه 17,5٪ فقط. ويجدر بنا أن نلاحظ في هذا الصدد أن رد الفعل إزاء تحرك يلتسين ضد جمهورية الشيشان اختلف اختلافا كبيرا عن رد الفعل إزاء أعمال مشابهة أقدم عليهـا الرئيس ميخائيل جوربـاتشوف في تبليسي (جورجيا) عـام 1989، أو باكو (أذربيجان) عام 1990، أو فيلنيوس (ليتوانيـا) عام 1991. ففي عصر جورباتشوف لم يعترض على محاولات قمع تطلعـات تلك البلدان لـلاستقلال بـاستخدام القـوة سوى الأنتيليجنسيـا الليبرالية وربما سكـان المدينتين الأكبر في روسيا، مـوسكو وسان بطـرسبرج، في حين ساند استخـدام القوة مع تلك البلـدان مجمل سكان الأقاليم الـروسية، والغالبية العظمى من أعضـاء الهيئة التشريعية السوفييتية، والعسكـريون. أما غزو جمهوريـة الشيشان فكان، وفي تباين كبير عن العمليـات المشابهة على أيام جوربـاتشوف، مفتقرا للشعبيـة في صفوف السكان بوجـه عام، كما لقي الإدانة من كـلا مجلسي البرلمان الروسي، ومن عـدد من القادة العسكريين الـروس البارزين. وإجمالا فإن هـذا الغزو اعتبر بوجه عام عملا أقدمت عليه الدائرة الضيقة المحيطة بيلتسين ضد إرادة مجموع السكان في روسيا.

2. See Igor Kliamkin, "Democracy in Russia: The Third Wave of Crisis," *Delo*, no. 26, 1994, pp. 1–2.
3. "Rush Hour," Ostankino Television, October 27, 1994.
4. Russian television newscast of October 27, 1994; Luiza Gladysheva, "Trust Is Gone, Mistrust Has Arrived," *Sovetskaia Rossiia*, November 3, 1994.
5. ITAR–TASS, November 1, 1994; Aleksandr Golovkov, "'Peter the Great' Gallops through St. Petersburg Seeking the Laurels of Sergei Mavrodi," *Izvestiia*, November 2, 1994.
6. Valentin Karkavtsev, "Give Him Power—All Will Again Be in Principles," *Komsomolskaia pravda*, October 22, 1994.
7. Interfax, Presidential Bulletin no. 202 (702), November 1, 1994.
8. Dmitrii Gutenev, "Burbulis Believes Yeltsin Needs Help . . . to Retire," *Pravda*, September 27, 1994; see also *Moscow News*, no. 52, 1994, p. 2 (citing Burbulis's interview with *Deutsche Welle*).
9. See Interfax News Agency, November 10, 1994.
10. Sergei Chugaev, "Communists Think about Ministerial Portfolios, Democrats about the Transition to the Opposition," *Izvestiia*, October 12, 1994.
11. Margarita Kechkina, "Did October of Last Year Bring Victory or Defeat to the Democrats?" *Komsomolskaia pravda*, October 4, 1994.
12. *Komsomolskaia pravda*, October 26, 1994; "Vesti," Russian Television, November 11, 1994.
13. *Komsomolskaia pravda*, September 26, 1994; *Izvestiia*, November 2, 1994.
14. *Izvestiia*, September 24, 1994; *Komsomolskaia pravda*, September 28, 1994.
15. See an interview with Liudmila Alekseeva in *Argumenty i fakty*, no. 29, 1994, pp. 1–2.
16. See *Komsomolskaia pravda*, September 28, 1994; *Obshchaia gazeta*, no. 44, 1994, p. 8.
17. See, for example, *Obshchaia gazeta*, no. 43, 1994, p. 2.
18. See an interview with Nemtsov in *Nevskoe vremia* (St. Petersburg), October 22, 1994.
19. See Olga Gerasimenko, "Gorbachev Relates an Anecdote about Himself," *Komsomolskaia pravda*, November 2, 1994.
20. See *Moscow News*, no. 37, 1993, pp. 1, A- 5.
21. See *Moskovskii komsomolets*, October 26, 1994; *Nezavisimaia gazeta*, November 4, 1994.
22. Igor Kliamkin, "Once More about 'Old' and 'New' Democracy," *Delo*, no. 44, 1994.
23. *Moscow News*, no. 48, 1994, p. 7.

قراءة في الخال فانيا

تأليف: مارك جريجور يفيتش رازوفسكي

ترجمة: د. أشرف الصباغ

هـذه ليست مخطـوطـة متخصص في الآداب، وليست أيضاً لمتخصص في عالم تشيخوف، لكن الدافع لكتابتها جاء، وبالدرجة الأولى، من مصدرين أساسيين:

الأول: من أوراق ودفاتر الإخراج التي ضمنتها العديد من الملاحظات.

الثاني: من جهاز التسجيل المنزلي الذي سجلت عليه جميع الالتباسات والتشويشات، والتهويمات التي كانت ترد على لساني.

وقد فعلت ذلك بشكل ذاتي ولنفسي، كخطوة ضرورية وعمل تمهيدي لإخراج المسرحية. ولكن الآن، وبعد أن تمت المحاولة بالفعل وشاهدها الجمهور، فمن الضروري والمهم أن نعيد اكتشاف عالم تشيخوف على ضوء هذه التجربة، للخروج بفهم جديد له.

العنوان الأصلي للمقال:

(ЧТЕНИЕ "ДЯДИ ВАНИ")

مراجعة: د. نديم معلا

إن كل قراءة جديدة هي، في المقام الأول، عملية إبداعية، وباعتبار أن قراءة النص محاولة ذاتية، أو بمعنى أدق هي محاولة فردية فيمكن أن تكون قراءتي مفيدة وخلاقة لقارئ آخر له محاولة ذاتية مختلفة، ويمكن أيضاً ألا يكون لها أي تأثير في هذا القارئ. وبشكل عام لا يوجد لديَّ هذا الوازع اللجوج لفرض رؤيتي/قراءتي ـ الذاتية ـ على القارئ، إلا أنني أود التركيز على أنه من خلال التعامل ـ القراءة ـ مع النص تتولد لديك بعض الأفكار الجاهزة مسبقاً، مثل تلك التداعيات التي تخلفها كلمة الكلاسيكية، أو التعليمات التي يتلقاها الممثل من المخرج في صيغة جاهزة، حيث إن هذه الأفكار الجاهزة لا تأتي هكذا من فراغ، أو من لا شيء. فعندما نلقي بحجر في الماء، نرى الدوائر الموجية وقد بدأت بالانتشار. والتداعيات مثلها مثل هذه الدوائر، أو لنقل إن هذه الدوائر مثلها مثل التداعيات. فالدائرة الأولى تكون واضحة جلية ومحددة، ثم تأتي الثانية، والثالثة... والعاشرة... إلخ والنص التشيخوفي يمتلك خواص هذه الدوائر الموجية من حيث الغزارة والجزالة، وأبسط شيء فيه يتحول إلى قيمة ذات أهمية عالية تصدر صدى واسعاً نتيجة لتقاطع الخطوط المرئية وغير المرئية، والمبنية على تناسب أجزاء العمل الفني الدرامي المعقد، والذي يمتلك ضروراته وتشعباته وأسراره عند تشيخوف. إلا أن القراءة يمكن أن تحدث بشكل سلبي، وفي هذه الحالة يكون القارئ ـ المتعامل مع النص ـ مثل بقرة تجتر وتجتر فقط، لأنه ببساطة يتعامل مع النص بشكله المكتوب على الورق، ودون وعي لأي دوائر وتقاطعات ناجمة عن الكلمات التي تحتل مركز الجملة، وتدور حولها الفكرة. وهذا النوع من انزلاق العيون على الكلمات يعتبر غير مثمر بالنسبة للمسرح. فإذا كان الأدب عبارة عن قاعدة ـ قانون ـ فإن المسرح هو الصيغة الروائية لهذه القاعدة، ولكي نؤسس العلاقة.. ونوطدها بين القاعدة والصيغة، ينبغي أن تكون القراءة سلبية، بل يجب أن تكون قراءة نافذة وتفصيلية ومتأنية، أي: دراسة، وإلا تعرضنا لخطر الانحطاط الثقافي المعرفي، والجهل باللغة المسرحية التي يكتب بها الكاتب مسرحيته ووقعنا في فخ عدم فهم وإدراك البديهيات الأولية للوصول إلى أعماق النص.

إن تقديم الأعمال الكلاسيكية يعني دائماً ـ شئنا أم لم نشأ ـ الارتداد والنكوص عما يجري في زمننا المعاصر، ذلك الزمن الذي أصبح يشكل عالماً قاسياً من الخواء الروحي، الذي يفتح بدوره هوة حالكة من انعدام القيم والمفاهيم الإنسانية. مما يتطلب بشكل فوري، العودة إلى الثقافة الكلاسيكية بما فيها من زخم فكري وإنساني. وفي الوقت نفسه يعني التوغل في المعاصرة على ضوء استلهام الثقافات الكلاسيكية، وبمساعدة تجارب وخبرات أصحابها، والتي نستدعيها خصيصاً لسد هوة الفراغ الروحي للزمن المعاصر، والقضاء على كل ما يتسرب إلى أرواحنا من خواء يشمل كل شيء. فالإقبال على القديم ينشأ بسبب النزوع إلى الجذور

الأصلية والتوق إلى التراث، حتى لا يموت في لحظات الرعب المتأصل، أو ينثر في خضم تمزقات العالم المعاصر، بل ليبقى دائماً وأبداً في وعينا ووعي أحفادنا. إن إدراك عظمة التماثيل والآثار القديمة لا يتأتى من صمتها المخيم في الفضاء المجرد، ولكن عن طريق حركتها الواقعية الدائبة في الوعي المحسوس - الموضوعي - لكل إنسان على حدة في عالمنا الحالي. وبالتالي فإن إعادة إنتاج ما مضى يجب ألا تكون، في أي حال من الأحوال، مثل إقامة تماثيل لتماثيل أخرى. والمقصود هنا ذلك الفن الميت الخالي من القيم والأخلاقيات الإنسانية، والذي يرضي الكثير من الأدعياء والكاذبين على الرغم من إفلاسه وعدم فعاليته في الواقع. فالماضي الذي ينسج بشكل غير عضوي مع الحاضر، يتم نسيانه، ومن ثم يندثر ويذهب هباء، ومن الأفضل للحاضر أن يندفع متدفقاً في المستقبل، بدلاً من الاستقرار في التاريخ. لكن إذا كان الماضي غير مدروس ومستقراً، فسوف يكون المستقبل غير معروف. وعندما تشكل الكلاسيكية الجوهر الروحي للحاضر، فهي جديرة بالدخول إلى المستقبل، ويتم ذلك فقط عندما تجري في هذا الحاضر عملية تحرر، وانعتاق الروح، بعيداً عن محاكاة هذه العملية أو تزويرها، لأن الثقافة تأخذ دورها الطبيعي عندما تتغلغل في العمق، وتعيد إنتاج نفسها، وتبعث في الذاكرة عملية بحث جبارة عن الحقيقة، وعن ذلك الذي اندثر، وغاص هناك في المجهول. في هذه اللحظة الخطيرة تصبح الثقافة ضرورية للجماهير التي صارت ضامرة الإحساس، وعديمة الاكتراث بأي تراث مهما كان رائعاً وجميلاً. والمقصود هنا بالطبع هو تشيخوف، الذي ينكره راهننا، وتنكره انغماساتنا في مشاكلنا الخاصة، ذلك الكلاسيكي الذي مازال يحلق عالياً فوق رؤوسنا، وتلزمنا قوة ضخمة للوصول إليه، لأننا في الواقع قد ابتعدنا كثيراً عن التراث، وعلينا أن نقطع مسافات طويلة من أجل عملية التماس مع هذا التراث. عندئذ سنجد أننا نصطدم بالإشكالية الدائمة لتأثير الذين ماتوا عضوياً فقط: فهل أعمالهم تؤثر «أولا تؤثر» فينا نحن الأحياء؟ وهل هذه الأعمال لها نفوذ (أم هي دون نفوذ)؟ وفي حالة الاعتماد المباشر على كفاءتنا في قراءة أو عدم قراءة النص القديم - فهل إعادة الخلق الفني في خبرتنا تعطي «أو لا تعطي» متعة خيالية كاملة، ما دامت تظهر (أو لا تظهر) بداخلنا قدرة حقيقية على رؤية ما تحقق في الماضي من نماذج وأشكال مسرحية حية؟ وعندما نجد في أنفسنا تلك القدرة على اكتشاف العلاقة بين تصوراتنا عن العالم الذي مضى، وبين أحداث التاريخ التي جرت فيه وتناولتها الكتب بالشرح والتحليل، فسوف يحضر العالم الماضي لتشيخوف، وشكسبير وغيرهما، ويمثل أمامنا بشكل فعلي ومقنع، على الرغم من ابتكاراتنا واختراعاتنا الفنية. إن الكلاسيكية تشكل لنا تصوراً عن أنفسنا فيه معنى الخلود، وفيه إمكان الوصول إلى أرقى مراحل المعرفة، بل وتؤكد لنا، عن أنفسنا، أننا نعيش في كل الأزمنة، وفي كل الأماكن، خاصة في حالة

تحطيمنا للزمن، وسلخ الأحداث التي جرت فيه، والتصقت بكل شوائبه، وعندما نتحمل هذا الزمن إلى زمننا الحالي، إلى الـ «هنا» و «الآن» الخاصتين بنا. كل هذا هو اللعبة المسرحية، وتيار صيروراتها على خشبة المسرح فالإنسان ـ الممثل ـ في ملابسه، ليس فقط تلك الشخصية التي كتبها المؤلف، ولكنه الـ «أنا» التي تعطي من ذاتها قوة وزخماً، وتؤكد وجودها في كل الأزمنة، وكل الأشياء، وكل الأماكن.

على ضوء ذلك، فإن الرغبة في عرض أي مسرحية كلاسيكية تبدأ من القراءة المتواضعة للنص المسرحي، مع مراعاة أن تكون قراءة واعية متعمقة ونشطة، تقود إلى تكوين التصورات الإخراجية، والحلول السينوغرافية. فلا يوجد فن المسرح النفسي ولن يوجد دون المرور بهذه الخطوة العملية، التي دعا إليها الموسيقار «ساليري»، والذي كان يضع موسيقاه على أسس وقواعد القوانين الموسيقية المحسوبة، وعلى أسس ما يسمى بالجبر الهارموني، مما دعاه لانتقاد موسيقى «موتسارت» التي لم تكن تراعي هذه القواعد والأسس، بقدر ما كانت تعتمد في عظمتها وقوتها وهارمونيتها على عبقرية موتسارت نفسه. وعلى الرغم من تدني الاهتمام بالمسرح النفسي يوما بعد يوم، إلا أن ذلك لن يؤثر في قوته وعظمته، لأنه دائماً يتناول كل ما هو مجهول ومتعدد الوجوه من طبيعة الإنسان.

وبرغم تأكدنا اليوم من هبوط وانحطاط المستوى العام لحرفة الإخراج الخاصة بهذا المسرح، فإننا ندرك بشكل لا يقبل الجدل بأن هذا الفن هو ذروة الاستيعاب الفني للعالم. ومن المحزن حالياً أن نرى انهياراً ليس نهائياً لمدرسة الممثل الروسي، القائمة على «المعايشة» معايشة الممثل للدور، وعلى أداء ممثلينا الرفيع والعقلاني والمبني على الدوافع. ففي الوقت الحاضر يؤدي الممثل دوره بشكل مبالغ فيه، وبإضفاء حالة من التصنع والصراخ، لقد أصبح من النادر حالياً وجود تلك القاعدة العلمية الأكاديمية التي تتطلب حالة من التناسب بين ما تنطوي عليه الشخصية المكتوبة، وبين الممثل الذي يؤدي هذه الشخصية على المستويين الداخلي والخارجي، والتي كان يطلق عليها، قديماً، اتقان الدور، دون مبالغة عن طريق إدراك جوهر وماهية الشخصية، من أجل تجسيد الفكرة، ومن أجل كل ما هو رئيسي ومهم. وعلى الرغم من ذلك فالمسرح يذكرنا دائماً بجوهره، وبعظمته غير العادية، وأنه في كل هذه الحالات لا يزال يؤدي طقوسه في تؤدة ومهابة، ولا يهبط أو ينحط إلى حضيض المبالغة والبهلوانية، ويحفظ تراثه وكينونته التي تعلن دائماً وأبداً عن الـ «أنا» المسرحية الخاصة به، تلك الـ «أنا» غير المتحفية، وغير الروتينية، وغير الملساء، وإنما تلك الـ «أنا» التي يحققها ويعلن عنها عن طريق المشاركة والتعاون والصراحة والإخلاص، والتفاني في الجوهر، وسوف تظهر هذه الـ «أنا» عندما يمتلك المسرح قوته الجبارة وصراحته المطلقة، في رفض الانحطاط، والمبالغة، والابتذال، وينهض ليصنع من نفسه جسراً روحياً،

ومعبراً من الإنسان إلى الإنسان الآخر وأن يجد في نفسه القدرة على التجديد. وإمكان التخلص نهائياً من التفاهة والتكرار، ومن ثم يعيد نفسه إلى صفائه السابق ونقائه وعظمته، على أسس وقواعد معروفة منذ القدم، لكنها لم تستخدم حتى الآن، ولم يتم تطبيقها من قبل.

سوف نقرأ مسرحية «الخال فانيا» كما لو كنا نقرؤها للمرة الأولى، لكي نبدأ بعد ذلك في تقديمها على خشبة المسرح. ولذا فسوف نتوقف قليلاً أثناء القراءة، كي نفهم شيئاً ما، ونناقش ونتدبر ما نقرؤه، ومن الضروري أن نعمق في أنفسنا الإحساس بهذا العمل الفني. سوف نقرأ، وندرس النص، ونغوص فيه.سوف نمر بأصابعنا في بطء شديد على كل حرف، وكل كلمة. وسوف نحصر كل ملليمتر في كل سطر. وسوف نرتجف ونرتعش مع كل علامة تعجب أو فاصلة أو نقطة أو علامة استفهام. ولن ندعي أي شيء آخر سوى تلك النظرة الهادئة إلى الصفحة المطبوعة، فإننا لن نكتشف أي شيء آخر جديد، ولن نحاول إمساك أذننا اليمنى بيدنا اليسرى. سوف نقرأ فقط، وبشكل بطيء ومدقق وممل .. ومن المهم جداً أن يكون ذلك مملاً جداً إلى درجة أن نصبح نحن أيضاً مملين، بل ولنجعل الملل يتسرب إلى أنفسنا إلى حد يثير النفور والعزوف. وعندما ننهي قراءة هذا النص التشيخوفي العظيم «الخال فانيا» من الغلاف إلى الغلاف، سوف نحصل على متعة لا تضاهى، أي من العنوان وحتى آخر حرف، وإلى أن «يسدل الستار بهدوء».

عندما كان شيء ما لا يعجب تشيخوف في أحد عروض مسرحياته، كان يقول دون عصبية «إنهم لم يقرأوا النص، فهناك كل شيء مكتوب». ومع ذلك فمازالت هناك بديهيات عامة يتم تجاهلها وإهمالها، فبدلاً من «قراءة النص» نرى المخرج يشرع في الإخراج مباشرة. والإخراج بالطبع ليس قراءة عابرة، لكنه إعادة قراءة ودراسة وتوغل في النص.

وعلى الرغم من ذلك، فإننا نرى المخرج وقد اتخذ هيئة العالم الضليع، ومن ثم يبدأ في التعامل مع النص بقوانين من خارجه، وتجد أن الأدوار قد توزعت، وفنان الديكور قد وضع تصميمه، والعربة قد وضعت أمام الحصان من أجل إطلاقها من فوق الجبل! وهلم بنا. إن فهمنا لتشيخوف يتشكل أثناء عملية إجراء البروفات الأولية، بل وحتى في غضون مرحلة القراءة الجادة، حول الطاولة، والتي تتطلب معالجة مبدئية للنص: تحليل كل كلمة في منظومة الشخصيات، وتحليل الموضوع، والمشاهد، والشخصيات نفسها، والآلاف المؤلفة من التفاصيل البسيطة التي يمكن أن تكون على درجة عالية من الأهمية. إن لغة العمل الذي نحن بصدده الآن لن تصل إلينا بشكل ذاتي ومن تلقاء نفسها، ولن تقفز من النص من جراء تلك الارتجالات غير المنظمة، ومن الأفضل ألا يكون هناك أي نوع من الارتجال والحذلقة، فتشيخوف لن يسامحنا على أي حال. وبالأحرى فإن جميع تأنقاتنا وبهرجاتنا الشكلية سوف تكون باطلة وعديمة

الأساس، وبدلاً من التعمق في النص، فسنحصل بإراداتنا على ما يمكن أن يبهر المشاهدين المسطحين، أو النقاد السطحيين، في الوقت الذي يعتبر فيه كل ذلك خيانة فظيعة للمؤلف، بل يعني إنتاجاً هشاً ورخيصاً للعمل الفني نفسه، فتشيخوف يتكون في عمومه من ألغاز، ومن أجل الإقدام على فك طلاسمها، يجب أولاً أن نقرأ النص قراءة عادية متأنية، كلمة كلمة، وجملة بعد أخرى. وهنا يتحتم علينا فهم عملية القراءة. فقراءة النص تسبق عملية الدراسة وتعدنا للدخول إلى مرحلة أكثر جدية ومسؤولية، ألا وهي البروفات. القراءة تعتبر فقط مدخلاً إلى تشيخوف، ودونها لن توجد أي نتائج على الإطلاق، ويمكننا أن نقول:ها هي المسرحية أمامنا على خشبة المسرح.. وبالتالي فهي نتيجة! وفي الحقيقة سوف نكون قد ابتعدنا عن تشيخوف الحقيقي، وعن الثقافة الحقيقية، لنقف وحيدين على الجانب المضاد ومعنا تشيخوف آخر ممسوخ. وعليه فمن الضروري بداية أن نطالع النص في مجمله بطريقة المطالعة المدرسية، وبأسلوب البحث عن الإبرة في كومة قش. وعلى الرغم من التعب والملل والإنهاك، فالقراءة البطيئة ـ وكلما كانت بطيئة، تكون أفضل، وكلما كانت تفصيلية، تكون أكثر فائدة ــ تعتبر ذلك الوقود الذي يشغل محرك الممثلين بسرعة صاروخية. وفي النهاية يمكننا ألا نعير رغبات الممثلين أي انتباه، ويمكننا ألا نكترث بموافقتهم أو عدم موافقتهم ، فالأهم والأساس هنا هو إيقاظ وإثارة خيال وثقافة الذين يؤدون الأدوار، لأن قراءة تشيخوف «تلد أرواحاً جديدة»، وتجعلها مستعدة للإبداع الحر والكامل على خشبة المسرح، وبعيداً عن أي غباء، أو عبث. إن عملية الخلق والإبداع تبدأ بعد مرحلة الحفر والتنقيب، بعد الحركة الإنهاكية على كل ملليمتر، بعد الحصول على أكبر عدد ممكن من محاولات التعرف والتشخيص لما هو مكتوب حتى لو كان بالفعل «هناك كل شيء مكتوب». فجميع محاولاتنا للإقلاع والهبوط تتطلب خط طيران ممهداً قد مهده المؤلف، ولكن لسوء الحظ فهو ليس مستقيماً على الإطلاق، بل تملؤه المنحنيات. وحتى الفرنسي... كوكلان ـ الأكبر الذي عاصر تشيخوف وعاش بعده 5 سنوات كاملة ــ أشار في كتابه «فن الممثل»: (عندما يقدم الممثل «بورتريه» أي يؤدي دوراً ــ فمن الضروري أن يتسلل إلى نوايا المؤلف وأفكاره ليبحث ويستفسر عن معنى وأبعاد كل شخصية، عن طريق القراءة الواعية والمتعددة). ومنذ زمن ستنيسلافسكي والممثلون لا يقرأون النص بأنفسهم، بل يقرأونه مع المخرج ـ وهو الذي يقرؤه عليهم.

إن صعوبة تشيخوف تتلخص في أن مايسمى بموقف المؤلف عند هذا الكاتب لا يتجلى في تلك الكلمات التي كتبها، إنما يظهر هذا الموقف في الكلمات وفي علامات الاستفهام والتعجب والفاصلات والإشارات والإيماءات التي تموه هذا الموقف بأشكال عديدة، وتبدو وكأنها لا تملك أية قيم دلالية، أو معانٍ في سياق النص. إلا أن هذه اللغة

بالتحديد قد استخلصت من اليومي والعادي والمعتاد.. وذلك اليومي والعادي متزامنة بطبعها، مع التخيل والاختلاق والتلفيق، وكل هذا يشكل عالماً كاملاً يعيش فيه الناس كالشظايا، وأيضاً عدم وجود الحدث نفسه، والغياب الشكلي الخادع لهذه العملية في موضوعاته التي تتركب من محاور ومدارات وموضوعات دقيقة، إلا أن صغرها ودقتها وعفويتها الظاهرية تخفي ما يسمى بغياب الحدث المزعوم في مسرح تشيخوف. لكن كل هذا وبطريقة غريبة يبدأ في التراكم، وعلى نحو ما مفاجيء يظهر كل ما من شأنه أن يباغت ويصعق، مثل طلقة نارية أو ضربة سكين أو صرخة مدوية، أو أي شيء آخر يفجر ذلك السريان المنسجم لسأمة وملل الحياة. فالأبطال مثلاً، يتبرمون من الضجر الذي يلفهم، وفجأة يظهر مشهد قتل،قصير مثل الومضة (مع أن عملية القتل يمكن أن تفشل)، أو عملية انتحار ما، حتى ولو من وراء الكواليس.

إن الطاقة الانتشارية، أو تلك القدرة الاتساعية المتسلسلة، لجميع النصوص التشيخوفية، شبيهة بالأعمال البوليسية، ولكنها في الحقيقة تتناقض وتختلف معها كلياً، فهي تُبنى على أساس المفارقة وعدم المنطقية، في حالات الخطأ، وسوء الفهم، والسخافة، والحماقة، والبلادة، وتقوم أساساً على منطق الفعل ورد الفعل والأحاسيس. وهنا نرى لماذا يكون من المهم والممتع في آن واحد، البحث والتنقيب في معاني الحوارات التشيخوفية التي تدفع وتقود شخصياته مع بعضها البعض إلى الدخول في مماحكات، ونقاشات، ومجادلات، ومخاصمات، ومشاجرات، حيث تتصادم هنا، ليس الأفكار أو المفاهيم الفلسفية، وإنما الناس، هؤلاء البشر الأحياء وعلى العكس مما هو موجود في الأدب الروسي عند دوستويفسكي، وفي بعض مؤلفات تورجينيف، وإلى حد بعيد عند تولستوي. فتشيخوف يبتكر نوعاً جديداً من الـ «النص داخل النص» (Meta - Dramaturgy)، حيث يوجد الإنسان دون رداء أيديولوجي، أو قناع «ماسك» ديني، إنما ببساطة يوجد كما هو، وفي علاقات مع أناس على شاكلته، في هذه الحالة تجري عملية اختلاط الأنواع أو الأجناس الأدبية التي هي من مميزات مسرحه، ففي أصعب اللحظات التراجيدية يمكن أن تمتزج حياة أشخاصه. بنوع من العته والبلاهة الفكاهيين، أو تهبط

إلى أخفض مناطق تقاطعات الصوت مع الصمت، فهاهم في حالة يأس وقنوط، بينما يودعون الحياة لاهين مرحين، والقيم التي ضحى من أجلها الآخرون، نرى أن هذا الخال، وهذه الخالة، يحاولان إهمالهما. ولذا فإن خمولهم واضطرابهم يغذيان فيهما الأوهام والخيالات. إن المؤلف هنا ينظر إلى أبطاله من خلال حاجز زجاجي، يمسخهم، بتهكم وسخرية، مما يجعلهم في مواضع وهم خلف هذا الحاجز، يبدون واقعيين، بل أكثر واقعية، فيحيل حياتنا المعاصرة كلها إلى حياة مسرحية تجري أحداثها أمامنا، إن جميع الأزمات الروحية، والحساسية المرضية عند الأبطال التشيخوفيين لا تحمل مطلقاً أي مسؤولية أمام الإله، فهم يمارسون النميمة مع بعضهم البعض، ويرتكبون الآثام كما لو كانت جوهراً لعدم إيمانهم، يحدث كل هذا دون فلسفات المعاناة الدينية، ودون جهد فوق قدرة البشر لتعرّف الحقيقة، وإدراك أين يكمن الشر، وأين يمكن الخير، ولكنهم ببساطة يعيشون بالشكل الطبيعي، وعلى مستوى التعرض للصدمات والهزات المعيشية العادية، ودون مبالغة أو حذلقة. فهل يظهر شيء ما في نهاية أعمال تشيخوف كما لو كان، واضحاً ومباشراً، وقطعياً؟ نعم يوجد ذلك، ولكن دون رياء أو ادعاء في المعاني والدلالات، ودون حماسة وتحمس وإنما كنتيجة لتدمير المصير وانكساره، مثل اكتشافك فجأة أنك قد وقعت في ذلك الفراغ الخانق للأبعاد الأربعة (X.Z.Y.T). في هذه النهايات التشيخوفية يوجد تشاؤم إنساني عميق، وكفر مطلق بإمكان فهم وإدراك مغزى الحياة، وقسوة خفية، وشك كبير: نعم أيها البشر... ليس هناك أي أمل يسبب الخضوع والاستكانة... بسبب استحالة إمكان الحياة نفسها. يعيش فقط النساك، والزاهدون، وفقط المتعصبون لأفكارهم وأعمالهم، أو هؤلاء الذين يعالجون، ويزرعون الأشجار، ويعلمون الأميين. إن متاعب حياتهم أيضاً تزداد وتتفاقم بسبب الانحطاط والمخاطر، غير أن هذه الحالة من الشذوذ والاهتزاز هي جزء من اختيارهم، وبمحض إرادتهم، لطريقة حياتهم. وعلى الرغم من هذا الاختيار الخالي من أي إيمان إلا أنهم، في الحقيقة، قد فعلوا ذلك ليس فقط من أجل أنفسهم، ولكن أيضاً من أجل الآخرين. وعلى ضوء ذلك فقد تغلب تشيخوف على تشاؤمه المعروف، وأعلن عن إيمانه الإنساني بهدوء وبلا ثرثرة، فجلس في «الكارتة» بمحض إرادته، وسافر إلى جزر سخالين من أجل أن ينجز فقط ما كان يجب أن ينجزه كل كاتب روسي في ذلك الوقت، وقد فعله شخص واحد فقط، هو أنطون بافلوفيتش.

إن النص المسرحي هو القانون، أما المسرح فهو صيغة هذا القانون ومفجر مكنوناته. لقد شاهدنا أكثر من مرة ظاهرة غريبة جداً بالنسبة لأعمال تشيخوف، فعلى الرغم من أن النص يسرد أمامنا على خشبة المسرح، إلا أننا نلاحظ أن تشيخوف نفسه غير موجود. ونسأل أنفسنا: ماذا حدث؟ وفي هذه الحالة نجيب:

ـ الممثلون أدوا أدوارهم بشكل سيىء، والمخرج أخرج المسرحية بشكل أسوأ.

لكن من أين يأتي كل هذا «السيىء»؟ ولماذا يكون هناك «إخراج» فعّال، وآخر غير فعّال؟ هذا بالطبع يوضحه لنا النقاد، فهم يقيمون العمل ويحللونه، ثم يحكون لنا عن انطباعاتهم. لكن للأسف سيكون الوقت متأخراً، وسيكون من الصعب الإمساك بتشيخوف. فهذا المؤلف بالتحديد يستخدم دلالات كلامية مضادة للكلمة نفسها، فالجملة الكاذبة التي تُقال على لسان الشخصية تحوي حقيقة ما، وهذه الحقيقة تصل إلى وعي المشاهد. لأن الكذب الواضح فيها يعتبر بالنسبة لنا تعبيراً لفظياً. فما يقوله البطل التشيخوفي في كثير من الأحيان هو عبارة عن كلام فارغ وسخافة غير متجانسة أو مقبولة، بمعنى أن الخاصية الموجودة أمامنا هنا، والتي يجب أن نفهمها، هي أننا مجبرون على أن نؤدي، لا الكلمات نفسها ولكن ما بينها، أو ما تحتها، أو ما فوقها، أو ما هو بالقرب منها، أو حتى ما هو بعيد عنها نسبياً. إن تعيين وتحديد المغزى، والبحث عن المنطق، هما الشرطان الأساسيان للتعامل مع المسرح التشيخوفي. ذلك المنطق الذي يُمكن المشاهد من فهم المضمون الانفعالي الحي والمؤثر في البناء الدرامي ككل، أي في تلك العلاقات المتبادلة بين الناس الموجودين على خشبة المسرح، وليس منطق المعلومات أو الكلمات نفسها. لأن تشيخوف هو عبارة عن الدلالة اللفظية المسرحية ذات الخصوصية الشديدة، والتي تعمل على البحث عن مغزى الكلمات في حالة الاختفاء الكامل لدلالاتها. وقراءة مسرحيات تشيخوف ما هي إلا محاولة لفك طلاسم هذه الدلالات، من أجل أن يقف الممثلون على خشبة المسرح، تحت الأضواء، وينطقوا كلمات رائعة، لا تكمن روعتها وقوتها فيها، بقدر ما تكمن فيما وراءها من حدث/ فعل، وقلق، ودلالات حقيقية.

«الخال فانيا» ـ أعظم مسرحية لتشيخوف، لكنها لم تُقرأ حتى الآن.

فالعنوان بسيط ومضجر، ليس له صدى مسرحي، وببساطة فهو ليس عنوان شباك. خال، خالة، بابا، ماما ـ كل هذا ليس بالشيء الذي يلمع ويومض أويهز طبلة الأذن، ولا يجذب خلفه أو إليه. فأي «خال» (ديادیا) كلمة تبعث على الضحك، وتستدعي ابتسامة ما، بسبب تركيبتها اللفظية المكونة من التكرار الغريب لحرفين (ديا)، والتي تتشابه مع الكثير من الألفاظ الموجودة، في لعثمات الأطفال (ديا ـ ديا)، ومثل ذلك «دادايزم».كما أن هناك اسماً آخر مضافاً إلى «ديادیا»، وهو اسم «فانيا الراقص، وهو اسم طريف بالنسبة للروس! اسم يتكون من ثمانية أحرف، منها ثلاثة «يا» و اثنان «د». ثمانية أحرف تكون كلمتين ، كل منهما تضم أربعة أحرف. إنها قسمة بالمناصفة تعطي للعنوان ذلك الإيقاع السري الدفين، الذي يبث فيه قدراً هائلاً من الفتنة والسحر. وهذا ما حدث لي عندما سمعت اسم المسرحية باللغة الإنجليزية «أنكل فانيا»، بذلك الإيقاع الصوتي، وبصرف النظر عن كون

الإنجليـزيـة هي لغـة تختلف عن اللغـة الروسية، لكنهـا أعطت التسمية نغماً مميزاً. وبـاختصار فهـذا العنـوان له شكلٌ خـاصٌ ومميزٌ وجمالٌ ذو تأثيرٍ مهدىء بـالمقارنة مع تسميـات أخـرى مثل «هـاملت» و «عطيل». وهنـاك مسرحيـة أخـرى لتشيخـوف تملك نفس الخاصية من حيث عـلاقة القـرابة بين الشخصيات وبين الاسم، وهـي «الشقيقات الثـلاث» (تـري سستري) التي تعتبر من المسرحيـات التشيخـوفيـة التي لا تعلن عن نفسهـا. وعلى الأرجح فإن تشيخـوف هـو الوحيد الـذي استطاع أن يسمي أعماله بهذا الشكل، وبإصرار على المألوف والعادي، وكما لو كـان يقول: لا تتوقعـوا أي شيء مفاجىء من قبلي، فسـوف اقترح عليكم شيئـاً عـاديـاً ومبتـذلاً، وفي أحط صـور السأم والملل، فهل سيكون هذا ممتعاً لكم؟

«الخال فانيـا» كلمتان كفيلتان بإبعادك عن المسرح، وعن التعـامـل الطبيعي مع عمل فني في سوق الفن. فالمؤلـف يعلن بدهاء عن حكـايـات وشخصيـات، أولها شخص مـا يسمى «فانيا»، يتضح فيما بعد أنه بالنسبة لإنسان ما «خال». فهل يبقى هناك شك في أن كل هـذا بـلاهـة وضجـر وسأم؟! «بـلاهـة وضجـر وقبح» مثل الحياة نفسهـا. ففي الأدب العالمي، وفي المؤلفات المكتوبة خصيصاً من أجل المسرح، تنتشر ظـاهـرة تسميـة العمل،بـاسم البطل الرئيسي مثل «هـاملت»، «لير» «عطيل»، «مـاكبث»، «روميـو وجـولييت». ومـن الـواضح أن شكسبير لم يكلف نفسـه عناء البحث عن أسماء غـريبة.

ومن هـذا المنطلق فقـد أطلق بـوشكين بعض الأسماء على أعمالـه مثل «جـودونـوف» و«موتسـارت وسـاليري»، وهنـاك المئات من الأمثلة الأخـرى على هذه الظـاهرة. وأنطـون تشيخوف أحـد هؤلاء، بمـؤلفيه «إيفـانوف» و«الخال فـانيـا». ففي كل من الحالتين تبرز عملية عـدم التصنع والادعاء، بشكل واضـح وسافر. إلا أنه وبنظـرة واعية مدققة يتضح أن هـذا الـوضـوح والتحـدي ما هـو إلا رداء يخفي الظهـور الذاتي للمؤلـف. وهنا تتجلى حيلة تشيخوف في تحويل انتباهنا، واتخاذه موقفـاً كما لو كـان لا يستهويه، وليس من مصلحته، نجاح أي مبدع يتناول هذا العمل. وهـو يفعل كل ذلك من أجل أن ينقل إلينـا انطباعـاً بأنه يقود فهمنا وانطباعاتنا، لكنه في الظاهر يرفض التأثير فينـا، فكل ما يهمه هو الطريق إلى الحقيقة، وليس العنـوان هو مـا يهمه إطلاقـاً، ولأنه يدرك جيداً، أن ذلك كاف لجذب المشاهد، والسيطرة عليه، وليس هناك أي داع لافتعال أي مبـالغات وحذلقـات فنية لحث ذلك المشـاهـد وتنشيطـه واحتـوائه... إلخ.

ولنبـدأ في تحليل قـائمـة الشخصيـات. الأول على رأس هـــذه القــائمـــة هـــو «سيريبريـاكـوف ألكسندر فـلاديميروفيتش (أستـاذ متقـاعـد). ولكن ماذا تعني (أستـاذ متقـاعـد)؟ فضابـط متقـاعـد شيء مفهـوم، بمعنى أنه أحيل للتقـاعـد. ولكن الأستـاذ؟ كيف يمكن لـلأستـاذ ـ البروفيسور ــ أن يكـون متقـاعـداً؟ أن يكـون على المعـاش؟ وتشيخـوف هنا يضع بطلـه رقم 1 كما لـو

كان يخطو خطوته الأخيرة في الحياة، لأن التقاعد يعتبر وظيفة لعاطل، ونهاية مطاف. وهو بذلك يستدعي دراما ذلك الإنسان الذي يفضل الماضي على الحاضر، ويُظهره كعملاق متعب مستسلم. «يلينا أندرييفنا» الزوجة (سنها 27سنة) ولنأخذ لحظتين في اعتبارنا:

1 – زوجة أستاذ ـ بروفيسور ـ تُنَادى باسمها واسم أبيها.

2 – المؤلف يصر على تحديد عمر البطلة بالضبط.

وهنا يظهر موضوع السن حتى الآن على مستوى الإشارات فقط، ونتيجة لذلك، فعندما تتطور الأحداث، سوف يتحدث البطل كثيراً عن التوق إلى الشباب والبطل «سيريبرياكوف» يطلق على نفسه «تقريباً جثة»، وعند هذا الـ «تقريباً جثة» زوجة شابة تبلغ من العمر سبعة وعشرين عاماً، وسوف يناديها، تحبباً ورفعاً للكلفة «لينوتشكا»، وسيناديها «ثوينيسكي بـ «هيلين» أما استروف فسوف يناديها بـ «المرأة الرائعة» ويلينا أندرييفنا....

هنا يظهر موضوع الزواج غير المتكافىء. وعلى الرغم من أنه قد تم الإعلان حتى الآن عن شخصيتين فقط الزوج والزوجة ، وهما يبدوان كشريكين مختلفين، وبرغم أن المسرحية لم تقرأ بعد، ولم يبدأ أي حدث، إلا أننا نملك فكرة ما وتلميحاً عن الخلاف، ولدينا تصور ما عن المشكلة، كما لو أن تشيخوف يتفق معنا مبدئياً على أن الزواج غير المتكافىء هو مبرر لأسباب الخلاف.

وهذه بالطبع ميلودراما مبتذلة ومكررة ملايين المرات في الأدب.

يلي ذلك...

«صوفيا الكسندروفنا» (سونيا) ــ ابنة سيريبرياكوف من زوجته الأولى. وهذا ضروري جداً، من أجل فهم... «تصور شخصية» سيريبرياكوف. بمعنى أنه استاذ يمتلك يلينا أندرييفنا كزوجة «ثانية»، أي أنه كانت له حياة ما قبل يلينا أندرييفنا. إذن فمن الممكن أن يكون الأمر ممتعاً، بل أكثر من ممتع للدخول في المسرحية. فماذا عن تلك الحياة في النص؟ هل هناك كلمة أو تلميح أو مميزات لهذه الحياة السابقة؟ لاشيء تقريباً يمكن استخلاصه من فم المربية العجوز مارينا. إن اسم «سونيا» الموضوع بين قوسين في قائمة الأسماء، سوف يأتي داخل النص، خارج الأقواس، وسيصبح أساسيا، كما أنه لا يوجد أي إنسان ينادي سونيا بصوفيا الكسندروفنا سوى استروف. وهذا ليس مهماً بالنسبة للمؤلف، بقدر ما هو مهم بالنسبة للشخصيات الأخرى، التي كنا قد اشترطنا أن يُدعى توزيع القوى على المواقف فيها «بالزواج غير المتكافىء»، ومن هنا سوف تتفاقم البواعث الدرامية الجديدة، والتي ستكون أسباباً دائمة للصراع والخلافات. ونلاحظ أيضاً أن الأسماء الثلاثة الأولى في القائمة تكوّن المثلث الأول للمسرحية: الزوج ــ زوجة الأب ــ ابنة الزوج. والأب عجوز متقاعد، وزوجة الأب شابة، وابنة الزوج لم تعد بعد طفلة، أو ليست لديهما القدرة على معرفة وفهم «الكبار».

«فوينيتسكايا ماريا فاسيليفنا - أرملة مستشار سري، وأم زوجة الأستاذ الأولى». وهذه أول إشارة إلى الزوجة الأولى. ويتضح أنها من أسرة مستشار سري. ولكن ماذا يعني هذا المنصب... مستشار سري؟ هذا لقب وليس منصباً. فكم كانوا يدفعون من أجل هذا اللقب؟ لا شك أنهم كانوا أغنياء وماذا تعني كلمة «سري» إلى جانب كلمة «مستشار»؟ وفي النهاية...

«فوينيتسكي إيفان بتروفيتش - ابنها». وهو البطل الرئيسي، الذي يحمل عنوان المسرحية اسمه. ما ترتيبه في قائمة الأسماء؟ الخامس! لم تكن هناك إشارة إلى عمره في القائمة، ولكن ذلك يعرف من خلال النص، وعلى لسان الخال فانيا نفسه «والآن عمري سبعة وأربعون عاماً». وتشيخوف غالباً ما يستخدم طريقة تداعي البطل، على الرغم من أنها أحياناً تكون خطرة، لأنها تقود إلى «المصارحة» الدرامية، وإلى التقليدية التي تقود بدورها إلى التصوير المباشر بشكل مبتذل. ولكن قدرة تشيخوف هنا تتجلى في أن الجزء التقريري المباشر لفهم الدور متغلغل، متداخل وذائب، وفي حالة تفاعل مع المعاناة الخفية والقلق المسيطر على البطل، مما يجعل هذه التقريرية المباشرة وليدة للحالة الشعورية، ومن ثم يستقبلها المشاهد كما لو كانت تفسيراً للتركيبة النفسية للبطل، وليست معلومة مباشرة.

يلي ذلك في القائمة «استروف ميخائيل لفوفيتش» - طبيب. وتركيز المؤلف على مهنة استروف لم تأت هكذا عبثاً، أو من فراغ، فدور امستروف في مجمله ما هو إلا معاناة، وخاصة على مستوى ممارسته المهنية للطب، ولذا فهو يتغلب على تلك المعاناة بتركيز اهتمامه على البيئة المحيطة (كمتحمس وليس كمتخصص).

«تيليجين إيليا إيليتش» - إقطاعي مفلس.

الدلالة والتحديد هنا لكلمة «مفلس» هما نفسهما لكلمة «متقاعد». وإشارة المؤلف إلى فقر أبطاله، وتدني قدراتهم المادية في حالتهم الآنية، وإلى موقفهم الانهزامي من الحياة، هي إشارة مهمة للغاية، حيث إنها تعتبر النظرة المبدئية التشيخوفية للناس الذين يقومون بأدوارهم في مسرحية. ودون إدراك هذا «المفهوم»، من الصعب فهم العالم التشيخوفي، ومن غير الممكن امتلاك ذلك المفتاح الذي يمكن بواسطته فك طلاسم هذا العالم. إن أبطال تشيخوف منذ البداية ضعفاء وعاجزون. وبرغم أن المسرحية لم تبدأ بعد، إلا أن هناك الكثير المعلن عنهم، فهم «متقاعدون» و «مفلسون» و... إلخ. وهذا التقييم البسيط والمسبق من قبل المؤلف بمنزلة تخطيط لمصائرهم المأساوية التي لم تظهر بعد في تصرفاتهم وسلوكياتهم وحواراتهم. فهؤلاء الأبطال ينتمون إلى تلك الفئة المهدورة حقوقها، وهم من الدرجة الثانية «بل ويمكن أن يكونوا من النوع الثاني»، وبالتالي فقد حكم عليهم سلفاً بتلك المأساة التي يعيشونها.

وأخيراً «مارينا» ـ المربية العجوز و«العامل».

والاسم المعاصر لهذه العجوز يثير الدهشة لعدم التطابق الواضح بينه وبين صاحبته، فهو ليس إطلاقاً اسماً لشخصية تشيخوفية، وسوف تتصف، في أقرب إرشاد مسرحي، بالسخرية التشيخوفية اللازمة: «عجوز رخوة، قليلة الحركة، تجلس بجوار السماور وتحيك جوربا».. أما الإشارة للعامل بأنه «عامل» فتكشف عن الطابع الوظيفي للدور، إلا أننا نحاول أثناء الإخراج تنمية وتطوير هذا الدور، وعدم إعطائه أبعاداً ميكانيكية اعتيادية، على الرغم من أن الكاتب قد وضعه في ذيل قائمة الأسماء.

ويأتي أول إرشاد مسرحي «تدور الأحداث في ضيعة سيريبرياكوف»، وهو شبيه بالإرشاد الأول في مسرحية «النورس» حيث تدور الأحداث في ضيعة «شورين»، وبالإرشاد الأول في مسرحية «إيفانوف» حيث تدور الأحداث في قطعة أرض صغيرة بأحد القضاءات الروسية، وبالإرشاد الأول في مسرحية «الشقيقات الثلاث» حيث تدور الأحداث في عاصمة إحدى المحافظات، وبالإرشاد الأول في مسرحية «بستان الكرز» حيث تجري الأحداث في ضيعة «رانيفسكايا». لقد استطاع تشيخوف أن يتمرد على العالم كله، ويحاربه، وينتصر عليه، بمسرحياته، وبالأحداث التي تجري بكاملها في تلك البقع المنسية، في زوايا وغرف مهجورة ومهملة، في أكثر الأماكن منافاة للعقل في روسيا. وبهذا سوف تبدأ الشخصيات حديثها، سوف تبدأ الحوارات و«المونولوجات» التشيخوفية المعروفة، ولكن المهم والرئيسي هو إيقاع المسرح التشيخوفي نفسه. فماذا وراء الكلمة؟ ما العلاقات بين الأبطال بعضهم البعض؟ بأي كلمات يموهون أفعالهم؟ كيف نتعرف من خلال الزخارف الكلامية على حقيقة دوافع وأسباب أفعالهم الظاهرية، غير المبررة، وتصريحاتهم التي تبدو للوهلة الأولى غير منطقية؟ أين الحد الذي تنتهي عنده عملية فعل ورد فعل الشخصية، والحد الذي تبدأ عنده حياة الأشباح التشيخوفية، وبقدر الابتكار عند الحد الأول تكون الطبيعية عند الحد الثاني؟ لماذا ولأي سبب يكتئبون ويتعذبون، وأحياناً يطلقون النار على بعضهم البعض (على أنفسهم مثل تريبليف ـ مسرحية النورس) ويخطئون الهدف مثل (الخال فانيا)؟ ماذا تعني الإرشادات التشيخوفية، خاصة تلك التي تتكون من كلمة واحدة «صمت»؟ متى تظهر، وأين تختفي منظومة الشخصيات في الضيعة الموجودة في حيز الرؤية على خشبة المسرح، والتي تعيش في الواقع خارج (الزمن والعالم) الأبعاد الأربعة (X,Y,Z,T)، حيث الكآبة التشيخوفية كآبة كونية، أما كآبة الحياة العادية فهي فاتنة وساحرة بشكل ما؟

فيا أيها «الخال فانيا» فيم تفكر، وعن أي شيء؟ وما سر هذه المسرحية، التي يحلق فوقها الموت، وهي تنظر إلى المستقبل؟

أثينا.. إفريقية سوداء

الجذور الأفريقية و المشرقية للإغريق

تأليف : مارتن برنال

ترجمة: شوقي جلال

اتفق إدوارد سعيد وبرنار لويس على شيء واحد في مناظرتهما الأخيرة عن الاستشراق. رأى كلاهما أن الكلاسيكيات نموذج للدراسات الموضوعية المستقلة. وزعم لويس أن الاستشراق بلغ شأو الدراسات الهللينية، بينما قال سعيد إن الاستشراق خانها. وفي اعتقادي الجازم أن النقطة الثابتة عند كليهما قلقة غير راسخة، وأنه لا توجد دراسة، على الأقل في مجال الإنسانيات، يمكن أن تقف خارج النماذج الإرشادية Paradign * الاجتماعية والفكرية السائدة في المجتمع الذي ينتمي إليه الباحث.

العنوان الأصلي للمقال:

Black Athena : The African and Levantine Roots of Greece

مراجعة: هيئة التحرير

* (وتعني هنا المنظومة أو الإطار المعرفي - القيمي الحاكم للنثر - المترجم)

وأناقش في دراسة سوف تصدر وشيكا البيئات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية التي نشأ فيها المبحث الجديد عن الكلاسيكيات (برنال 1986)*. ووصولا إلى هذا وجدت من المفيد أن أمايز بين نموذجين عن نشأة اليونان القديمة. وقد سميتهما «النموذج القديم» و«النموذج الآري». وقد لقن أغلبنا النموذج الآري. وحسب هذا النموذج فإن الثقافة الإغريقية هي نتاج غزوة أو غزوات شنتها ضد اليونان جحافل وافدة من الشمال تتحدث لغة هند ـ أوروبية. وانتصر الغزاة على أبناء البلاد الأصليين الذين كانوا، حسبما هو معتقد، ليني العريكة، وإن كانوا أهل حضارة. وفيما عدا القول إنهم «بيض البشرة» أو «قوقازيون» وإنهم يقينا ليسوا «ساميين» أو أفارقة فإننا لا نعرف غير النزر اليسير جدا عن هؤلاء السكان السابقين على الحقبة الهللينية اللهم إلا ما خلفته لنا في اليونان القديمة من آثار لغوية كثيرة ليست هند ـ أوروبية، وإذا كان من المستحيل تماما إثبات أن اليونان القديمة تمثل عنصرا هند ـ أوروبي خالصا فقد جرت محاولة تخفيف ذلك بتصور نموذج خليط. وهكذا رئي أن سكان اليونان القديمة الأصليين قوقازيون نتيجة غزوة آرية لأقوام غير آريين، وإن اختلفت عن الغزوة الآرية للهند. وهكذا لم ينطو الأمر على شيء أساسي من عدم نقاء العرق.

وهذا النمط الذي تصوروه ليس مختلفا فقط اختلافا تاما عن نمط غزو الهند، بل يشبه الغزوة الجرمانية التي دمرت الإمبراطورية الرومانية أيضا. وهذه الحالات الثلاث جميعها تتسق تماما مع النظرة الأساسية للمجتمع الأبوي عن ربة الجمال والحسن وللاتصال الجنسي بينهما أي للذكر القوي الغازي الذي تزوج عن طريق الهيمنة بأنثى وديعة مثقفة بغية إنجاب طفل يحمل أفضل الصفات الوراثية عن كليهما.

والقول إن هذه الغزوات المفترضة تتسق مع الطراز البدائي للمجتمعات ليس من شأنه أن يثبت زيفها ـــ حقا ـــ نحن نعرف أن الإمبراطورية الرومانية تعرضت لغزوتين إحداهما جرمانية والأخرى من قبائل الهن Hun**.

ونعرف أن ثمة تقاليد قديمة راسخة تتطابق مع شواهد لغوية تشير إلى أنه وقعت حقا غزوة آرية للهند من جهة الشمال. وإنما أثير هنا الطراز البدائي الجنسي ليوحي فقط بأن النموذج يفيد كمبدأ توضيحي يفسر حالات تاريخية لا تجد سوى بنية ضعيفة تدعمها وربما لا شيء يدعمها على الإطلاق.

وأعتقد أن اليونان القديمة من بين هذه الحالات التي أعنيها. إن البنية الوحيدة التي يمكن إيرادها لدعم القول إن غزوة قد وقعت من الشمال هي أن اللغة اليونانية في أساسها لغة هند

---

* يشير الكاتب هنا إلى كتابه الضخم المهم الذي يحمل عنوان المقال نفسه وصدر منه مجلدان تزيد صفحاتهما على الألفين في عامي 1986 و1992 على الترتيب وسوف يصدر المجلد الثالث قريبا (المترجم).

**برابرة من البدو الرحل الآسيويين أغاروا على أوروبا ونهبوها خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين ـ المترجم.

ـ أوروبية. وإزاء التشابه القوي مع نطق اللغة الهند أوروبية الأولى في المنطقة المعروفة الآن باسم أوكرانيا فلا محيص عن القول بحدوث تدفق ثقافي من الشمال. بيد أننا لا نعرف كيف ومتى ساد نطق هذه اللغة في اليونان القديمة. وهذه هي الحال أيضا بالنسبة إلى أصول ومنشأ الكثير من العناصر التي ليست من أصل هند ـ أوروبي والواردة في اللغة اليونانية القديمة مثل أسماء الأماكن والمواقع الجغرافية وأسماء الآلهة والمقدسات والأسماء الواردة في الأساطير.

فضلا عن هذا نحن لا نجد تراثا لغزو اليونان القديمة من الشمال. وكانت هذه في الواقع إحدى المشكلات أمام الباحثين في القرنين 19، 20 ممن كانوا مقتنعين تماما بالدور المحوري للغزو في تكوين الثقافة الإغريقية. وعبر عن هذا جي. بي. بوري J. B. Bury في كتابه الخالد عن تاريخ اليونان القديمة حين قال:

«البيت الحقيقي لليونانيين القدماء قبل أن تكون لهم الهيمنة في اليونان مضى واندثر دون أن يخلف أثرا يذكرنا بهم. ولقد تطلعوا إلى الشرق لا إلى الغرب باعتباره الجهة التي هاجر منها بعض أسلافهم القدامى (انظر 25 :1913 - Bury).

إن ما رآه بوري ذاكرتهم الناقصة أصفه أنا بالنموذج القديم. إن هذا التصور التخطيطي القديم اعتاد أن يصدق عليه غالبية الكتاب الإغريق القدامى المعنيين بفهم ماضيهم البعيد، هذا بينما لم يسقطه سوى كاتب أو اثنين ولم ينكره سوى بلوتارك فيما اعتدنا أن ننظر إليه بوجه عام باعتباره ثورة غضب ضد هيرودوت (انظر: 13 :853 De Heroduti malignati). إذ يقضي هذا الاعتقاد بأن اليونان القديمة سكنتها قبائل بدائية من البلاسجيين Pe-lasgians* وغيرهم ثم استوطنها بعد ذلك المصريون والفينيقيون الذين أقاموا المدن وأدخلوا نظام الري. لقد أدخل الفينيقيون الأبجدية، بينما علم المصريون سكان البلاد الأصليين أسماء الآلهة وكيفية عبادتهم. وساد اعتقاد بأن الأسر المالكة الأولى انحدرت عن سلالة إلهية مصرية أو فينيقية.

هذا النموذج القديم لم يعد موضع ثقة في الربع الأخير من القرن 18 وجرى تكذيبه دون استناد إلى أي حجة جديدة أو مصدر جديد للمعلومات. ومن ثم لابد أن نقرن هذا بتحولات فكرية أخرى. وأؤكد هنا أن هذه التحولات تمثلها الهيمنة الجديدة للنزعة الرومانسية والنزعة العرقية ومفهوم التقدم. كانت الرومانسية نزعة لها شأنها لأنها في هجومها على شمولية التنوير أكدت الخصوصية كما أكدت أهمية المكان والقرابة في تلقي المعلومات عن الثقافات. وصاحب ذلك اعتقاد بأن البيئة القاسية أو الحافزة، خاصة بيئات الجبال أو الشمال الباردة

---

*سكان بحر إيجة قبل الإغريق القدامى ـ المترجم

هي التي أنجبت أفضل الشعوب وأكثرها تميزا. وهكذا فإن عرقا متميزا مثل الإغريق لا يمكن أن يكون قد استمد ثقافته من الجنوب أو الشرق.

واقترنت الرومانسية على نحو وثيق بصعود النزعة العرقية المنظمة وهي الاعتقاد بأن ثمة رابطة كاملة وتامة بين القوة أو الرجولة ولون البشرة. ولقد تأثر كلا الاتجاهين بحاجة أوروبا الشمالية إلى تشويه سمعة الشعوب التي تسعى أوروبا إلى استئصالها أو استعبادها أو استغلالها من شعوب القارات الأخرى. كذلك فإن التوسع الأوروبي والغطرسة الأوروبية وما نجم عنها من شعور بالتفاؤل كان لها جميعا شأن كبير في سيادة النموذج الأساسي الجديد عن التقدم. وهكذا فبينما كان المصريون والفينيقيون القدماء هم مصدر شعورهم بالسيادة الثقافية في القرون السابقة، إذا بنا نجد فكرة اللاحق دائما أفضل من السابق قد أفادت بوضوح اليونانيين، وارتبطت بها ارتباطا وثيقا عقيدة الفتوة والدينامية المتناميتين. إن حالة الاستقرار والعراقة الواضحتين بالنسبة لمصر والصين هما اللتان جعلتا منهما بؤرة إعجاب. بيد أنهما في ظل المناخ الفكري الجديد أصبحتا علامتين تدلان على الفشل.

هذه الضفيرة المتداخلة من المعتقدات لم تعد تطيق النموذج القديم ولا التسامح معه. إن اليونان القديمة، تلك الطفولة النقية ومثال أوروبا الفتية الدينامية لا يمكن أن تكون قد اكتسبت مدنيتها من ثقافات الجنوب السكونية «الاستاتيكية» الهرمة ومن المصريين الأدنى مستوى عرقيا.

وعلى الرغم من الهجوم الذي تعرض له النموذج القديم فإنه لم يتسن تدميره حتى عشرينيات القرن 19 أو إبداله حتى أربعينيات هذا القرن نفسه. وجاءت أهم التحولات الداخلية خلال هذا القرن مع اكتشاف أن لغات الإيرانيين وسكان شمال الهند تربطها صلات ووشائج باللغات الأوروبية. وتمخض هذا الاكتشاف عن نتيجتين: الأولى، والتي ذكرناها آنفا، وهي إثبات وجود عائلة للغة الهند ـ أوروبية وافتراض أن منشأها الأصلي كان في مكان ما في وسط أوراسيا. والثانية، أن التراث الهندي الناجم عن غزوة الشمال يمثل نموذجا افتراضيا لليونان فيما قبل التاريخ. وقد ظهر في ظل هذه الظروف النموذج الآري عن اليونان القديمة.

والاعتقاد الشائع أن أحد الأسباب المهمة التي أدت إلى فقدان الثقة في النموذج القديم هو الفجيعة في الثقافات الشرقية بعد أن فك شامبليون رموز اللغة الهيروغليفية وقراءة الحروف المسمارية. بيد أن هذا مستحيل من حيث الترتيب الزمني حيث إن هذين المصدرين الجديدين من المعلومات لم يبدأ إقرارهما من جانب علماء الكلاسيكيات إلا في خمسينيات القرن 19 أي بعد أن ثبتت أركان النموذج الجديد، ونجد أحيانا من يشير إلى أن النموذج الجديد إنما ظهر

نتيجة اكتشافات أثرية. وهذا أيضا غير مقبول حيث إن أقدم الاكتشافات الأثرية عن العصر البرونزي اليوناني، وهي اكتشافات شليمان* إنما جرت في سبعينيات القرن 19. وهكذا فإن مصادر المعلومات الجديدة لم تكن هي التي خلقت النموذج الآري. ولكن الأمر ببساطة أنه جرت ملاءمتها معه.

وأجد لزاما عند هذه النقطة أن أضيف بعض التعقيد على خطتي وذلك بالتمييز بين شقين من النموذج الآري هما العام والمتطرف. لقد تأسس النموذج الآري العام رسميا خلال النصف الأول من القرن 19. وينكر هذا النموذج التراث القائل إن المصريين أثروا في اليونان القديمة وإن أقر ذلك بالنسبة للفينيقيين في الجانب الغالب منه. أما النموذج الآري المتطرف الذي ظهر قبيل نهاية القرن فقد رفض فكرة أي أثر ساما على الإطلاق. وكان ثمة شك قليل منذ نهاية القرن 18 في أن العرق المتميز هو العرق «القوقازي» ونحن هنا نستخدم مصطلحا جرت صياغته خلال تلك الفترة. وإذا استخدمنا مصطلحا آخر جديدا فإن القوقازيين ليسوا هم الأوروبيون فقط بل يشملون الساميين أيضا. وظهر مفهوم آخر جديد مع إثبات وجود عائلة لغوية هندـ أوروبية. ويقضي هذا المفهوم الجديد بأن ثمة عرقين لهما السيادة: الآري والسامي، ورئي أن ثمة حركة جدلية دائبة بينهما. ولقد أعطى الساميون للبشرية الدين والشعر وأعطى الآريون الرجولة والديمقراطية والفلسفة والعلم... إلخ.

ويسمح هذا في مجال الدراسات الكلاسيكية بقبول أسطورة الدور الفينيقي في اليونان القديمة، والحقيقة أن شهرتهم إنما ظهرت إلى حد ما لسد الفراغ الناجم عن غياب المصريين. ويصدق هذا بوجه خاص في إنجلترا خلال العصر الفيكتوري وقتما استهوت الناس لأسباب واضحة صورة البحارة القساة الغلاظ الذين ينشرون الحضارة بينما يجنون الأرباح من بيع القماش وقدر من تجارة العبيد. بيد أن هذه الفكرة لم تلق أي صدى واسع في أوساط الباحثين الألمان الذين حرصوا واستمسكوا بتكوين ما أسميه النموذج الآري المتطرف الذي ينفي أي افتراض يقول إن الفينيقيين والمصريين على السواء كان لأي منهما أثر مهم في تكوين الحضارة الإغريقية.

وحري بنا عند هذه النقطة أن نعود إلى مفهوم العرقين السيدين. إذ ما إن قارب القرن التاسع عشر على نهايته حتى تزايد شعور المفكرين الأوروبيين بالاستياء إزاء حجم الثقة الكبير بالساميين، وتضاعفت الجهود لإثبات أولية الإغريق في الأهمية ومن ثم الأوروبيين في مجالي الشعر والعقيدة المسيحية. وتوافق هذا بطبيعة الحال، مع تصاعد الكراهية العرقية ضد اليهودية في تعارضها مع النزعة الدينية المناهضة للسامية. ويمكن القول إن الباحثين منذ عصر النهضة على الأقل قد رأوا، عن حق، علاقة وثيقة بين الفينيقيين واليهود. وهكذا

* هنريخ شليمان Schlieman 1822 ـ 1890 ـ عالم آثار ألماني اشتهر بحفرياته في مواقع في طروادة وميسينيا (المترجم).

يمكن للمرء أن يؤكد وجود تزامن صحيح بين ذيوع صيت الفينيقيين في الدراسات الأكاديمية التاريخية ودرجة مناهضة السامية في المجتمع إجمالا. ومن ثم فقد واكب قضية دريفوس* في تسعينيات القرن 19 عدد من المقالات ذات التأثير المهول والتي تنكر وجود أي تأثير غير أوروبي في الإغريق، بيد أن النموذج الآري العام ظل باقيا على قيد الحياة حتى الأعوام 1925 ــ 1935 حينما تم وضع الساميين، اليهود منهم والفينيقيين، في مكانهم على نحو نهائي خارج الحضارة الأوروبية.

وارتبط هذا بوضوح عند أحد المستويات بالأهمية الفعلية والبارزة لليهود في الثورة الروسية وفي الشيوعية العالمية. وجاء على مستوى آخر نتيجة الثقة بالنفس لدرجة عالية. لقد كان باستطاعة الأوروبيين، حيث بقية العالم كله تحت رحمتهم، أن يروا التناقض الرئيسي تناقضا داخليا.

وتغير الموقف جذريا في عام 1945 إذ لوحظ بعد هذا العام أن النفور المعنوي من النتائج التي ترتبت على نزعة مناهضة السامية كما تبدت في المحرقة النازية، واقتران ذلك بظهور العالم الثالث، وكذلك قيام إسرائيل التي اعتبرها الغرب «المحفز الأمامي للحضارة الغربية» قد أدى هذا كله إلى التراجع السريع وقبول اليهود باعتبارهم أوروبيين، وأن الثقة بالنفس المتزايدة، وإن تجلت أكثر ما تجلت في الصهيونية وفي الإحياء الديني، أفرزت كنتاج ثانوي محاولة استهدفت استعادة دور الفينيقيين. وهكذا نشبت منذ ستينيات القرن العشرين معركة لاستعادة النموذج الآري العام. ويبدو أن مقاومة أصحاب النموذج المتطرف قد حفزها جزئيا الاطراد الأكاديمي ومقاومته للتغيير، واحترام السلطة المرجعية، وقد كان احتراما عالي القدر تماما بطبيعة الحال في هذه الدراسات. ونلاحظ من ناحية أخرى الاستجابات السريعة إزاء الضغوط الاجتماعية والسياسية من جانب اليمين الأمر الذي يوضح لنا أن النزعة المحافظة السياسية بين علماء الكلاسيكيات متورطة أيضا. وعلى الرغم من هذه المقاومة فإن دعاة النموذج الآري العام، والذي قاده أساسا باحثون يهود، موالون للصهيونية أو مناهضون لها، بدأوا يكسبون أرضا وسوف ينجحون يقينا مع نهاية هذا القرن. ولكن استعادة النموذج القديم مكان السيادة، وهو النموذج الذي أدعو له وأدافع عنه، ربما يحتاج إلى وقت أطول.

لنحاول الآن البحث على المستوى النظري في التحول من النموذج القديم إلى النموذج الآري. إن توماس كون KUHN بقدر فهمي له، لا يقدم لنا أسبابا موضوعية للتحول من

* يشير الكاتب هنا إلى قضية الرائد الفريد دريفوس Dreyfus (1859 ـ 1935) وهو ضابط فرنسي يهودي من أركان حرب الجيش الفرنسي اتهم بالخيانة وحكم عليه بالسجن ثم ثبتت براءته وأن التهمة دافعها العداء للسامية وأثارت ضجة كبرى (المترجم).

نموذج إرشادي PARADIGN إلى نموذج آخر. فالتحولات حسب رأيه هي تحولات تعسفية بدرجة أو بأخرى داخل المجتمع العلمي. وحاول لاكاتوس من ناحية أخرى أن يربط هذه التحولات بتحولات أخرى في المجتمع ككل. وحيث إنه رفض بإصرار التخلي عن مفهوم التقدم، فقد أكد أن النموذج الإرشادي الناجح لابد أن يكون له «فائض قيمة توضيحي» بمعنى أن لابد له أن يفسر لنا كل شيء أو كل شيء تقريبا سبق أن فسره لنا النموذج الإرشادي الذي بيناه فضلا عن أشياء أخرى. وقد يبدو هذا معقولا ولكن بشرط واحد مهم. ونعني به أن «فائض القيمة التوضيحي» لا يكون بالضرورة متضمنا داخل النموذج الإرشادي أو النموذج المعني وإنما أن يتمثل أيضا في فعاليته عند ربطه بنماذج إرشادية أخرى أو خارجية.

وفي حالتنا هنا التي تعنينا قد يكون من المفترض أن النموذج الآري قدم تصورا للتاريخ الإغريقي أفضل من النموذج القديم خارجيا وذلك من حيث علاقاته بالنظرة إلى العالم الذي يتبناه المؤرخون المعنيون. وليس معنى هذا بالضرورة أنه قدم لنا أي تفسير «داخلي» لنشأة اليونان. وإذا عرفنا أن غالبية الباحثين اليوم لا يجمعون على رأي واحد بالنسبة للنزعة الإثنية الرومانسية والتراتبية العرقية اللتين شكلتا الجانب الأعظم للقاعدة التي تم على أساسها رفض النموذج القديم وابتداع نموذج آري، فقد يكون من الملائم لنا أن نختبر القيم الباطنية المساعدة على كشف الحقيقة في كل من النموذجين. ولكن قبل أن أبدأ في هذا أجد واجبا عليّ أن أعترف بأن ثمة انحيازا ضد بنية أعتقد أنها وليدة حمل سفاح. بيد أنني أؤكد أن هذا وحده لا يكفي لبيان خطأ الدراسات الكلاسيكية. وسوف أسلم بداية بأن الداروينية، على سبيل المثال، نشأت في المناخ الفكري نفسه تقريبا، ومع هذا فإنها تحتفظ بقيمة باطنية كاشفة حتى يومنا هذا بعد أن رفضنا غالبية القيم التي ارتكزت عليها في نشأتها.

والعناوين الرئيسية التي ستجري المقارنة على هديها هي مايلي: أسباب ذاتية جوهرية ـ الوثائق ـ الآثار ـ اللغة ـ أسماء الأماكن الجغرافية ـ أسماء الآلهة والمقدسات ـ الأسماء في الأساطير.

أسباب ذاتية جوهرية

دعاة النموذج القديم عاشوا فيما بين 500 ق.م و500م، ومن ثم كانوا أقرب إلى الفترة المعنية من أنصار النموذج الآري الذين عاشوا بعد 1800م. وعلى الرغم من أن الأولين عاشوا أكثر من ألف عام بعد الغزو المزعوم فقد كانت المواد الأساسية المتاحة لهم وفيرة في كل من مصر وفينيقيا. وكان الوصول إليها من ناحية أخرى يجري أساسا عبر المصريين والفينيقيين الذين أرادوا على الأرجح تعظيم شأن تراثهم وتقاليدهم خاصة فيما يتعلق منها باليونان. ولم

تكن في اليونان ذاتها فترة أمية مطبقة بين العصرين البرونزي والحديدي.

وهكذا فإن بعض السجلات التي كتبها مواطنون محليون وأكملتها وثائق من مصر ومن فينيقيا وتراث شفاهي وبقايا أثرية، بل وآثار معمارية قدمت جميعها للمؤرخين اليونانيين بعد القرن الخامس معلومات مهمة وكافية عن ماضيهم.

ويبدو أن هؤلاء المؤرخين اليونانيين قد توزعت آراؤهم وانقسموا على أنفسهم في مواقفهم إزاء فكرة انتساب ثقافتهم الأولى إلى المصريين والفينيقيين، وظهر أن بعض الكتاب أثلج صدورهم أن اهتدوا إلى جذور تاريخية عميقة لثقافتهم عبر هاتين الحضارتين القديمتين. ولكن واضح من ناحية أخرى أن كثيرين لم يرق لهم القول بدونية الثقافة. الذي وضعهم فيه مثل هذا النمط التاريخي خاصة أن المصريين والفينيقيين لا يزالون حولهم في كل مكان. ولعل هذا الشعور بالاستياء يقدم لنا تفسيرا للسؤال لماذا أغفل المؤرخ ثوسيديدس Thucydides ذكر رأي عن التاريخ كان ذائعا تماما في عصره.

والملاحظ أن علماء الكلاسيكيات وعلماء التاريخ القديم خلال القرنين 19، 20 كانت معلوماتهم قاصرة ناقصة في كثير من النواحي. حقا إن علماء المصريات يمكنهم أن يقرأوا اللغة المصرية القديمة أفضل من اليونانيين الذين قصدوا مصر. إنهم لا يستطيعون بطبيعة الحال أن يقرأوها شأن الرواة المصريين المتحدثين بلغة الإغريق. فضلا عن هذا فإن المؤرخين المحدثين، على خلاف اليونانيين القدماء لا يمكنهم أن يستشعروا واقع المجتمع المصري القديم أو أن يسألوا المصريين القدماء. والجدير بالذكر أن المخطوطات الباقية والتي خلفها لنا المشرق ليست ذات أهمية بالمقارنة بالمخطوطات القديمة التي نعرف أنها كانت موجودة منذ ألفي عام مضت. حقا لقد ساعدنا علم الآثار على أن نعرف من الثقافة المادية عن مصر واليونان القديمة –وليس فينيقيا– أكثر مما عرفه أي إنسان آخر طوال 1500 سنة مضت. بيد أن هذا لا يجعلنا نتجاوز وضع القدماء أنفسهم الذين عاشوا في نهاية حقبة تميزت باستمرارية ثقافية فريدة على مدى 3000 عام.

بيد أن أنصار النموذج الآري لم يؤسسوا دعواهم بالتفوق على كم من المعلومات. إذ إن كل ما يعنيهم ليس كم المعلومات، بل الفائدة المرجوة من استخدامها. وبدا لهم، وحدهم دون سواهم، أنهم عالجوها «علميا» ومن هنا جاء مصطلح «علم العصور القديمة». وذهب بهم الظن إلى أنه مثلما تجاوزت السكك الحديدية والبواخر والبرقيات كل وسائل النقل والاتصالات السابقة، كذلك فإن نهجهم أو «منهجهم» التاريخي العلمي أو الشكي قد ارتقى بهم إلى مستوى أسمى تماما من كل المستويات السابقة خاصة ما يتعلق بالإغريق «السذج».

ذهبوا إلى أن النموذج القديم وهم وضلال تماما. ومثلما أن المؤرخين «العلميين» أسقطوا

كل إشارة إغريقية إلى كائنات خرافية مثل القنطور والسارين وغيرها من كائنات أسطورية خرقت قوانين التاريخ الطبيعي كذلك يتعين محو نظرة القدماء القائلة إن الأفارقة وسكان الشرق الأدنى هم الذين أدخلوا الحضارة إلى الإغريق وذلك لتعارضها مع «علم الأعراق» ولقد صيغ المصطلح الطبي «الهوس بالمصريات Egyptomania» في ظل هذه الروح «العلمية». وقيل إن هذا وهم وضلال أثر في اليونانيين العقلاء وغرس فيهم اعتقادا بأن مصر هي ركيزة ومحور ثقافتهم.

الوثائق!

على الرغم من أن الاتجاه الغالب هو وصف منطقة بحر إيجة في الألف الثانية ق.م. بأنها قبل التاريخ المكتوب فإنها ليست كذلك في واقع الحال. أولا وقبل كل شيء نحن نعرف أن الأكثرية، إن لم تكن جميع البلدان في هذه الحقبة كانت تعرف القراءة والكتابة. ثانيا، فإن المشرق الأدنى ومصر، وكلاهما يعرف الكتابة والقراءة تماما كانت لهما صلة بالمنطقة.

إن الوثائق الباقية الوحيدة والمفهومة في منطقة بحر إيجة هي ألواح المجموعة الخطية بي B والتي عثر عليها في كل من كريت وداخل شبه جزيرة اليونان ويرجع تاريخها إلى القرنين 14 و13 ق.م. وقد كتبت هذه الألواح بلغة يونانية تحتوي على الكثير من الكلمات السامية الدخيلة على نحو ماهو معترف به. كما تحتوي على الكثير من الكلمات المصرية القديمة. والألواح وثائق إدارية خاصة باقتصادات القصور الملكية وتشبه بصورة مذهلة ألواح المشرق ومابين النهرين. وتمتد أوجه التماثل هذه لتشمل نظام الأوزان والعبارات البيروقراطية المتطابقة. وهناك أيضا عدد من أسماء الأشخاص مثل إيكو بيتيجو Aikupitijo وميزاريجو Misarijo وهي أسماء مصرية وتوريجو Turijo أي بلدة صور (توريان أو صوري من بلدة صور) مما يدل على وجود شعب وفد من هذه الأماكن خلال العصر البرونزي في منطقة بحر إيجة. ولم نعثر لسوء الحظ على نصوص تاريخية في الخطية بي B. لذلك وعلى الرغم من أن الألواح تثبت الأثر المهم والكبير للشرق على اليونان في العصر البرونزي المتأخر فإننا لا نجد بينة تشهد على وجود مستوطنات أو غزو.

ويصدق الشيء نفسه على نصوص من المشرق. فثمة ألواح من الميناء السوري الكبير أوغاريت ترجع إلى القرنين 14 و13 ق.م. تثبت ليس فقط أن موظفي الميناء يعرفون كريت، بل إنهم أيضا يتاجرون معها.

وهناك خطاب يرجع تاريخه إلى القرن 14 ق.م مرسل من أحد ملوك صور إلى فرعون مصر. ويذكر الخطاب اسم أحد ملوك دانونا Danuna الذي كان على الأرجح يعيش في اليونان.

ولكن المصادر المصرية أكثر وفرة. إذ نجد إشارة إلى جزيرة كريت في وثيقة ربما يرجع تاريخها إلى الفترة المتوسطة الأولى في القرن 22 ق.م.

وقد تواترت الإشارات إلى بحر إيجة خلال فترة حكم الهكسوس ± 1720 – 1570ق.م. والهكسوس جماعة على الأرجح من الشماليين المتحدثين لغة سامية وغزوا مصر وحكموها طوال هذه الفترة تقريبا، واعتاد المؤرخون العودة بهذه الفترة إلى القرن الثالث ق.م. وربطها بتراث العهد القديم والإقامة في مصر. واعتادوا أيضا ربط طرد الهكسوس على أيدي المواطنين المصريين بالخروج الذي تحكي عنه التوراة، ونجد لهذه الحقبة أيضا تراثها بين الإغريق أنفسهم وهو تراث يتحدث عن مستوطنات دنانز Danaans والانتقال من مصر إلى اليونان كادموس الفينيقي Phoencian Cadmus.

بيد أن من الأمور المثيرة للاهتمام أن حكام هاو نبو Haw Nbw وهو اسم إقليم يتطابق على نحو مستساغ مع منطقة بحر إيجة، قد تحالفواكما هو ظاهر مع المصريين ضد الهكسوس، والملاحظ دائما وجود اتصال وثيق بين الإقليمين طوال نهاية حكم الهكسوس وبداية الأسرة 18 (1650 ــ 1550 ق.م) ومنذ هذا التاريخ ونحن لدينا قائمة بأسماء من Rftiw أو كريت وتشتمل القائمة على بعض الأسماء السامية وبعض أسماء من بلدة أور* وكثير من الأسماء المصرية وأسماء أخرى غير معروف منشأها. وبغض النظر عن المزيج الإثني الذي تصوره هذه القائمة إلا أنها توضح اهتمام المصريين بالجزيرة وحقهم في معرفة شؤونها. ويتجلى هذا التأكيد أكثر وضوحا بالقياس إلى الفقر الوثائقي الشديد للغاية بالنسبة لأي موضوع آخر في تلك الحقبة.

والسنوات التي شهدت أبرز الدلائل على وجود علاقات وثيقة بين مصر ومنطقة بحر إيجة هي السنوات من 1450 إلى 1320 ق.م والتي أقامت خلالها المملكة الحديثة إمبراطورية لها في المشرق.

فثمة وثائق من هذه الفترة عن بعثات وافدة من الجزر إلى مصر، وليس ثمة أدنى شك في أن المصريين رأوا في هذه العلاقة على الأقل صورة من صور السيادة لهم. ولدينا من هذه الفترة أيضا قائمة بأسماء مواقع في كريت وفي أراضي اليونان تشهد بأن معرفة المصريين بالإقليم هي معرفة تفصيلية نسبيا.

وأحرى بنا قبل أن نترك الوثائق المصرية أن نذكر أنه سوف يصدر قريبا مخطوط مهم اكتشف في ميت رهينة في ممفيس يرجع تاريخه إلى منتصف الأسرة الثانية عشرة، في أوائل القرن 19 ق.م. وتحكي هذه الوثيقة تفصيلا أنشطة فراعنة مصر عن طريق البر والبحر في المشرق وما وراءه.

---

* أور أوتل المقير جنوب العراق أو مابين النهرين من عواصم السومريين في الألف الثالث ق. م. المنجد (المترجم).

وثمة دليل أثري من مؤسسة دينية ملكية ترجع إلى هذه الفترة يشير إلى وجود اتصال غير مباشر على أقل تقدير مع منطقة بحر إيجة. وهذا من شأنه أن يزيد من الاحتمال الواقعي الذي يقضي بقيام بعثات مصرية إلى هذا الإقليم وهو احتمال مقبول عقلا ويمكن ربطه بدعوى مصرية أثبتها ديودور تقول إن كيقروبس Kekrops مؤسس أثينا قد وفد من مصر. ولقد ورد ذكر أحد الفراعنة في المخطوطة (سنوسرت الأول) إذ أثبتت المخطوطة اسمه الأول خبر كارع 'Kheper Kare أم ترى هو كاخيبر Kakhepers؟

والمخطوطة لها فضلا عن هذا نتائج واسعة المدى. أولا، أسقطت مرة و إلى الأبد الأسطورة الآرية التي تزعم أن المصريين لم يركبوا البحر على الإطلاق. وغيرت كذلك التوازن بين القيمة النسبية، للكتابات القديمة وعلم المصريات الحديث. إذ أعطت الكتابات القديمة تفاصيل الغزوات الكثيرة التي قام بها كل من سيزوستريس Sosostris وممنون Memnon اللذين يمكن القول إنهما هما ذات الفرعونين اللذين جاء ذكرهما في المخطوطة. والجدير بالذكر أن مؤرخي العصور القديمة اعتادوا خلال القرنين 19 و20 معاملة هذه الأوصاف باعتبارها باطلة بحجة أن علم المصريات لم يعثر على شواهد تؤيدها. ويبين لنا هذا إلى أي حد يمكن «العلم» أن يخطئ مثلما يبين لنا مدى الخطر الذي يمكن أن ينجم عن حجة التكتم حتى بالنسبة لبلد مثل مصر الذي أمكن الكشف عن آثاره بطريقة جيدة نسبيا.

بيد أننا لا نجد باستثناء هذا، أي بينة مصرية عن غزوات أو مستوطنات محتملة في منطقة بحر إيجة. ومن ثم، وكما تشير نصوص الخطية بي B فإن كل ما توضحه لنا الوثائق هو أنه كان هناك اتصال قوي بين اليونان القديمة ومنطقة شرق المتوسط خلال الألفية الثانية قبل الميلاد.

الآثار

تعرض كتابات بلوتارك في القرن الثاني ق.م. وصفا تفصيليا لاكتشاف تم قبل هذا التاريخ بخمسمائة عام عن موضوعات وأشياء مصرية مع نقش مكتوب في بيوتيا Boiotia في وسط اليونان. بيد أننا هنا سنحصر أنفسنا في نطاق الآثار المكتشفة حديثا. لم تعثر هذه الآثار على نقش حجري تذكاري أو غير ذلك من نقوش تسجل شيئا عن مستوطنات مصرية أو سامية. بل على العكس فقرب منتصف الألفية الثانية، وهو الوقت الذي حدده النموذج القديم بأنه زمن المستوطنات الأفرو آسيوية الرئيسية، حدثت على مايبدو قطيعة حادة في الثقافة المادية لليونان القديمة. ويبدو أن منتصف العصر البرونزي للإغريق ± 2000 ـ 1600 ق.م. كانت فترة فقيرة. ولكن في نهايتها حدث على مايبدو تحول اجتماعي مفاجئ وعنيف. وهذا ما تكشف عنه الآثار الغنية بصورة مذهلة التي تم العثور عليها في مقابر

شافت وتولوز في هذه الفترة، فالأواني الفخارية التي كانت تحويها هذه المقابر هي من الأسلوب نفسه الذي تم العثور عليه قبل ذلك مما يشير إلى قدر من الاستمرارية. غير أن المشغولات المعدنية الغنية ليس لها سابقة لدى الإغريق. وعلى الرغم من أن هذه القطع من المشغولات لها أسلوب متميز فإن ثمة أوجه شبه بينها وبين مشغولات أخرى معاصرة لها أو قبلها بقليل في سوريا ومصر وكريت. ويدل ثراء القبور في ظاهره على وجود طبقات اجتماعية. وإذا كان لخزائن القبور، وهو ما يبدو أمرا مستساغا، أن تكشف عن المهن الحقيقية أو المثالية لأصحابها فإن المجتمع الجديد مجتمع حربي في الأغلب. ذلك أن القبور زاخرة بالسهام والرماح والمدى ثم السيوف وهي سلاح جديد تم استخدامه أخيرا في جنوب غرب آسيا.

ولكن دعاة النموذج الآري عمدوا إلى تأويل هذا الدليل بإحدى وسيلتين. الأولى، أن شيوخ القبائل استوردوا سلعا شرقية وقلدوها. والثانية، أن الإغريق سافروا إلى مصر للحرب كجنود مرتزقة وعادوا بأسلحة جديدة وأساليب فنية وتقنية جديدة. ويمكن بالمثل تأويل هذا الدليل على أنه يوضح أن المقابر كانت مقابر مصرية ـ فينيقية تضم رفات الطبقة الحاكمة المحاربة من الهكسوس. وهذا في واقع الأمر هو الموقف الذي اتخذه كتاب تاريخ كمبريدج للعصور القديمة وهو الكتاب المعتمد باعتباره العمدة في مجاله. بيد أن كاتب هذا الفصل يظل داخل إطار النموذج الآري حيث يصر على أن شيوخ الهكسوس لم يكن لهم أثر باق في الثقافة الإغريقية. ونجد دعما آخر يعزز القول بوجود رابطة بين مدينة ميسيني القديمة والساميين الغربيين وهو ما يتمثل في شكل الجبانة الملكية في مدينة ميسيني وفي بيبلوس إذ تتألف من مقابر ذات أعمدة حجرية لها رؤوس شبه دائرية . ويبين من هذا كله أن الدليل الأركيولوجي إنما يدعم فحسب النموذج القديم ولا شيء آخر. بيد أن الأركيولوجيا أداة قليلة للغاية إذا شئنا منها يقينا قاطعا في هذا الصدد.

اللغة:

نجد لزاما أن نؤكد هنا أن ليس ثمة شك على الإطلاق في أن اليونانية هي أساسا لغة هند ـ أوروبية. يتضح لنا هذا من بنية ونحو اللغة: الحالة الصرفية، والنهايات الشخصية، وجوهر مفرداتها، والضمائر وحروف الجر، والأعداد، والأفعال، وأسماء الأشياء اليومية للحياة الزراعية. ولكن نجد من ناحية أخرى أن أكثر من 50٪ من معجمها المتعلق بمجالات ودلالات الألفاظ وتطورها «السيمانطيقا» والخاصة بالحياة الترفية والسياسية ـ لا الأسرية، والقانون والدين والمجردات ليست من أصول هند ـ أوروبية. ونعرف أن أكثر الأنماط شيوعا للغات الناتجة عن الغزو والاستيطان هي ما نجده في اللغات الإنجليزية والسواحلية والفيتنامية. إذ نجد هنا المواطنين يحتفظون بجوهر أو لب اللغة وإن أدخل الغزاة مفردات

الثقافة الحضرية. وقياسا على هذا التمثيل لم تكن اليونانية نتيجة غزو آري شنته قبائل قبل العصر الهلليني، بل هي إحدى الأشكال الناجمة عن احتلال مصري وفينيقي. ولكن ثمة نمطاً آخر نجده في اللغتين التركية والمجرية حيث تمثل الغزاة اللغة المصقولة لضحاياهم. بيد أن الغرباء في هذه الحالات يحتفظون بمعجمهم الخاص المتعلق بالمصطلحات العسكرية. ومن هنا فإن جميع الكلمات اليونانية تقريبا المتعلقة بالأسلحة والتنظيمات العسكرية هي كلمات ليست هند ـ أوروبية لذلك فإذا شئنا أن نؤكد القول بالنموذج الآري يكون لزاما على المرء أن يسلم بلغة مولدة لها رموزها ونماذجها الفريدة.

أعتقد أن أكثر، إن لم يكن أغلب، العناصر غير الهند ـ أوروبية في اللغة اليونانية يمكن تفسيرها على أساس مصري أو سامي غربي. ومن ثم لا حاجة بنا إلى أن نفترض مقدما أساسا قبل هلليني.

ظهرت على الساحة خلال القرون 17 و18 و19 أعداد كبيرة من المحاولات لدراسة «أثيمولوجية» أي الأصول السامية للكلمات اليونانية وتاريخها. غير أن غالبية هذه الدراسات كان مصيرها النبذ. ولم تتسن قراءة اللغة المصرية إلى مابعد إقرار النموذج الآري. ومن ثم، وباستثناء محاولة مهمة قام بها بارتليمي Barthelemy خلال القرن 18 واستخلاص الكلمات اليونانية من جذور قبطية، لن نجد أي محاولة استهدفت استكشاف الكلمات الأساسية الدخيلة التي استعادتها اليونانية من اللغة المصرية.

ولكن الكلمات الدخيلة في كلتا الحالتين تم إقرارها في مجالات دون إخلال بالنموذج الآري. وهكذا لن يعترض أحد على اشتقاق كلمة أبنوس Ebony من الكلمة المصرية «ابني hbny»، أو كلمة سمسم Sesama من الكلمة السامية الغربية «إس إس SS» والواقع أن عددا من الكلمات الترفية التي ترجع أصولها إلى اللغة السامية الغربية تم إقرارها.

وشهدت بصحة هذا النسب الآن الخطية بي B بعد أن كان الظن السائد أنها كلمات جاءت في فترة متأخرة. ومن هذه الكلمات «خيتون» Khiton وتعني ملابس، و«خريسوس Khryses» وتعني ذهب. ونجد في المقابل أصولا لغوية لكلمات أخرى مثل «بوموس bomos» وتعني: مذبح أو مكان مرتفع من الكلمة «باماه bamah» التي لها المعنى نفسه، قد تم إسقاطها دون مناقشة على الرغم من أن أحدا لم يقترح أي أصل لغوي هند ـ أوروبي لها. وأبسط تفسير لهذه المعايير المختلفة هو أن النموذج الآري المتطرف لا يتسامح مع وجود كلمات سامية دخيلة في المجالات المحورية لدلالات الألفاظ وتطورها مثل الدين. ولكن ثمة أصولا لغوية أخرى عديدة ومستساغة في المجال ذاته نذكر من هذه الكلمات كلمات مثل الرحيق أو الشراب الإلهي وهيMektar من niqtor وتعني: نبيذ مقطر أو متبخر، وهي كلمات سبق اقتراحها. ولكن ثمة كلمات أخرى لم يسبق اقتراحها مثل قدس Kudos وتعني:

مجد إلهي وتعني النقيض القذر أو البائس وهي مأخوذة من «قدس KDS» ولا ننسى المعنى. وكذلك «نايو naio» بمعنى يسكن أو يقيم، و«ناوس» naos بمعنى المقام الإلهي أو المقام المقدس «نَوَهَ Nwti» ولها المعنى العام نفسه كما أن لها مدلولات خاصة. وأيضا كلمة «سفج Sphag» من «سبك SPK» بمعنى يضحي بقطع الرقبة أو ينحر* وتبدو هذه جميعها مستساغة تماما مع عدم وجود منافس لها.

ومن أصول الكلمات التي تتزايد إقرارها الأصل المصري للكلمة اليونانية مكاريوس أو مكاري Makarios وهو «ماكرو M3khrw» بمعنى الصادق، وهي الصفة التي تطلق على الميت الذي اجتاز بنجاح الحساب الأخروي. وثمة مصطلحات قانونية مصرية أخرى تبدو معقولة بالقدر نفسه. انظر على سبيل المثال «مارتيروس Martyros من مترو Mtrw بمعنى شاهد، وكلمة «تيمار tima» الشرف في كل من مجالي الحرب والقانون مأخوذة عن أصل مصري «تيما Tem3» وتعني «سبب كونه عادلا» وبالمثل أورتوس Orthos بمعنى مستقيم عموديا وهي مأخوذة على مايبدو من «وات W3t» وهي ثقل الفادن أو حبل البناء المستخدم في التخطيط المعماري (الألف التي تشبه النسر والتي تأخذ هنا شكل 3 تشبه حرف r في المصرية في العصرين القديم والوسيط).

ونجد في السياسة فروقا صارخة بين الجزر الهند - أوروبية لكلمة مثل «ريج reg» بمعنى يحكم أو بمعنى ملك والتي نجدها في «راجا Ragah» وفي الكلمة الإيرلندية «ركس Rex» وبين الكلمتين اليونانيتين «أناكس Wanax» وباسليوس basileus والأولى مشتقة على مايظهر من العبارة المصرية القديمة «عنخ جت nh Dt» وتعني «عاش إلى الأبد»، وتستخدم بعد ذكر أسماء الفراعنة الأحياء. وعزز هذا الأصل اللغوي بمشتقات من الجزر الإغريقي لبعض مظاهر الشذوذ الواضحة مثل «التابوت المقدس» و«الماء الحي أو المتدفق»، وتستخدم في الحالتين الكلمة المصرية «عنخ nh» بمعنى الحياة.

وكان الأمير basileus في الإغريقية القديمة تابع للملك W)anax). وكلمة «بازر P3 sr» في المصرية القديمة تعني في الأصل «الموظف الرسمي» ثم أصبحت كلمة موظف تعني وزير. ونجدها مترجمة مع تحوير إلى اللغة الأكادية في صورة بازيا-را Pasia-ra. وإذا عرفنا أن المصرية المتأخرة لم تكن تمايز بين حرفي بي P وهـ h، وغالبا ما كان الحرفان المصريان رس rs يكتبان آي i في الإغريقية لن نجد صعوبة صوتية في التطابق الدلالي.

وكذلك كلمة «سوفيا Sophia» بمعنى الحكمة لن نجد لها أصلا هند - أوروبي مقبولا. ولكن الأوفق أنها مشتقة من الكلمة المصرية القديمة «سبا Sb3» بمعنى «يعلم — تعليم»

---

* والكلمة العربية سفح وسفك وذبح وهي كلمات سامية - المترجم.

ونعرف أن الحرف المصري القديم بي b يقلب أحيانا في الإغريقية ليصبح ف ph مثلما هي الحال في اسم الربة «نت خت Nbt ht» التي تصبح نفتيس naphthys. ومن ثم لا وجه للاعتراض من الناحية الصوتية على الأصل اللغوي الذي يتطابق تماما مع التراث القديم الذي يرى أن «سوفيا Sophia» وافدة من مصر.

ننتقل الآن إلى الأسلحة: من المقبول بوجه عام اشتقاق الكلمة الإغريقية «سيفوس Xi-phos» بمعنى السيف من الكلمة المصرية «سفت SFT» التي لها المعنى نفسه. كذلك من المقبول القول إن مرادفها Phasganos مشتق من الكلمة السامية «بسج Psg» بمعنى شق أو قطع. وهاتان الكلمتان لهما أهمية خاصة لأنهما تشيران إلى أحد الأسلحة الحديثة في الفترة الخاصة بقبر شافت. وأدى السيف أيضا دورا محوريا في الأساطير باعتباره السلاح السحري لهزيمة الأبطال على نحو ما حدث مع كل من برسيوس Perseus وتيسيوس The-seus اللذين انعقد لهما لواء النصر دائما على أعدائهما. وتمثل العربة ذات العجلات إنجازا عسكريا آخر في تلك الفترة. والكلمة اليونانية الدالة عليها هي «هارما Harma». ويبدو أنها مأخوذة عن حبال الأشرعة نظرا لوجود عدد كبير من الكلمات ذات الصلة من حيث المجال الدلالي للفظ: «شبكة، حبل، يخيط» وهذه المجموعة كلها يمكن على نحو مستساغ اشتقاقها من الجزر الأفريقي الآسيوي «حرم HRM» الذي له المعنى نفسه، ونجده في اللغة السامية وفي اللغة المصرية على السواء.

وهذا ليس إلا قليل جدا من بين مئات الأمثلة لكلمات إغريقية لها أصول مصرية وسامية، وغالبيتها العظمى ليس لها بديل هند ـ أوروبي. وإذا نظرنا إليها كميا نجد أنها، على مايبدو، تؤلف نسبة كافية من العناصر غير الهند ـ أوروبية في اللغة الإغريقية.

ويسمح لنا هذا بأن نرفض الأساس الافتراضي الذي يعزو هذا كله إلى عصر قبل الحقبة الهللينية. ويصبح لزاما أن نبدله بأساس مصري وفينيقي وهو ما يقتضي بالضرورة العودة إلى النموذج القديم.

أسماء الأماكن الجغرافية

قليل جدا من أسماء الأماكن اليونانية التي يمكن تفسيرها في ضوء اللغة الهند ـ أوروبية. ويعزوها أصحاب النزعة الآرية إلى حقبة ماقبل الهللينية. ويؤكدون أهمية مجموعتين تنتهيان بالنهايتين SOS وnthos اللتين تحتفظان في رأيهما بأساس مشترك مع زوائد أخرى في اللغتين الإيطالية والأناضولية*

بيد أن الموقف ليس بهذه البساطة حيث إن هذه النهايات الملحقة بالكلمات نجدها في نهاية

* الأناضولية لغة من أصل هند ـ أوروبي ولكنها انقرضت ـ المترجم.

جذور الكلمات الأوروبية والسامية مما يبين أن بعضها وإن كان قديما إلا أنه لا يمكن اتخاذه مؤشرا على الانتساب إلى الحقبة الهللينية.

وثمة بعض الشك أيضا فيما إذا كانت المجموعات لها أصول واحدة. وليس معنى هذا إنكار مظاهر تشابه في أسماء الأماكن بين اليونان والأناضول. وهذا هو ما يمكن تفسيره في إطار النموذج القديم المنقح بإحدى وسيلتين، الأولى، الأساس الهند ـــ حيثي المشترك الذي يفترضه النموذج، والثاني، القول إن المنطقتين تلقيتا معا ثقافة فينيقية مصرية. وهكذا نجد على سبيل المثال أسماء أماكن مصرية خالصة مثل أبيدوس Abydos وسينوب Sinapo على الساحل الشمالي لتركيا الآن.

ونجد عددا كبيرا جدا من أسماء الأماكن اليونانية لها، وعلى نحو مستساغ، أصولا سامية ومصرية. مثال ذلك اسم نهر «ياردانوس jardanos» نجده في كريت وفي جزر البليبونيز. وهذا الاسم، كما رأى أكثر الباحثين مشتق بوضوح من «ياردان Jardan» أو «جوردان jor-dan» وكذلك الاسم «أنيجروس Anigros» مأخوذ كما هو واضح عن جزر «سامي »(ن) جر GR (N) بمعنى يتدفق أو ينبجس ويأتي في غالب الأحيان بمعنى «واحة» أو «نهر في الصحراء» في جميع أنحاء جنوب غرب آسيا وفي شمال أفريقيا خاصة بالنسبة لنهر النيجر. وتشتمل الأسماء المصرية على كلمة «فينوس P(h)eneus» من «بانوي Panwy» بمعنى ماء أو فيضان. وكثيرا ما تشير الأساطير المتعلقة بهذه الأماكن اليونانية إلى الفيضانات. مثال آخر خاص بأكثر أسماء الأنهار اليونانية شيوعا وهو كيفيسوس Képhisos. وهذا الاسم كما هو واضح مأخوذ عن اسم مكان مصري قبح أو بمعنى رقبة Kbh بمعنى نبع عذب بارد، أو منبع نهر مع إضافة النهاية «سوسSos».

وكذلك أسماء الجبال لها أصول أفريقية آسيوية. فنحن نجد الجذر «سام Sam» في أسماء الجبال في جميع أنحاء اليونان مثل ساموس Samos وساميكون Samikon وساموتراس Samothrace وجميعها تقريبا مشتقة يقينا من الكلمة السامية «شام Sam» بمعنى سام أو سماء*. والكثير من أسماء المدن المرتفعة مثل «هرميون Hermione» مشتقة من الكلمة السامية الغربية «حرمن HRMN بمعنى «الجبل المقدس». ونجدها شائعة في منطقة المشرق خاصة اسم جيل حرمون**

ويظهر الاسم كذلك في جنوب غرب آسيا دون حرف ن في نهايته. ويوجد في أتيك باليونان

---

*وفي العربية أيضا شما وشمخ ـ المترجم.

** ويسمى أيضا جبل الشيخ ويطلق على القسم الجنوبي من سلسلة جبال لبنان الشرقية على الحدود السورية. ويشرف على وادي القرن وفلسطين وحوران ووادي التيم. وورد ذكره باسم حرمون في التوراة ـ المورد ـ المترجم.

جبل مقدس اسمه هارما. وإذا عرفنا أن الأسماء الهند - أوروبية نادرة في جزيرة كريت فإنه يبدو واضحا أن جبل «إيدا ida» ليس مشتقا على الأرجح من الاسم اليوناني «إيدي Ide» بمعنى خشب، وإنما الأقرب إلى الصواب أنه مشتق من الاسم السامي «إيد y'd» بمعنى يد. وتدرك أن هذه هي الطريقة التي كانوا يفهمون بها الاسم إذا عرفنا القرائن التي تقترن باسم الجبل وباسم جبل آخر له الاسم نفسه قرب طروادة إذ يقال ذو الأصابع الخمسة «5 -Dav tyloi».

ويبدو أن أسماء الجبال التي من أصل مصري أقل شيوعا وإن كان اسم جبل «بليون Pe-lion» قد يكون مشتقا من «بارو P3 rw» بمعنى الأسد. وهناك جبل «سايتا Saita» في أركاديا الذي أخذ اسمه، حسبما هو مفترض، من اسم المدينة المصرية سايس. ولكن الأسماء المصرية تغلب على المدن. وكثيرا ما احتج البعض مؤكدا أن طيبة اليونانية أخذت اسمها عن الكلمة الكنعانية «طيباه Tebah» وتعني فلك أو صدر.

وربما يكون هذا أحد العناصر في تشكيل الاسم، ولكن الشيء الأكثر جوهرية فيه مأخوذ على الأرجح من جذر الكلمة المصرية «جبا db3» بمعنى صور و«جبات db3t» بمعنى قصر. ومن حيث إنه اسم مكان فإن الاسم «جبا db3» أطلق على مدن كثيرة من المحتمل أن من بينها عاصمة الهكسوس والمعروفة أيضا باسم أورايس. وإذا تصورنا أن الإغريق فهموا الاسم باعتباره اسما عاما «للعاصمة المصرية» فقد يفسر لنا هذا استخدامهم اسم طيبة للعاصمة المصرية خلال فترة لاحقة في الصعيد والتي لم يسمها المصريون أنفسهم «جبا db3».

ونجد ضروبا مختلفة لاسم أسبرطة Sparta حيث يطلق على مواقع كثيرة داخل وخارج اليونان. ويبدو أنها مأخوذة عن الاسم المصري «سباط Spat» بمعنى ولاية أو مقاطعة أو عاصمة المقاطعة، وتتأكد لنا العلاقة مع أسبرطة البيبليوزينية عن طريق التوازي بين سباط Spat المصرية التي يشبهونها بصورة ابن آوى رمز الإله أنوبيس وعقيدة أسبرطة التي تؤمن بالكلاب وعبادة هرميس المعادل الإغريقي للإله أنوبيس. وعادة ما يلخصون هذا باسم «ليكي دايمون Lake daimon» بمعنى «الروح المولول» والتي قد تكون نقلا عن اسم المكان المصري «كا انبو K3 inpow» أو كانوبوس Canopus أي روح أنوبيس.

كذلك فإن الاسم أثينا Athena، والاسم أثينز Athens اسمان مصريان كما هو واضح. وحسب رأي أفلاطون وكثيرين من الكتاب الإغريق ثمة رابطة وثيقة تجمع بين المدينة الإغريقية ومدينة سايس المصرية على الحدود الغربية والمتاخمة لليبيا في الدلتا. لقد ارتبط البلدان ببعضهما نظرا للاعتقاد السائد آنذاك بأن إلهة واحدة هي التي أسستها وهي الإلهة نيث (Neit) المصرية والإلهة أثينا في اليونان القديمة.

والإلهتان متشابهتان ليس فقط في العصور الكلاسيكية، ولكنهما أيضا متشابهتان في الأيقونات التي تصورهما إذ ترتبطان بصورة درع لكل منهما على هيئة 8 في الألف الرابعة قبل الميلاد في مصر، وفي الألف الثانية ق.م في كريت ومسينيا، وفي الألف الأول ق.م في أثينا اليونانية.

وكانت جميع أسماء المدن المصرية لها أسماء دنيوية وأخرى دينية في وقت واحد. مثال ذلك بلدة سايس اسمها الديني «حت نت Ht Nt» بمعنى بيت أو معبد الربة نت، ونلاحظ في أماكن مصرية أخرى أن حت Ht تتحول إلى أت ـ أو آت ـ في اللغتين القبطية واليونانية. وقد يفسر لنا هذا نشأة المقطع الأول من الاسم أثيناي Athenai. وربما جاء الثاني من إضافة الحرف المتحرك A P إلى أول الكلمة نث. وهذا ما تشير إليه أسماء آلهة مماثلة «عنات Anat» وعنايتيس Anaitis التي عثر عليها في المشرق وفي إيران. وإدغام حرف العلة في نت Neit يوازيه ماحدث عند كتابة أثينايAthenaie في أدب هوميروس. واختفت النهاية Ts في اللغتين المصرية والإغريقية. ومن ثم نجد أن اسم المدينة مثال جيد للمطابقة الصوتية وللدلالة اللفظية وتطورهما. وهناك شهادة قديمة على هذا أيضا. ذلك أن خاراكس البرجماني prarox of pergamon كتب في القرن الثاني الميلادي يقول: «إن مدينة سايس عند المصريين يقال لها أثينا».

ويتضح لنا هذا بجلاء إذا ما طابقنا بين «حت نت Ht Nt» وأثيناي. إذ دون هذا يغدو الكلام رطانا بلا معنى.

والقول إن الإغريق استخدموا الاسم ذاته للربة ولمدينتها إنما يتسق تماما مع عادة المصريين في مخاطبة الآلهة والمقدسات أو الإشارة إليهم من خلال مقاماتهم حيث يقيمون. والمثال النموذجي الكلاسيكي لهذا هو اسم فرعون المأخوذ من «برعا Prص3» بمعنى «البيت العظيم أو القصر».

ومثال آخر هو «بر وجيت Pr Wdyt» بمعنى بيت وجيت إلهة الخضرة والخصب والثعابين. وقد ظهرت هذه في منطقة الدلتا أثناء الفيضان. وثمة مخطوطة مصرية عثر عليها في كريت تذكر عبادة وجيت Wdyt»، كما أن هناك عديدا من التماثيل الصغيرة لإلهة جميلة تمسك الثعابين بيديها. معنى هذا أنه من المقبول عقلا وعلى أساس شواهد لغوية وكذا الأيقونات أن نربط وجيت dyt بإلهة الثعابين «مينون Minoan» وأفروديت، ولن نجد صعوبة في القول إن أفروديت مشتقة من برو جيت Pr wdyt.

وقد اعتاد المصريون دائما البدء بمتحرك قبل السواكن الاستهلالية.

وكثيرا ما تتحول «و W» إلى «أو O» في الكلمات الدخيلة في اليونانية. ولنتأمل كمثال

اشتقاق الكلمة اليونانية «بونتوس Pontos» بمعنى «المحيط البعيد والأرض التي وراءه» ونقارنها بالكلمة المصرية «بونت Pwnt» وتعني «الأرض البعيدة التي نصل إليها بالبحر». وكذلك اسم الإله أوزيريس المأخوذ من وزير Wsir.

وعلى العكس من كلمة أثينا Athéné التي ليس لها أصل في اللغة الهند ــ أوروبية نجد أفروديت. إذ يقال إن لها أصلا في هذه اللغة، ولكنه قول مردود وغير مستساغ البتة. إذ يقال إن الجزء الأول من اسمها مشتق من «أفروس Aphros» بمعنى «الزبد» والمأخوذة هي نفسها من الكلمة الكنعانية «أبار سي par» بمعنى الغبار ــ ولكنه قول لا يفسر الكثير. وإذا تأملنا الأساطير التي تحكي ميلادها من زبد البحر سيتضح بجلاء مدى زيف الأصل اللغوي المزعوم.

ربة أخرى من أرباب الإغريق مصرية الاسم على نحو مستساغ تماما وهي الربة «حيكات Hekate» وصورتها عجوز سحرية شمطاء ذات اهتمام بالخصب. ونجد في مجمع أو هيكل الأرباب المصريين الربة «حكت HKT» وهي امرأة عجوز في صورة ضفدعة ومقترنة بالسحر «حَقَا HKA» والبعث في توالد جديد بعد الموت والتي ارتبطت بشكل ما، حسب ما كان شائعا، بالخصوبة الفريدة للضفدعة، والاحتفاظ بالحرف ت t الأخير، بينما سقط من اسم الإلهة نيت ليس حجة على أي منهما. فالاستعارات المتبادلة بين اللغات لا يمكن تعقب آثارها بدقة العلاقات الوراثية للجينيات نفسها. وهكذا فبينما نجد الأحرف الاستهلالية في «أنت Thau» هي «دي du» و«تي Tu» واليونانية «سو su» تتبع نظاما عاما معروفا للتحولات الصوتية فإن الاستعارات من اللغات يمكن أن تتولد عنها أشكال كثيرة جدا وتكون جميعها مأخوذة عن جزر واحد. ولنتأمل على سبيل المثال الكلمة الإنجليزية «كانتاتا Cantata» وتعني قصة غنائية وكذلك الكلمتين «شانت Chant» بمعنى أغنية أو أنشودة و«شانتي Shanty» بمعنى نشيد البحارة وهما من جذر روماني «كانت Cant».

وحري بنا أن نوازن بين الأصول اللغوية لأسماء ثلاثة أرباب وبين اسم إله ذكر. إن الكلمة Ares هي كلمة هند ـ أوروبية بمعنى «نبيل». واستخدمت هكذا للدلالة على عديد من الآلهة والإله المعروف الآن بهذا الاسم كان يسمى «إنياليوس Enyalios» أو إنيو Enyo» في الخطية بي B وعند هوميروس. وكان إله الحرب عند المصريين يدعى «إن حرت in Hrt» وانتقل بعد ذلك في اليونانية باسم «أونوريس Onuris». ولن نجد صعوبة تذكر من الناحية الصوتية في هذا الاشتقاق حسبما ذكرنا آنفا عن الخلط بين آر / آي r/i.

وكثيرا ما يقال عند اقتراح هذه الأصول اللغوية أن مصادفات التوافق كثيرة، وأن المرء بإمكانه أن يجد بالمثل تشابهات كثيرة بين أي لغتين. بيد أنني أرفض هذا الدفع على مستويين. أولا، أنني لم أستطع البتة أن أكتشف أوجه تشابه مماثلة بين اليونانية ولغات من

شرق آسيا أو لغة البانتو. وليس ثمة ما يدعو إلى أن تكون اللغات الأخرى من مناطق نائية واعدة أكثر من غيرها. وحتى لو قبلنا هذا جدلا فثمة فارق كبير وحاسم بين وضع تناظرات وتماثلات بين لغة الجونكين Algonquin* واللغة اليونانية على الرغم من بعد المسافات الفاصلة بينهما زمانا ومكانا، وبين كشف أوجه التماثل بين اللغتين المصرية واليونانية. ففي حالتنا الأخيرة ليس الأمر قاصرا على التجاور الزماني والجغرافي وإنما ثمة تقارير واسعة الانتشار أكيدة المضمون عن صلات ثقافية وثيقة بينهما.

أما عن أسماء الآلهة فإن هيرودوت يقرر بوضوح لا مزيد عليه أن: «أسماء جميع الآلهة تقريبا جاءت إلى اليونان من مصر». هذا الإقرار من هيرودوت لم يصادف أي معارضة أو تحد في الزمن القديم. ويجب أن نؤكد، فضلا عن هذا، أن أسماء هند ـ أوروبية هي لإلهين فقط: هستيا Hestis وزيوس Zeus، بل إن الاسم الأخير تحيط به مشكلات من ناحية علم الأصوات في اللغويات.

ويقدم لنا هيرودوت في كتابه الثاني تفاصيل عن تشابهات عقائدية كثيرة بين النظام الديني المصري والنظام الديني الأغريقي، ويقرر صراحة أن الرابطة بينهما وثيقة وأن النظام الديني المصري أقدم كثيرا فلابد لهذه الأسباب أن تكون مصر هي المنشأ لهم جميعا. ومن الأهمية بمكان ملاحظة أن جميع كتب هيرودوت في جامعة أكسفورد مسموح بالاطلاع عليها فيما عدا الكتاب الثاني المشار إليه هنا. وليس الموقف في جامعة كمبريدج بهذا القدر من السفور وإنما تم إسقاط الكتاب الثاني مع بعض الكتب الأخرى.

وثمة أوجه تماثل تفصيلية كثيرة داخل منظومة الأساطير المصرية والكنعانية والإغريقية. مثال ذلك أن أسماء البعض من أشهر أبطال الإغريق تفتقر إلى جذور هند ـ أوروبية ولكن لها جذورا واضحة ومقبولة عقلا سامية ومصرية، ولقد برهن الأستاذ أستور على أن الاسم بلليروفون Bellerophon** مأخوذ من بعل لارافون Baa Lraphon «إله الشفاء من الأمراض». وحسب التراث الإغريقي فإن ممنون هو فرعون مصري وأيضا فاتح أثيوبي امتدت فتوحاته حتى الأناضول. ولكن في ضوء مخطوطات ميت رهينة أصبح واضحا الآن أن الصواب هو اشتقاق اسمه من أمنمحات imn m ht وهو اسم عديد من فراعنة الأسرة الثانية عشرة. ويشار إلى أحدهم باعتبار أنه قاد غزوات تجاه الشمال. وإذا اعتبرنا هذا الاسم الذي يطلق على غاز كبير شأنه شأن اسم قيصر أو شارلمان إنما هو لقب ملكي، فإن هذا سوف يفسر لنا اسم أجاممنون Agamemnon حيث أجا تعني العظيم ومن ثم يكون الاسم هو ممنون الأعظم أو الأكبر.

---

* من لغات قبائل هنود أمريكا الشماليين ـ المترجم.

** بطل كورنيثي في اليونان استطاع من فوق جواده المجنح أن يقتل برمحه الوحش الخرافي ـ المترجم.

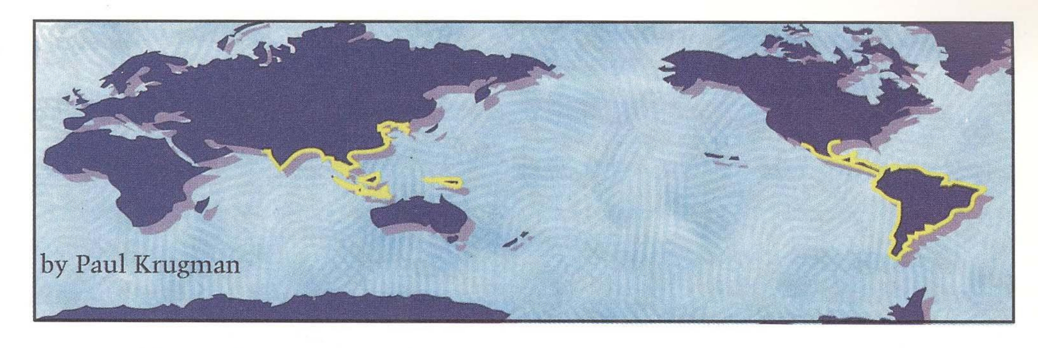
وعلى الرغم من الصورة الشائعة عن أخيل أنه بطل آري عظيم، فإنه من المتعذر تفسير اسمه في ضوء لغة هند ـ أوروبية. ذلك أن أول مكونات اسمه هو ذلك الاستهلال ذو الطابع السامي الذي تكرر كثيرا جدا: «أهي ـ Ahi» بمعنى «أخي يكون...» ونجدها في أخيرام Ahi-ram... إلخ. والمكون الثاني من الاسم أكثر غموضا. والملاحظ أن الاسمين الآخرين لهذا البطل وهما بليوس Peleus وبلياديس Peliades مشتقان من الاسم المصري بارو Pa rw بمعنى الأسد. ويتسق هذا تماما مع التناظرات الكثيرة التي رآها هوميروس بين الطبل والحيوان. ويحدث أحيانا التفرقة بين بيليوس وأخيل فيقال إنه أبوه. ويفسر لنا هذا اللاحقة الدالة على النسب في الاسم a/Ides. وهذه اللاحقة ليس لها جذر هند ـ أوروبي ويتعين القول إنها مأخوذة عن الكلمة المصرية إد id بمعنى طفل أو ابن.

وهكذا يبين لنا أن الإلهيات والأساطير، شأن أسماء الأماكن الجغرافية، تمثل برهانا يدعم بصورة ماحقة غلبة النموذج القديم على النموذج الآري. صفوة القول في ضوء المعايير السبعة المستخدمة للمقارنة بين النموذجين أن ثلاثة منها وهي الأسباب الذاتية الجوهرية، والوثائق، والشواهد الأثرية تنزع إلى إيثار النموذج القديم، أما المعايير الأخرى وهي اللغة، وأسماء الأماكن الجغرافية والإلهيات والأساطير فإنها تدعم هذا النموذج القديم دعما مطلقا.

وسوف نناقش في دراسة قادمة التطبيقات الأخرى للنموذج الآري في مجالات تأريخ الأصول التي نشأت عنها السياسة والعلم والفلسفة في اليونان القديمة وهي الدراسة التي تنتهي بنا إلى نتائج مماثلة.

وقد يسأل سائل عن علاقة هذه المشكلة التأريخية المبهمة بعصرنا الراهن. ما حاجتنا إلى إثارة زوبعة في الدراسات الكلاسيكية وما تحمله من غوامض وأسرار لا ضرر منها؟ وإجابتي عن هذا أسوقها على مستويين: الأول، أنني أؤمن بأن من الأهمية بمكان منهجيا مهاجمة الثقافة الرومانسية التي تؤالف بين النزعتين الرومانسية والوصفية. إذ ترى أن ما لا يثبت بشأنه برهان فهو بعيد عن بحثه داخل العقل. وهذا قول مضلل مرتين ذلك لأنه يضفي صورة مبالغا فيها وأحيانا يضفي توقيرا خاطئا لما يصفه بأنه «يقيني» ومن ثم يستخدمه للحيلولة دون أي تقييم مثمر على أساس من المعقولية.

ثانيا، أن الثقافة الرومانسية استثمرت هذه التقنية المزدوجة لترسيخ أسطورة تزعم عزلة أوروبا عن بقية العالم وتفوقها عليه، وهو زعم خاطىء ومضلل تاريخيا، وضار وخبيث سياسيا.



هل يهدد نمو العالم الثالث رخاء العالم الأول وازدهاره؟

على عكس ما يراه الكثيرون، فإن التنمية الاقتصادية في العالم الثالث لا تهدد العالم الأول

تأليف: بول كروجمان*

ترجمة: د. شعبان عبدالعزيز عفيفي

حتى عهد قريب كان أكثر كتابنا الاقتصاديين تأثيرا يحذرون من أن أعظم خطر يتهدد ازدهار الولايات المتحدة هو المنافسة من دول متقدمة أخرى. وأبسط مثال على ذلك هو أن نطالع العنوان الفرعي للكتاب الأكثر رواجا عام 1992 والذي أصدره «ليستر ثورو» ويحمل عنوان «المواجهة: المعركة الاقتصادية بين اليابان وأوروبا وأمريكا». ولكن خلال السنة الأخيرة أو نحو ذلك فإن الدول التي من المفترض أنها تنافسنا اقتصاديا بدأت تظهر أضعف بكثير مما كانت عليه: فالاقتصاد الياباني والاقتصاد الألماني يعانيان وطأة الكساد الشديد، وقد تراجع حجم صادراتهما بسبب ارتفاع قيمة عملاتهما. كما أنهكت الضائقة الاقتصادية مؤسسات سوق العمل بهما بعد أن كانت موضع فخارهما.

العنوان الأصلي للمقال:
Does Third World Growth Hurt First World Prosperity ? , Harvard Business Review., July - August 1994.

مراجعة: د. عدنان الحموي

*أستاذ الاقتصاد في جامعة ستانفورد في بالو ألتو، كاليفورنيا، وأحدث مؤلفاته بعنوان نشر الرخاء المعقول واللامعقول في الاقتصاد في عصر الآمال المتضائلة» (نورثون 1994)

ومقارنة مع هذا الوضع فإن اقتصاد الولايات المتحدة يبدو قويا، وإن لم يكن في حالة ازدهار كامل.

ولكن حتى وإن كان كثير من الكتاب الاقتصاديين ومديري الشركات لم يعودوا يهتمون بالمعركة الدائرة بين الولايات المتحدة واليابان والتي بالغت وسائل الإعلام في الحديث عنها فإنهم يلمحون معركة جديدة تبدو في الأفق ـــ بين الاقتصاديات المتقدمة والاقتصاديات النامية في العالم الثالث. وهناك تناقض شديد بين أداء الدول المتقدمة خلال العشرين سنة الأخيرة ونجاحات عدد متزايد من الدول النامية، فالنمو الاقتصادي السريع الذي بدأ لأول مرة لدى عدد قليل من الدول الآسيوية الصغيرة في الستينات، قد امتد ليشمل مساحة واسعة من شرقي آسيا ـــ ليس فقط دول جنوب شرقي آسيا الغنية نسبيا كماليزيا وتايلاند، بل شمل أيضا اثنتين من الدول الفقيرة والمزدحمة بالسكان هما أندونيسيا والصين. وهناك ما يدل على حدوث نمو سريع مماثل في تشيلي وربما في شمال المكسيك، وبعض مراكز التنمية السريعة، مثل مجمع إنتاج برامج الحاسوب في بنكالور بدأت تظهر حتى في الهند.

وكان من المتوقع أن يرحب الجميع بهذا التغيير الذي طرأ على الساحة الدولية وأن ينظروا إلى هذا التحسن السريع في مستويات معيشة مئات الألوف من البشر، الذين كان الكثيرون منهم في السابق يعانون فقرا مدقعا، على أنه تقدم - وفرصة تجارية غير مسبوقة. وبدلا من أن يشعر الكثيرون من ذوي النفوذ في الغرب بالرضا والارتياح من التنمية الاقتصادية العالمية فإنهم ينظرون إلى النمو الاقتصادي في العالم الثالث على أنه تهديد لهم.

وتتمثل هذه المخاوف الجديدة في رسالة قام بتوزيعها في أوائل هذا العام كلاوس شواب رئيس (المنتدى الاقتصادي الدولي) World Economic Forum الذي يستضيف مؤتمرات (دافوس) Davos الشهيرة. وقد طلب شواب إلى عدد كبير من الأشخاص المشاركة في كتابة تقرير كلف إعداده من قبل الأمين العام للأمم المتحدة بطرس غالي تحت عنوان «تحديد جديد للافتراضات الأساسية للبشرية». Redefining The Basic Assumptions of Mankind ولكي يوضح شواب ما كان يدور في ذهنه من أفكار فقد قدم مثالا للتعريف الجديد إذ قال إن العالم كان من الناحية التقليدية مقسما إلى دول غنية ذات إنتاجية عالية وأجور مرتفعة، ودول فقيرة ذات إنتاجية متدنية وأجور منخفضة، إلا أن بعض الدول الآن تجمع بين الإنتاجية العالية والأجور المنخفضة. ويرى شواب أن الوجود المتزايد لهذه الدول في الأسواق العالمية يؤدي إلى حدوث «عملية ضخمة لإعادة توزيع الأصول المنتجة»، الأمر الذي يجعل من المستحيل بالنسبة للدول المتقدمة أن تحافظ على مستويات المعيشة فيها، وبمعنى آخر، فإن المنافسة من الاقتصاديات النامية في العالم الثالث أصبحت أحد الأخطار، إن لم تكن الخطر الوحيد الذي يهدد اقتصاديات العالم الأول.

ولا ينفرد شواب بهذه الآراء وحده، فهناك شخصية لا تقل عنه احتراما وتأثيرا تشاركه الآراء نفسها، وهو جاك ديلور، رئيس المفوضية الأوروبية. فالكتاب الأبيض للمفوضية الأوروبية عن المشكلات الاقتصادية الأوروبية وهي «النمو والمنافسة والعمالة» الذي انتظر العالم صدوره بلهفة، صدر أخيرا في 12/ 1993. وقد وردت فيه أربعة أسباب للاتجاه التصاعدي المستمر في معدلات البطالة في أوروبا. وحسبما جاء في هذا التقرير، فإن أهم عامل هو ظهور دول «تنافسنا - حتى في أسواقنا - بمستويات تكلفة لا يمكننا أن نضاهيها على الإطلاق»، وهذا هو الحديث المتداول في أوروبا عن المنافسة من قبل العالم الثالث.

ومثل هذه الآراء هي أقل انتشارا في الولايات المتحدة. وعلى الرغم من أن إدارة الرئيس كلينتون تميل إلى تحديد المشكلات الاقتصادية على أساس المنافسة، فإنها ركزت كل جهودها على مواجهة الدول المتقدمة كاليابان. فالتقرير الاقتصادي للرئيس لعام 1994 يرى أن الواردات من

الاقتصاد العالمي هو نظام - أو نسيج من العلاقات المتشابكة - وليس سلسلة بسيطة من التأثيرات في اتجاه واحد.

العالم الثالث لا تشكل ضغطا كبيرا على سوق العمل بالولايات المتحدة، على الأقل حتى الآن. إلا أن بعض الاقتصاديين مثل (روبرت كوتنر) بمجلة (بيزنس ويك Business Week وخبراء مراكز الأبحاث مثل (معهد السياسات الاقتصادية) Economic Policy Institute، يواصلون التحذير من الخطر الذي يتهدد مستويات المعيشة بالولايات المتحدة بسبب الواردات من الدول ذات الأجور المتدنية. وقد خصصت مجلة (رؤساء الشركات/ الاستراتيجيات العالمية) CEO International Strategies عدد 12/ 1993 - 1/ 1994



لموضوع «تحديد جديد للاقتصاد العالمي». وقد اشتمل هذا العدد ليس على مقال واحد، بل على ثلاثة مقالات، عن التهديد من منافسة الدول النامية ذات الأجور المتدنية. وفي استطلاع للرأي غيررسمي أجري على عدد من غير الاقتصاديين، أظهرت نتائج هذا الاستطلاع أن معظمهم ـ ومن بينهم من يعتبرون أنفسهم على دراية واسعة بالشؤون الاقتصادية ـ يرون أن المنافسة من قبل العالم الثالث هي مصدر رئيسي للمشكلات الاقتصادية الراهنة بالولايات المتحدة، ويعتبرون ذلك حقيقة مؤكدة.

إلا أن المخاوف من التأثير الاقتصادي لمنافسة العالم الثالث ليس لها في واقع الأمر ما يبررها. فالنمو الاقتصادي في الدول ذات الأجور المتدنية يمكن، من حيث المبدأ، أن يرفع أو يخفض متوسط دخل الفرد في الدول ذات الأجور المرتفعة، إلا أن الآثار الفعلية لذلك كانت لا تذكر. وهناك من الناحية النظرية بعض الأسباب للقلق من احتمال تأثير منافسة العالم الثالث في توزيع (وليس على مستوى) الدخل في الغرب، ولكن ليست هناك في الواقع العملي دلالات كثيرة تبرر هذا القلق، على الأقل حتى الآن.

وإني أتساءل: كيف يقع مثل هؤلاء الأشخاص المحنكين في مثل هذا الخطأ؟ (وكيف أتأكد تماما من أنهم مخطئون؟). ولكي نتفهم هذا التهديد المزعوم من العالم الثالث علينا أن نبدأ بمناقشة موجزة للاقتصاد العالمي.

تفكير في الاقتصاد العالمي

إن الفكرة بأن منافسة العالم الثالث تهدد مستويات المعيشة في الدول المتقدمة تبدو بسيطة وصريحة. ولنفرض أن شخصا ما تعلم أن يعمل شيئا كنت أنا الوحيد الذي أنفرد بعمله. ربما لا يكون هذا الشخص متقنا للعمل مثلي ولكنه على استعداد لأدائه مقابل جزء من الأجر الذي أتقاضاه. أليس من الواضح أنني في هذه الحال إما أن أقبل بمستوى أدنى من المعيشة أو أتعطل عن العمل؟ وهذا في واقع الأمر هو رأي أولئك الذين يتخوفون من أن معدلات الأجور في الغرب ستنخفض حتما مع تزايد نمو العالم الثالث.

إلا أن هذه الفكرة مضللة للغاية، فعندما ترتفع إنتاجية العالم (كما يحدث عندما تقترب إنتاجية دول العالم الثالث من إنتاجية دول العالم الأول) فإن متوسط مستويات المعيشة سيرتفع بالضرورة. وفي نهاية الأمر فإن المخرجات (الإنتاج) الفائضة يجب أن تتجه إلى مكان ما. وهذا في حد ذاته يفترض بأن زيادة إنتاجية العالم الثالث ستؤدي إلى ارتفاع الأجور فيه وليس إلى تدني الدخول في العالم الأول.

ولننظر إلى هذه المسألة من زاوية أخرى: فالمنتجون والمستهلكون في أي اقتصاد وطني هم الأشخاص أنفسهم، والمنافسون الأجانب، الذين يخفضون الأسعار قد يخفضون الأجر الذي أتقاضاه، إلا أنهم أيضا يزيدون القوة

الشرائية لقيمة دخلي وليس هناك ما يدعو لأن نتوقع حدوث آثار ضارة لذلك.

إن الاقتصاد العالمي هو نظام ـ نسيج معقد من العلاقات المتشابكة ـ وليس سلسلة بسيطة من التأثيرات في اتجاه واحد. وحركة الأجور والأسعار والتجارة في هذا النظام الاقتصادي العالمي هي نتائج وليست حقائق مسلما بها. وإن أية تصورات (سيناريوهات) بديهية ومقنعة وتعتمد على خبرة مكتسبة من الممارسة التجارية اليومية، قد تضللنا إلى حد كبير عما يحدث لهذا النظام عندما تتغير العوامل (الوسطاء)، سواء كانت هذه العوامل سياسات حكومية كالتعريفات الجمركية والضرائب أو عوامل غامضة كإنتاجية العامل في الصين.

وكما يعلم أي شخص درس نظاما معقدا ما، سواء كان هذا النظام حالة الطقس في العالم أو أشكال التعريفات الجمركية في لوس أنجلوس أو تدفق المواد في أية عملية صناعية، فإنه من الضروري وضع نموذج لفهم كيفية عمل هذا النظام. والخطوات المعتادة في هذه الحالة هي أن نبدأ بنموذج مبسط للغاية، ثم نجعله واقعيا بالتدريج. ومن خلال هذه السيرورة نستطيع أن نتفهم النظام الفعلي بشكل أعمق.

وفي هذا المقال سأتبع هذه الخطوات وذلك للنظر في أثر الاقتصاديات النامية في الأجور والوظائف في العالم المتقدم. وسأبدأ برسم صورة مبالغ في تبسيطها وغير واقعية عن الاقتصاد العالمي ثم أضيف بالتدريج بعض العناصر الواقعية، كما سأضيف بعض المعلومات في كل مرحلة، وآمل في النهاية أن أكون قد أوضحت أن الرأي الذي يبدو في ظاهره نابعا من العلم والخبرة والقائل إن العالم الثالث هو السبب وراء مشكلات العالم الأول هو رأي مشكوك فيه لأسباب فكرية ومستبعد تماما في ضوء المعلومات المتوافرة.

النموذج الأول: عالم ينتج سلعة واحدة ويستخدم مدخلا واحدا:

لنتخيل عالما خاليا من تعقيدات الاقتصاد العالمي، وهذا العالم ينتج سلعة واحدة تصلح لجميع الأغراض ـ ولتكن مثلا (شيبات) Chips الحاسوب وذلك باستخدام مدخل واحد، وهو العمالة. إن جميع الدول تنتج شيبات، إلا أن العمالة أكثر إنتاجية في بعض الدول عماهي عليه في البعض الآخر. ونحن إذ نتخيل مثل هذا العالم، فإننا نسقط من حسابنا عاملين جوهريين فيما يتعلق بالاقتصادالعالمي الفعلي، الأول: أن هذا الاقتصاد ينتج مئات الآلاف من السلع والخدمات المختلفة، والعامل الثاني: أنه في إنتاج هذه السلع والخدمات تستخدم عدة مدخلات من بينها الرأسمال المادي و«الرأسمال البشري» الذي هو نتاج التربية والتعليم.

ما الذي يحدد الأجور ومستويات المعيشة في مثل هذا العالم المبسط؟ في غياب الرأسمال أو عدم التمييز بين العمالة

الماهرة وغير الماهرة، فإن العمال يستهلكون ماينتجون. ومعنى ذلك أن الأجر السنوي الحقيقي بحساب الشيبيات في كل دولة يساوي عدد الشيبيات التي أنتجها كل عامل في السنة ـ أي إنتاجيته. ونظرا لأن الشيبيات هي السلعة الوحيدة المستهلكة وهي أيضا السلعة الوحيدة المنتجة، فإن دليل الأسعار للمستهلك لن يشتمل إلا على شيبيات. كما أن معدلات الأجور الحقيقية في كل دولة من واقع دليل الأسعار المستهلك تكون مساوية أيضا لإنتاجية العمالة في كل دولة.

وماذا عن الأجور النسبية؟ إن إمكان نقل السلع إلى أي مكان تكون فيه الأسعار مرتفعة سيجعل أسعار الشيبيات واحدة في جميع الدول. وهكذا فإن معدل أجور العمال الذين ينتجون عشرة آلاف من الشيبيات في السنة سيكون عشرة أمثال معدل أجور العمال الذين ينتجون ألفا منها حتى وإن كان هؤلاء العمال في دول مختلفة. والنسبة بين معدلات أجور العمال في دولتين ستكون إذن مساوية للنسبة بين إنتاجيتي العمالة في كل منهما.

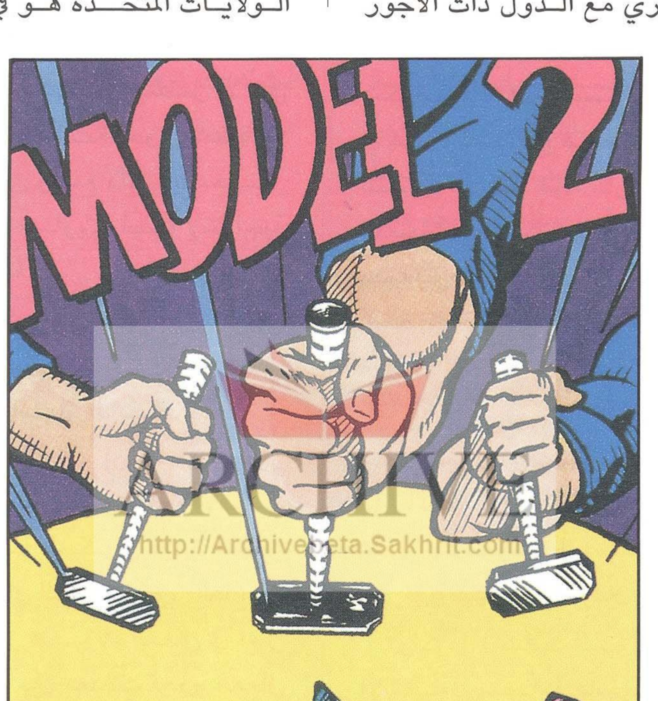
وما الذي سيحدث لو أن الدول التي كانت إنتاجيتها في الماضي منخفضة، وبالتالي كانت الأجور فيها متدنية، تمر الآن بمرحلة ترتفع فيها إنتاجيتها؟ هذه الاقتصاديات النامية ستنتظر إلى معدلات الأجور فيها على أساس الزيادة في الشيبيات، ليس إلا. ولن يكون هناك أثر إيجابي أو سلبي في معدلات الأجور في الدول الأخرى ذات الأجور المرتفعة أصلا. والمعدل الحقيقي للأجور بكل دولة يساوي الإنتاجية المحلية من حيث الشيبيات، ولن يتغير هذا الوضع مهما حدث في مناطق أخرى من العالم.

ما وجه الخطأ في هذا النموذج؟ إنه مفرط في التبسيط لحدّ السخافة، ولكن بأي شكل يضللنا هذا التبسيط؟ إن أول مشكلة في هذا النموذج هي أنه لا يدع مجالا للتجارة الدولية: فإذا كان الجميع ينتجون الشيبيات، فلن يكون ثمة داع لاستيرادها أو تصديرها. (يبدو أن هذه المسألة لا تقلق أصحاب النظريات التي تهتم بالمنافسة مثل (L. ثورو). والفكرة الرئيسية لثورو كما عبر عنها في كتابه (المواجهة) هي أنه بما أن الدول المتقدمة تنتج الأشياء نفسها فإن المنافسة الشريفة التي كانت قائمة في الماضي قد تحولت إلى منافسة حادة يجب أن يفوز فيها أحد الطرفين.

ولكن إذا كانت الدول المتقدمة تنتج الأشياء نفسها، فلماذا إذن يبيعون مثل هذا الكمّ لبعضهم البعض؟ وإذا كان التعامل التجاري القائم بالفعل بين الدول يعني أن نموذجنا المبسط لا يمكن أن يكون في حد ذاته صحيحا، إلا أنه يثير تساؤلا حول الحجم الفعلي للتجارة بين الدول المتقدمة والعالم الثالث. وحقيقة الأمر أن هذا الحجم صغير بصورة تدعو إلى الدهشة على الرغم من تأكيد أهمية التجارة في العالم الثالث في بعض الوثائق مثل كتاب دولور الأبيض. ففي عام 1990 أنفقت

الدول الصناعية المتقدمة 1,2٪ فقط من إجمالي ناتجها المحلي مجتمعة على وارداتها من المنتجات الصناعية من الدول الصناعية الجديدة. والواقع أن النموذج الذي لا تجد الدول المتقدمة فيه ضرورة للتعامل التجاري مع الدول ذات الأجور المنخفضة يبدو من الواضح أنه غير دقيق تماما، فإنه في الوقت نفسه صحيح بنسبة تتجاوز الـ 98٪.

وهناك مشكلة أخرى في هذا النموذج وهي أنه دون رأسمال لا يمكن أن تكون هناك استثمارات دولية. وسنعود إلى هذه النقطة ثانية عندما ندخل الرأسمال في النموذج، إلا أنه يجدر بنا أن نذكر أن أكثر من 70٪ من الدخل القومي في اقتصاد الولايات المتحدة ناتج عن العمالة وأقل من 30٪ ناتج عن الرأسمال، وظلت هذه النسبة ثابتة جدا طوال العشرين سنة الأخيرة. ومن الواضح أن العمالة ليست المدخل الوحيد في إنتاج السلع، ولكن الرأي القائل بأن المعدل الحقيقي للأجور يساير تقريبا الدخل بالنسبة لكل عامل، وبأن ماهو في صالح الولايات المتحدة هو في صالح عمال الولايات المتحدة والعكس بالعكس، هو رأي صحيح على وجه التقريب.



وهناك رأي أخير قد يزعج بعض القراء، وهو أن الأجور ترتفع تلقائيا مع زيادة الإنتاجية. فهل هذا شيء واقعي؟ الجواب: نعم، فليس في التاريخ الاقتصادي أي مثال على دولة مرت بمرحلة طويلة من زيادة الإنتاجية دون أن يقابلها زيادة مماثلة تقريبا في الأجور الحقيقية. وعندما كانت إنتاجية أوروبا في الخمسينات أقل من نصف إنتاجية الولايات المتحدة، فإن الأجور في

أوروبا كانت كذلك نصف الأجور في الولايات المتحدة، أما الآن فإن متوسط الأجور محسوبا بالدولار هو تقريبا الشيء نفسه. وعندما صعدت اليابان سلم الإنتاجية خلال الثلاثين عاما الأخيرة، فإن الأجور فيها ارتفعت أيضا، من 10٪ إلى 110٪ من مستوى الأجور بالولايات المتحدة. كما ارتفعت الأجور في كوريا الجنوبية بصورة مذهلة عبر السنين. والواقع أن كثيرا من الاقتصاديين الكوريين يشعرون بالقلق من أن الأجور قد ارتفعت أكثر مما يجب. ويبدو أن العمالة الكورية الآن أغلى ثمنا من أن تنافس في مجال إنتاج السلع التي لا تتطلب تقانة عالية، دولا دخلت حديثا في هذا المجال كالصين وإندونيسيا، وأغلى ثمنا كذلك من أن تعوض عن تدني الإنتاجية ونوعية المنتجات في صناعات مثل السيارات.

وليس هناك أساس قائم على الخبرة العملية يدعم الفكرة القائلة إن القواعد القديمة لم تعد تنطبق، وبأن الدول التي ظهرت حديثا على الساحة الاقتصادية الدولية ستظل على الدوام تدفع أجورا منخفضة حتى لو ارتفعت إنتاجيتها لتصل إلى مستويات الدول المتقدمة. (يحاول بعض الكتاب الاقتصاديين تفنيد هذا الرأي بإشارتهم إلى دول معينة لا تساوي الأجور النسبية فيها الإنتاجية النسبية. فعمال صناعة القمصان في بنجلاديش على سبيل المثال، والذين تكاد إنتاجيتهم تصل إلى نصف إنتاجية العاملين في الصناعة نفسها بالولايات المتحدة، يتقاضون أجورا تقل كثيرا عن نصف معدل الأجور بالولايات المتحدة. ولكن كما سنرى عندما ننتقل إلى النموذج ذي المنتجات المتعددة، فإن هذا هو بالضبط ما تتنبأ بحدوثه النظريات الاقتصادية المتعارف عليها).

وقد يبدو هذا المثال الخاص بسلعة واحدة ومدخل واحد مثالا تافها، إلا أنه يجعلنا نلاحظ نقطتين جوهريتين، الأولى هي أن أية زيادة في إنتاجية العمالة في العالم الثالث تعني زيادة في حجم الإنتاج (المخرجات) العالمي وأن أية زيادة في حجم الإنتاج العالمي ستنعكس بالضرورة على شكل زيادة في دخل شخص ما. وهذا هو مايحدث بالفعل: فزيادة حجم الإنتاج تنعكس على شكل ارتفاع في أجور العمال بالعالم الثالث. والنقطة الثانية هي أنه مهما كانت استنتاجاتنا عن تأثير زيادة إنتاجية العالم الثالث في اقتصاديات العالم الأول، فإن هذا التأثير لن يكون في نهاية الأمر سيئا بالضرورة. وأبسط مثال يدل على أنه لن يكون هناك أي تأثير على الإطلاق.

النموذج الثاني: منتجات متعددة ومدخل واحد:

في العالم الحقيقي تتخصص الدول بالطبع في إنتاج عدد محدود من السلع، والتجارة الدولية هي في الوقت نفسه سبب ونتيجة لهذا التخصص. والتجارة في المنتجات الصناعية بصفة خاصة بين العالم الأول والعالم الثالث تتمثل إلى حد

كبير في تبادل المنتجات ذات التقانة العالية والمتطورة كالطائرات والحواسيب الصغيرة مقابل السلع كثيفة العمالة كالملابس. وفي عالم تنتج الدول فيه سلعا مختلفة، فإن زيادة الإنتاجية في أي جزء من هذا العالم إما تفيد أو تضر بقية أجزائه.

ليس هذا موضوعا جديدا بحال من الأحوال. ففي الفترة الممتدة من نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى قيام الحرب الكورية شهدت كثير من الدول سلسلة من المشكلات في موازين مدفوعاتها، الأمر الذي أدى إلى تصور وجود مشكلة عالمية في «نقص الدولار». ففي الفترة المذكورة، اعتقد كثير من الأوروبيين أن مشكلتهم الحقيقية سببها المنافسة الحادة لاقتصاد الولايات المتحدة ذي الإنتاجية العالية.

زيادة الإنتاجية في أي جزء من هذا العالم إما تفيد أو تضر باقي أجزاء العالم.

ولكن هل كان اقتصاد الولايات المتحدة يلحق ضررا حقيقيا ببقية العالم؟ أو بصورة عامة، هل زيادة الإنتاجية في دولة ما تزيد أو تقلل من الدخول الحقيقية في دولة أخرى؟ لقد دلت نتائج عدد كبير من الدراسات النظرية والبحوث الميدانية على أن أثر زيادة الإنتاجية في الخارج في رفاهية الشعوب في الداخل يمكن أن يكون إيجابيا أو سلبيا، وهذا يتوقف على ميل أو اتجاه زيادة الإنتاجية - أي على القطاعات التي تحدث فيها هذه الزيادة!

ويقدم لنا (A. W لويس)، الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد عام 1979 تقديرا لبحوثه في التنمية الاقتصادية، مثالا بارعا يبين أن تأثير زيادة الإنتاجية بالدول النامية في الأجور الحقيقية بالدول المتقدمة يمكن أن يكون مفيدا أو ضارا. وفي النموذج الذي يقدمه لويس ينقسم العالم إلى منطقتين يطلق عليهما الشمال والجنوب. والاقتصاد العالمي لا يُنتج نوعا واحدا بل ثلاثة أنواع من السلع وهي ذات تقانة عالية، ومتوسطة، ومنخفضة. ولكن كما هي الحال في نموذجنا الأول، فإن العمالة هنا لا تزال هي مدخل الإنتاج الوحيد. والعمالة في الشمال أكثر إنتاجية من العمالة في الجنوب في كل نوع من أنواع السلع الثلاث، إلا أن الميزة التي تتمتع بها الإنتاجية في السلع ذات التقانة العالية كبيرة، وهذه الميزة متوسطة في السلع ذات التقانة المتوسطة، وصغيرة في السلع ذات التقانة المنخفضة.

وماذا عن نمط الأجور والإنتاج في مثل هذا العالم؟ إن النتيجة المتوقعة هي أن السلع ذات التقانة العالية ستنتج في الشمال فقط، والسلع ذات التقانة المنخفضة ستنتج في الجنوب فقط، بينما سيجري إنتاج بعض السلع ذات التقانة المتوسطة على الأقل في كلتا المنطقتين: (إذا كان الطلب العالمي على المنتجات ذات التقانة العالية كبيرا جدا، فإن الشمال قد ينتج

فقط هذه السلع، وأما إذا كان الطلب على المنتجات ذات التقانة المنخفضة كبيرا، فإن الجنوب قد يتخصص أيضا في إنتاجها. ولكن ستكون هناك حالات عديدة تنتج كلا المنطقتين فيها سلعا ذات تقانة متوسطة).

إن المنافسة كفيلة بجعل نسبة معدلات الأجور بالشمال إلى معدلاتها بالجنوب مساوية لنسبة الإنتاجية بالشمال إلى نسبتها بالجنوب، وذلك في القطاع الذي يقف فيه العمال في كلتا المنطقتين وجها لوجه، ألا وهو التقانة المتوسطة. وفي هذه الحال، لن يكون للعمال في الشمال قدرة تنافسية في السلع ذات التقانة المنخفضة على الرغم من ارتفاع إنتاجيتهم، لأن معدلات أجورهم تكون مرتفعة أكثر من اللازم. وعلى العكس من ذلك، فإن معدلات الأجور المتدنية في الجنوب لا تكفي للتعويض عن تدني الإنتاجية بالسلع ذات التقانة العالية.

وسأقدم مثالا عدديا لتوضيح ذلك: لنفرض أن إنتاجية العمالة في الشمال هي عشرة أمثالها في الجنوب في التقانة العالية وخمسة أمثالها في التقانة المتوسطة ولكنها ضعفها فقط في التقانة المنخفضة، وإذا أنتجت كل من دول الشمال والجنوب سلعا ذات تقانة متوسطة، فإن الأجور في الشمال ستكون خمسة أمثالها في الجنوب. وإذا وضعنا نسبة الأجور هذه في الاعتبار، فإن تكلفة العمالة في الجنوب في إنتاج السلع ذات التقانة المنخفضة ستكون فقط ثلثي تكلفتها في الجنوب في هذا القطاع على الرغم من أن العمالة في الشمال أكثر إنتاجية. وعلى العكس من ذلك، فإن تكلفة العمالة في إنتاج السلع ذات التقانة العالية ستكون ضعفها في الجنوب.

ويجب أن نلاحظ في هذا المثال أن عمال الجنوب الذين ينتجون سلعا ذات تقانة منخفضة لا يتقاضون إلا خمس ما يتقاضاه عمال الشمال من أجور على الرغم من أن إنتاجيتهم هي نصف إنتاجية عمال الشمال في الصناعة نفسها. ويعتقد كثير من الأشخاص، ومنهم من يعتبرون أنفسهم خبراء في التجارة الدولية، أن مثل هذا التفاوت يبين أن النماذج الاقتصادية التقليدية لا تصلح. وهذا في الواقع هو بالضبط ما يتنبأ به التحليل الاقتصادي: فما لم يكن متوسط تكلفة إنتاج الوحدة بالدول ذات الأجور المنخفضة أقل منه في الصناعات التصديرية في الدول ذات الأجور العالية، فإنها ستعجز عن التصدير.

لنفترض أن هناك زيادة في إنتاجية الجنوب، فماذا سيكون أثر هذه الزيادة؟ إن ذلك سيتوقف على القطاع الذي تحدث فيه زيادة في الإنتاجية. فإذا حدثت الزيادة في إنتاج السلع ذات التقانة المنخفضة، وهو القطاع الذي لا ينافس العمالة في الشمال، فلن يكون ثمة سبب يدعونا لأن نتوقع تغييرا في الأجور في الشمال بالنسبة إلى الأجور في الجنوب. فالعمالة في الجنوب ستنتج السلع ذات التقانة المنخفضة بتكلفة أقل بكثير، كما أن انخفاض سعر هذه

السلع سيعمل على رفع الأجور الحقيقية في الجنوب. أما إذا زادت إنتاجية الجنوب في قطاع التقانة المتوسطة التنافسي، فإن الأجور الحقيقية في الجنوب سترتفع. وبما أن الإنتاجية لم ترتفع في إنتاج السلع ذات التقانة المنخفضة، فإن أسعارها سترتفع وستعمل على خفض الأجور الحقيقية في الشمال.

لكن ما الذي يحدث لو أن إنتاجية الجنوب ارتفعت بالمعدل نفسه في كل من التقانتين المنخفضة والمتوسطة؟ سيرتفع معدل الأجور النسبية، إلا أن تأثر هذه الزيادة سيزول بسبب زيادة الإنتاجية. فأسعار السلع ذات التقانة المنخفضة من حيث العمالة في الشمال لن تتغير، ولذلك فإن الأجور الحقيقية لعمال الشمال هي الأخرى لن تتغير. وبمعنى آخر، فإن زيادة الإنتاجية في كافة قطاعات الإنتاج في الجنوب في هذا النموذج المتعدد المنتجات، له التأثير نفسه في مستويات المعيشة في الشمال مثل تأثير زيادة الإنتاجية في النموذج (الأول) ذي السلعة الواحدة: أي لا تأثير له على الإطلاق.

يبدو إذن أن تأثير نمو العالم الثالث في العالم الأول، والذي كان شبه معدوم في مثالنا المبسط، لا يمكن التنبؤ به إذا جعلنا هذا المثال أكثر واقعية، إلا أن هناك نقطتين جديرتين بالملاحظة: النقطة الأولى هي أن الطريقة التي يمكن من خلالها للعالم الثالث أن يلحق الضرر بالعالم الأول مختلفة جدا عن الطريقة الواردة في خطاب شواب أو كتاب ديلور. فنمو العالم الثالث لا يضر بالعالم الأول لكون الأجور في العالم الثالث متدنية، وإنما لأن هذه الأجور سترتفع نتيجة هذا النمو، وبذا ترتفع أسعار

الصادرات إلى الدول المتقدمة. أي أن الولايات المتحدة يمكن أن تتهدد عندما يتحسن مستوى كوريا الجنوبية في إنتاج السيارات، وليس ذلك لأن الولايات المتحدة ستفقد سوق السيارات ولكن لأن ارتفاع أجور العمال في كوريا الجنوبية يترتب عليه أن يدفع المستهلكون في الولايات المتحدة أسعارا أعلى لشراء «البيجامات» ولعب الأطفال التي كانوا من قبل يشترونها من كوريا الجنوبية.

والنقطة الثانية هي أن هذا الأثر الضار المحتمل يجب أن ينعكس في الإحصائيات الاقتصادية المتوافرة وهي (معدل التبادل التجاري) terms of trade، أي نسبة أسعار الصادرات إلى أسعار الواردات، فعلى سبيل المثال لو اضطرت الشركات الأمريكية إلى بيع سلع بأسعار أقل في الأسواق العالمية بسبب المنافسة الأجنبية أو إلى دفع أسعار أعلى للواردات بسبب المنافسة في المواد الخام أو انخفاض قيمة الدولار، فسيكون نتيجة ذلك انخفاض الأجور الحقيقية في الولايات المتحدة.

على الرغم من العدد المحدود من «العقول المهاجرة» من الجنوب إلى الشمال، فإن معظم العمالة لا تتحرك دوليا

ونظرا لأن الصادرات والواردات تشكل نحو 15٪ من إجمالي الناتج القومي فإن كل انخفاض بنسبة 15٪ من معدل التبادل التجاري للولايات المتحدة سينتج عنه انخفاض بنسبة 1٪ تقريبا من الأجور الحقيقية فيها. والضرر الذي يحتمل أن يلحق باقتصاديات الدول المتقدمة بسبب نمو العالم الثالث يكمن في إمكان تراجع معدل التبادل التجاري للدول المتقدمة. إلا أن ذلك لم يحدث. فبين عامي 1982 و1992 تحسن معدل التبادل التجاري لاقتصاديات الدول المتقدمة بالفعل بنسبة 12٪، وقد نتج ذلك إلى حد كبير عن انخفاض الأسعار الحقيقية للنفط.

وخلاصة القول إن نموذج المنتجات المتعددة يوفر إمكانات أكثر من نموذج السلعة الواحدة الذي بدأنا به، إلا أنه يؤدي إلى النتيجة نفسها، وهي أن زيادة الإنتاجية في العالم الثالث تؤدي إلى زيادة الأجور فيه.

النموذج الثالث: الرأسمال والاستثمارات الدولية:

هيا بنا نقترب خطوة من الواقع ونضيف مدخلا جديدا إلى نموذجنا. ما الذي سيحدث لو تخيلنا عالما يتطلب الإنتاج فيه رأسمال وعمالة معا؟ فمن وجهة نظر عالمية هناك فرق كبير واحد بين العمالة ورأس المال، وهو درجة (الحركية) Mobility الدولية. وعلى الرغم من أن الهجرة الدولية على نطاق واسع كانت إحدى القوى الرئيسية في الاقتصاد العالمي قبل عام 1920، فإن كافة الدول المتقدمة وضعت منذ ذلك الحين قيودا قانونية

صارمة على الهجرة لأسباب اقتصادية. وهناك عدد محدود من حالات تدفق الأفراد ذوي الكفاءات والمهارات العالية من الجنوب إلى الشمال ــ وهو ما يطلق عليه المصطلح المشهور «هجرة العقول» وعدد أكبر بعض الشيء من حالات الهجرة غير المشروعة. إلا أن معظم العمالة لا تتحرك دوليا. وعلى النقيض من ذلك فإن الاستثمار الدولي هو أحد المؤثرات الملموسة والمتنامية في الاقتصاد العالمي. وفي أواخر السبعينات قدمت الكثير من البنوك بالدول المتقدمة قروضا كبيرة لدول العالم الثالث، إلا أن هذا السيل من القروض توقف في الثمانينات، وهو العقد الذي شهد أزمة الديون، لكن التدفقات الرأسمالية الكبيرة عادت من جديد مع حالة الرواج التي تشهدها الأسواق النامية منذ بداية التسعينات.

ويتركز الكثير من المخاوف من نمو العالم الثالث على تدفقات رؤوس الأموال، وليس على التجارة. والخوف الذي عبر عنه شواب بقوله إنه «ستكون هناك عملية ضخمة لإعادة توزيع الأصول المنتجة» ربما يقصد به الاستثمار في العالم الثالث. والتقديرات الشهيرة لمعهد السياسات الاقتصادية والتي تتنبأ بأن «نافتا» NAFTA ستؤدي إلى فقدان الولايات المتحدة خمسمائة ألف وظيفة، قد وضعت على أساس سيناريو افتراض كامل حول تغيير مسار استثمارات الولايات المتحدة. وحتى وزير العمل الأمريكي (R. ريتش) صرح في مؤتمر القمة الذي عقد في مدينة ديترويت في مايو 1994 لبحث موضوع الوظائف، بأن مشكلات العمالة في اقتصاديات الدول الغربية تعود إلى حركية رأس المال. ويبدو أنه كان في الواقع يؤكد أن رأسمال العالم الأول لا يوفر الآن للعالم الثالث سوى فرص عمل فقط.. ولكن هل لهذه المخاوف مايبررها؟

إن أقصر إجابة عن هذا السؤال هي «نعم» من ناحية المبدأ و«لا» من الناحية العملية. فالنظريات الواردة بالمراجع الاقتصادية التقليدية تقول إن التدفقات الدولية لرؤوس الأموال من الشمال إلى الجنوب قد تعمل على تخفيض الأجور في الشمال، إلا أن التدفقات الفعلية منذ عام 1990 هي أقل بكثير من أن تكون لها هذه الآثار المدمرة التي يتصورها الكثيرون.

ولكي نفهم كيف يمكن أن تسبب تدفقات الاستثمارات الدولية مشكلات للعمالة في الدولة المتقدمة يجب أن ندرك أولا أن إنتاجية العمالة تتوقف جزئيا على حجم رأس المال الذي تتعامل فيه هذه العمالة. وتدل نتائج البحول الميدانية أن نصيب رأس المال في الإنتاج المحلي ثابت جدا. ولكن إذا كانت العمالة تتعامل في رأسمال أقل فإن الإنتاجية، وبالتالي معدلات الأجور الحقيقية، ستنخفض.

لنفرض إذن أن دول العالم الثالث أكثر من دول العالم الأول جذبا للمستثمرين من العالم الأول. وقد يحدث ذلك بسبب

تغير في الظروف السياسية، الأمر الذي يجعل هذه الاستثمارات أكثر أمانا، أو لأن نقل التقانة (التكنولوجيا) يرفع من الإنتاجية الكامنة لعمال العالم الثالث (إذا توافر لهم رأسمال كاف). فهل سيضر ذلك بعمال العالم الأول؟ وبالطبع نعم. فرأس المال الذي يُصدّر إلى العالم الثالث هو رأس مال غير مستثمر محليا، ولذلك فإن استثمارات الشمال في الجنوب معناها انخفاض الإنتاجية والأجور في الشمال. ومن المفترض أن المستثمرين من الشمال سيحصلون على عائد أكبر من هذه الاستثمارات مما لو كانت مستثمرة محليا، ولكن ذلك قد لا يرضي العمال.

إلا أننا قبل أن نقفز إلى نتيجة مفادها أن تنمية العالم الثالث تتحقق على حساب العالم الأول يجب ألا نسأل فقط عما إذا كان الضرر الاقتصادي سيقع أصلا، بل يجب أن نسأل عن حجم هذا الضرر من الناحية العملية.

ما حجم رأس المال الذي تم تصديره من الدول المتقدمة إلى الدول النامية؟ خلال الثمانينات لم تكن هناك في الأساس استثمارات صافية للشمال في الجنوب - إذ إن قيمة فوائد القروض وأقساط الديون كانت باستمرار أكبر من الاستثمارات الجديدة. وجميع الاستثمارات قد بدأت إذن منذ عام 1990. وفي عام 1993، الذي يمثل عام الذروة بالنسبة للاستثمارات في الأسواق النامية حتى الآن، بلغ إجمالي تدفقات رؤوس الأموال من الدول المتقدمة مجتمعة إلى الدول الصناعية الجديدة نحو 155 بليون دولار.

وقد يبدو هذا الرقم كبيرا جدا، إلا أنه ليس كذلك إذا ما قورن باقتصاد العالم الأول، إذ بلغ إجمالي الناتج القومي لدول أمريكا الشمالية وغرب أوروبا واليابان مجتمعة أكثر من 18 تريليون (مليون مليون) دولار، كما بلغت قيمة استثماراتها مجتمعة أكثر من 3,5 تريليونات دولار، على حين بلغت قيمة أرصدة رؤوس الأموال فيها مجتمعة 60 تريليون دولار. وتدفقات رؤوس الأموال التي بلغت رقما قياسيا عام 1993 لم تحول إلى الخارج إلا 3٪ من استثمارات العالم الأول، ولم تخفض النمو في إجمالي رصيد رأس المال إلا بنسبة 0,2٪ والرواج الذي شهدته الاستثمارات في الأسواق النامية منذ 1990 لم يخفض في مجموعه إجمالي رصيد رأس المال في الدول المتقدمة إلا بنسبة 0,5٪ تقريبا عما كان من الممكن أن يكون عليه.

وما حجم الضغط الذي نتج عن ذلك على الأجور في الدول المتقدمة؟ إن تخفيض إجمالي رصيد رأس المال بنسبة 1٪ يخفض الإنتاجية بنسبة أقل من 1٪ إذ إن رأس المال ماهو إلا واحد فقط من المدخلات. وتشير التقديرات القياسية إلى أن هذا الرقم يبلغ نسبة 0,3٪ ولذلك فإن الحسابات غير الرسمية تدل على أن تدفقات رأس المال إلى العالم الثالث منذ 1990 (مع مراعاة عدم حدوث أية تدفقات رأسمالية أساسا خلال الثمانينات) لم تخفض الأجور

الحقيقية في العالم المتقدم إلا بنسبة 0,15٪، وهي نسبة لا تذكر مقارنة بالأثر المدمر الذي افترض وقوعه كل من شواب وديلور ومعهد السياسات الاقتصادية.

وهناك طريقة أخرى يمكن أن نتناول بها هذه النقطة. فأي شيء يبعد رأس المال عن استثماره في الأنشطة التجارية بالدول المتقدمة تكون نتيجته خفض الأجور في العالم الأول. بيد أن الاستثمارات في العالم الثالث لم تصل إلى حجم كبير إلا في السنوات القليلة الأخيرة. وفي الوقت نفسه حدث تحول هائل في الاستثمارات التي أخذت تصب في اتجاه واحد، وهو عجز الموازنة الذي تعاني منه الولايات المتحدة وغيرها من الدول. وقد بلغ إجمالي العجز الذي تعاني منه الولايات المتحدة وحدها أكثر من 3 تريليونات دولار على هيئة ديون فيدرالية، أي أكثر من عشرة أمثال قيمة استثمارات الدول المتقدمة مجتمعة في الاقتصاديات النامية. وتصدير رأس المال إلى العالم الثالث هو موضع اهتمام كبير، لأنه غير عادي، لكن المبالغ المستثمرة فيه تعتبر بسيطة إذا ما قورنت بالعجز في الموازنات المحلية.

عند هذه النقطة قد يعترض بعض القراء على ذلك على أساس أنه لا يمكن مقارنة الرقمين. فالمدخرات التي يمتصها العجز في الموازنة سرعان ما تختفي، بينما تعمل الاستثمارات في الخارج على إنشاء المصانع التي تنتج سلعا ثم تنافس منتجاتها. وقد يبدو من المعقول أن الاستثمارات الخارجية هي أكثر ضررا من عجز الموازنات، إلا أن هذا تصور خاطىء؛ فالاستثمار في دول العالم الثالث يزيد من إنتاجية هذه الدول. وقد رأينا في المثالين الأولين أن زيادة إنتاجية العالم الثالث في حد ذاتها لا يحتمل أن تخفض مستويات المعيشة في العالم الأول.

والرأي السائد لدى كثير من المسؤولين والمتبحرين في هذا الموضوع هو أننا نعيش في عالم يتحرك فيه رأس المال بصورة عجيبة وأن هذه الحركية قد غيرت كل شيء، إلا أن رأس المال ليست له مثل هذه الخاصية في الحركة، كما أن تحركات رأس المال التي شهدناها حتى الآن لم تغير إلا القليل، على الأقل بالنسبة للدول المتقدمة.

النموذج الرابع: توزيع الدخل

يبدو أننا قد توصلنا إلى نتيجة مفادها أن النمو في العالم الثالث ليست له تقريبا أية تأثيرات ضارة في العالم الأول. ولكن هناك قضية أخرى يلزم أن نتناولها، وهي تأثيرات نمو العالم الأول في توزيع الدخل بين العمالة الماهرة وغير الماهرة في العالم المتقدم.

ولكي نتناول نموذجنا الجديد دعنا ندخل عنصرا جديدا. لنفرض أن هناك نوعين من العمالة ـ ماهرة وغير ماهرة، ولنفرض أن نسبة العمالة غير الماهرة إلى العمالة الماهرة هي أعلى بكثير في الجنوب عما هي عليه في الشمال. من المتوقع في مثل هذا الوضع أن تكون نسبة أجور العمالة

الماهرة إلى العمالة غير الماهرة أقل في الشمال مما هي عليه في الجنوب، ونتيجة لذلك من المتوقع أن يُصدّر الشمال سلعا وخدمات تتطلب مهارات عالية ـــ أي أن يستخدم في إنتاجها عمالا مهرة بنسبة أعلى من العمال غير المهرة في حين أن الجنوب يصدر سلعا كثيفة العمالة غير الماهرة.

ما أثر هذه التجارة في الأجور في الشمال؟ عندما تتبادل دولتان سلعا ذات مهارات عالية مقابل سلع كثيفة العمالة فإنهما، بطريقة غير مباشرة، تتبادلان عمالة ماهرة بعمالة غير ماهرة. فالسلع التي يقوم الشمال بنقلها إلى الجنوب تدخل فيها عمالة ماهرة أكثر من السلع التي يحصل عليه في مقابل ذلك، أي كما لو كان بعض عمال الشمال المهرة قد هاجروا إلى الجنوب. كما أن واردات الشمال من المنتجات ذات العمالة الكثيفة تشبه نوعا من الهجرة غير المباشرة للعمالة غير الماهرة. والواقع أن التعامل التجاري مع الجنوب يجعل العمالة الماهرة في الشمال أكثر ندرة، مما يرفع أجورها على حين يجعل العمالة غير الماهرة أكثر وفرة، مما يخفض من أجورها.

وزيادة التعامل التجاري مع العالم الثالث إذن، وإن كان لها أثر بسيط في المستوى العام للأجور في العالم الأول، فإنها مبدئيا تؤدي إلى زيادة عدم المساواة في هذه الأجور، مع زيادة خاصة في الأجور مقابل المهارة، كما أنه سيكون هناك اتجاه نحو (مساواة عامل الإنتاج) Factor price equalization، مع انخفاض أجور العمال غير المهرة في الشمال بحيث تقترب من مستوياتها في الجنوب.

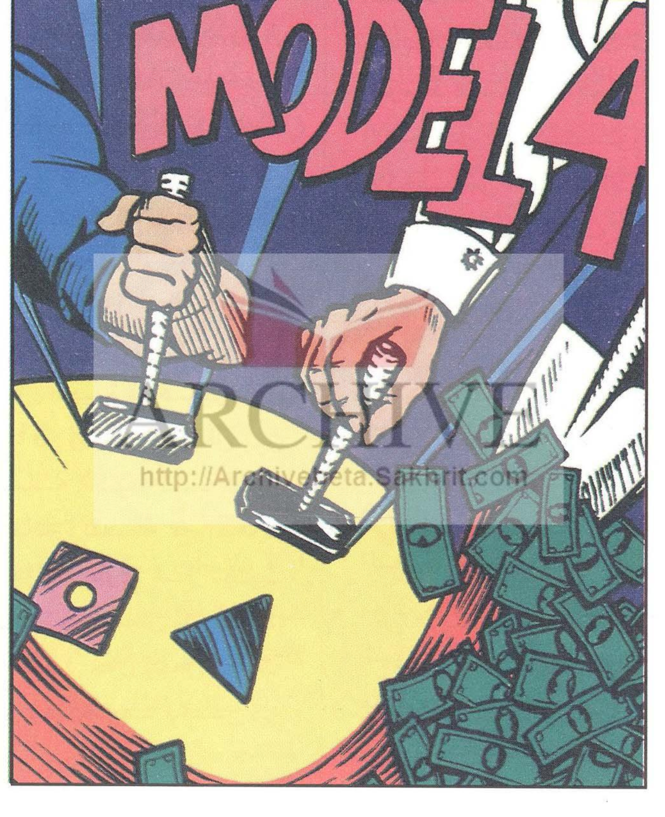
ومما يجعل هذه النتيجة مدعاة للقلق أن عدم المساواة في الدخل في تزايد سريع في الولايات المتحدة وبدرجة أقل في الدول المتقدمة الأخرى. وحتى لو لم تكن صادرات العالم الثالث قد أثرت سلبا في متوسط مستويات الأجور في العالم الأول، ألا يحتمل أن تكون هي السبب في الانخفاض الحاد في الأجور الحقيقية للعمال غير المهرة بالولايات المتحدة، وفي زيادة معدلات البطالة بين العمال في أوروبا منذ السبعينات؟

عند هذه النقطة يجب أن نشير إلى أن الأدلة المتوافرة لدينا تشير إلى أن تساوي سعر عوامل الإنتاج لم يكن عنصرا رئيسيا في زيادة عدم المساواة في الأجور بالولايات المتحدة، على الرغم من أن هذه الأدلة تبدو مباشرة أكثر من الأدلة التي ذكرناها في النماذج السابقة وإن كانت أقل رسوخا منها. والتبادل التجاري مع العالم الثالث ليس في حقيقة الأمر بهذا الحجم. ونظرا لأن حجم التجارة مع الدول ذات الأجور المتدنية لا يزيد إلا قليلا على 1٪ من إجمالي الناتج المحلي، فإن صافي تدفقات العمالة الداخلية في هذه التجارة يعتبر بسيطا مقارنة بإجمالي حجم القوى العاملة.

وقد تؤدي البحوث التي تجرى بعناية وتأن أكثر إلى تقديرات أكبر لأثر التجارة

بين الشمال والجنوب في توزيع الأجور. أو قد يكون لنمو هذه التجارة في المستقبل تأثيرات أقوى مما رأيناه حتى الآن. إلا أنه يجب في هذه النقطة أن نذكر أن الأدلة المتوافرة لدينا لا تدعم الرأي القائل بأن التجارة مع العالم الثالث تشكل جزءا مهما من مسألة عدم المساواة في الأجور.

وعلاوة على ذلك فحتى لو كانت التجارة بين الشمال والجنوب مسؤولة جزئيا عن تزايد عدم المساواة في الدخل، فليس لها أية صلة بأداء متوسط الأجور المخيب للآمال. فقبل 1973 ارتفع متوسط الأجور بالولايات المتحدة بنسبة تزيد على 2٪ في السنة، إلا أن معدل الزيادة انخفض منذ تلك السنة إلى 0,3٪ فقط. وهذا الانخفاض هو لب مشكلاتنا الاقتصادية وليس لصادرات العالم الثالث أي دور في ذلك.



التهديد الحقيقي

إن الرأي القائل إن المنافسة من قبل العالم الثالث هي إحدى المشكلات الرئيسية للدول المتقدمة مردود عليه نظريا ومرفوض تماما من واقع البيانات المتوافرة. وما أهمية ذلك؟ أليس ذلك مجرد جدل أكاديمي؟ للرد على هذا التساؤل يمكن أن نقول إن الذين يتحدثون عن أخطار المنافسة مع العالم الثالث يرون أن هذه المسألة مهمة بالتأكيد، ولا شك، في أن المفوضية الأوروبية لم تسجل ملاحظاتها عن المنافسة مع الدول ذات الأجور المنخفضة لمجرد ملء الفراغ. وإذا كان المسؤولون والمثقفون يعتقدون أنه من المهم تأكيد التأثيرات الضارة للمنافسة مع تلك الدول، فإنه من المهم، على الأقل بالدرجة نفسها، أن ينبه علماء

الاقتصاد ورجال الأعمال البارزون إلى خطأ هؤلاء في هذا المضمار.

والأفكار لها أهميتها هنا، فوفقا لتقارير صحفية نشرت أخيرا اتفقت الولايات المتحدة وفرنسا على المطالبة بوضع معايير دولية للأجور وظروف العمل على جدول أعمال مفاوضات (الجات) GATT القادمة. ولا شك في أن المسؤولين الأمريكيين سيقولون إنهم حريصون على مصالح عمال العالم الثالث. إلا أن الدول النامية سبق أن حذرت من أن هذه المعايير هي مجرد محاولة لمنعها من الدخول إلى الأسواق الدولية وذلك بحرمانها من الاستفادة من الميزة التنافسية الوحيدة التي لديها، وهي وفرة العمالة. والدول النامية محقة في ذلك، فتلك المعايير هي نظام حماية في ثوب اعتبارات إنسانية.

وأكبر شيء يدعو إلى القلق هو احتمال أن تتحول هذه الحماية المقنعة في نهاية الأمر إلى وضع عقبات شديدة وصريحة أمام التجارة. وعلى سبيل المثال، فإن روبرت كوتنر ينادي منذ فترة طويلة بضرورة أن تسير التجارة الدولية بأكملها في الخط الذي رسمته (اتفاقية الألياف المتعددة) Multi - Fiber Agreement وهي الاتفاقية التي تحدد الحصص في سوق المنسوجات والملابس. وما يهدف إليه في واقع الأمر هو احتكار الأسواق العالمية جميعها. والآراء التي هي من هذا القبيل لا تزال خارج المناقشة الجادة للسياسات، ولكن عندما تقوم شخصيات لها وزنها واحترامها بضم صوتها إلى الفكرة المرفوضة تماما والقائلة إن العالم الثالث مسؤول عن مشكلات العالم الأول، فإنهم بذلك يمهدون للتدخل الشديد في التجارة الدولية.

ونحن لا نتحدث عن قضايا اقتصادية محدودة أو ضيقة، فلو قام المسؤولون في الغرب بوضع العراقيل أمام الواردات انطلاقا من قناعة خاطئة بأنهم بذلك يحمون مستويات المعيشة في بلادهم فسينتج عن ذلك تدمير أكثر الجوانب إشراقا في الاقتصاد العالمي الآن، وهو بداية التنمية الاقتصادية على نطاق واسع، كما سيؤدي ذلك إلى ضياع الأمل في مستويات معيشة محترمة ولائقة لمئات بل آلاف الملايين من بني البشر. فالنمو الاقتصادي في العالم الثالث هو فرصة وليس تهديدا، وخوفنا من نجاح العالم الثالث، وليس النجاح في حد ذاته، هو الخطر الحقيقي الذي يتهدد الاقتصاد العالمي.

هوامش ومراجع

1- المراجع الرئيسية في هذا الموضوع هي: مقال (J. R. هيكس) عن مشكلة الدولار المستمرة في «المحاضرة الافتتاحية»، Oxford Economic Papers (السلسلة الجديدة)، 6/1993، ومقال (H. G. جونسون) «النمو الاقتصادي والتجارة الدولية» المنشور في Manchester School of Economic and Social Studies (1993/5).

2- انظر (L. F. كاتز) «فهم التغييرات الحديثة في هيكل الأجور»، NBER Reporter، شتاء 1992/1993، وانظر كذلك: (R. لورانس) و (M. سلوتر) في «التجارة الدولية والأجور في أمريكا في الثمانينات: قضية مهمة أم مشكلة بسيطة؟» Brooking Papers On Economic Activity العدد رقم 2 لسنة 1993.

لغز أمبرتو إيكو

تأليف: برنارد وليامز*

ترجمة: كامل يوسف حسين

في بداية رواية «بندول فوكو» لأمبرتو إيكو هناك عبارتان تصديريتان، ولكل فصل من هذا الكتاب عبارة تصديرية أيضا، ومن ثم فإن هذه العبارات بارزة، على نحو خاص، إذ تسبق كل ما عداها. وإحدى هاتين العبارتين قول مقتبس من الباحث في السحر والتنجيم والقوى الخفية هاينريش كورنيليوس أجريبا فون نيتز هايم. والعبارة الأخرى مقتطفة من أحد المناطقة المعاصرين، وهو ريموند سموليان، ومفادها أن «الخرافة تجلب سوء الطالع». وهذان المقتطفان يجمعان الاهتمامين الاستحواذيين اللذين يدور في فلكهما الكثير من أعمال إيكو، والاهتمام الأول يدور حول المفارقة المنطقية، والثاني يتعلق بالحقائق الغامضة التي تدور حول التراث الهرمسي، والألغاز السحرية، والنبوءات والقبالا (التفسير الصوفي اليهودي للكتاب المقدس) وتفسيرات التاريخ والطبيعة وفقا لأنماط معقدة ومحتجبة، وذات طابع تآمري غالباً.

العنوان الأصلي للمقال:

The Riddle of Umberto Eco

مراجعة: د. عبدالغفار مكاوي

(*) برنارد وليامز هو أستاذ كرسي وايت لفلسفة الأخلاق في جامعة أكسفورد، وأستاذ كرسي الفلسفة الألمانية في جامعة كاليفورنيا ببركلي. وأحدث كتبه صدر بعنوان «الخجل والضرورة» وقد نشر هذا المقال في The New york Review of books في عدد 2 فبراير 1995 الذي يحمل ترقيم المجلد Volume XLII, No2 والمقال يتناول الكتب التالية:

- ضوابط التفسير ـ أمبرتو إيكو ـ مطبعة جامعة إنديانا 304 صفحات.
- التفسير والافراط فيه ـ أمبرتو إيكو بالاشتراك مع: ريتشارد رورني وجوناثان كالر وكريستين بروك ـ روز. إشراف: ستيفان كوليني ـ مطبعة جامعة كامبردج ـ 151 صفحة.
- ست جولات في الغابات الروائية ـ أمبرتو إيكو ـ محاضرات تشارليز إليون نورتون ـ مطبعة جامعة هارفارد ـ 153 صفحة.
- تأجيل الكارثة الكونية ـ أمبرتو إيكو، ترجمة وتحرير روبرت لوملي ـ مطبعة جامعة إنديانا/ معهد السينما البريطاني ـ 242 صفحة.
- نصوص أسيئت قراءتها ـ أمبرتو إيكو ـ ترجمة وليام ديفر ـ هاركورت بريس ـ 180 صفحة.
- كيف تسافر مع سمكة سلمون ومقالات أخرى ـ أمبرتو إيكو ـ ترجمة وليام ويفر ـ هاركورت بريس ـ 248 صفحة.

وكما يعرف قراء رواية «بندول فوكو» الكثيرون، فإن مثل هذه الأمور هي ذاتها موضوع هذا العمل، إذ تكمن في محور، فكرة خطة هائلة، ممتدة عبر المراحل التاريخية، استهلها فرسان المعبد، واندرج فيها الكأس المقدسة، وجمعية الصليب الوردي، والنسب العددية المنطقية، والهرم الأكبر، والماسونيون، والأقزام السبعة، وبروتوكولات حكماء صهيون. ويتضح في الرواية أن الشخصيات المعاصرة، أي ناشري ميلانو الذين اجتذبهم عالم هذه المؤامرة قد تعرضوا للتضليل. ذلك أن «الاندفاعة التفسيرية من جانب شخصياتي الأحادية الجنون» كما يدعوها إيكو في كتابه الموسوم «التفسير والإفراط فيه» يتم كبح جماحها عندما تخمن على نحو محتمل شابة أكثر تعقلا من أصدقائها أن الوثيقة المحورية هي «قائمة بالثياب المرسلة للتنظيف» على نحو ما يطلق عليها منذئذ دونما تساؤل بخصوصها، وعلى الرغم من أنها قائمة، فإنه لايبدو أنها قائمة بالثياب المرسلة للتنظيف.

غير أنه حتى إذا ما اتضح أن الخطة في الكتاب، كما في التاريخ، هي أسطورة، فإن إيكو لا يعتقد أنه لم يبق منها شيء. حيث تتم دعوتنا لـ«الاندهاش المفرط» الذي يمضي قدما بالمفسر السحري، وفي نهاية الرواية نجد بعض الأحداث الغريبة التي تثير العجب والاندهاش. وفضلا على ذلك تتم دعوتنا، من خلال وجود الرواية والمادة التي جمعها إيكو فيها، إلى التعجب من «علم العلاقات السحري» ذاته.

ويدرك إيكو بوضوح بالغ وجه الخطأ في مبادىء التفسير (للنصوص أساسا، ولكن للأحداث كذلك) التي تفضي إلى الاعتقاد الممزوج بجنون الارتياب بوجود هذه الخطة، فهذه المبادىء تسمح بكل شيء، لأن أي تماثل أو ارتباط بين الأنواع العديدة التي استغلها، على نحو ما يوضح إيكو، «فن الذاكرة» لعصر النهضة، يعد كافيا لدفعها قدماً، فالنبات المسمى بالسحلب أو خصي الثعلب يمكن أن يمثل الخصي (بحكم تشابه الشكل) أو يمثل الغراب الأحباش (بحكم تشابه اللون) أو تمثل النملة العناية الإلهية (بحكم علاقة مبهمة) وبما أنه، حسبما يقول إيكو: «من وجهة نظر معينة فإن كل شيء تربطه بكل شيء آخر علاقات التناظر، والتماس والتماثل» ومن خلال استغلال «انتقالية زائفة» يمكنك الوصول إلى أي موضع من أي موضع آخر. وكنتيجة لذلك لا يمكن أن يكون هناك سر سحري نهائي:

«كل موضوع.. يخفي سراً.. والسر المطلق للبدء السحري هو أن كل شيء سر.. والفكر السحري يحول المسرح العالمي بأسره إلى ظاهرة لغوية، وفي الوقت نفسه يحرم اللغة من أي قدرة على التوصيل والتواصل».

وليس قوام الأمر أن كل شيء يعني شيئا ما فقط، وإنما أن كل شيء يعني أي شيء على

وجه التقريب. وكما تقول إحدى الشخصيات في رواية «بندول فوكو» فإنه: «كلما كان الرمز أكثر مراوغة والتباسا ازداد اكتسابه للمعنى وللقوة». ووجه الخطأ يتم تصويره على نحو جيد (وإن كنت لا أعرف ما إذا كان إيكو قد أتى على ذكره) من خلال النشاط الذي كان رائجا ذات يوم إلى حد بعيد والمتمثل في العثور على رسائل مشفرة، في كتابات شكسبير، تكشف عن أن بيكون هو الذي أنجز هذه الكتابات، ويبدو أن هذا النشاط قد توقف، بعد أن قام الباحثون باستخدام المناهج ذاتها على نحو أكثر تألقا بالكشف عن رسائل مؤداها أن هذه الكتابات أنجزها أناس مختلفون آخرون، فهم على سبيل المثال شكسبير نفسه.

ولأن هذه الأنشطة التفسيرية، على وجه الدقة، غير محدودة، ولا ضابط لها، وغير حاسمة، فإنها مضجرة بصفة خاصة وبلا انتهاء. ولا ينبني على ذلك أن الحقائق التي تدور حول الولع الإنساني بهذا النوع من التفسير هي ذاتها مضجرة، فاكتشاف هذه الحقائق لا يتم، في نهاية المطاف، بغير جهود تبذل، ولا هو خال من الضوابط. ولا بد أن القدر الاستثنائي من المعلومات عن مثل هذه الأمور الذي حشده إيكو في «بندول فوكو» وفي مواضع أخرى من كتاباته قد اقتضى منه جهدا هائلا غير أن مغزى الرواية هو أن المرء لا ينبغي له أن يلم بأمر هذا الاندفاع التفسيري الجامح فحسب، وإنما عليه أن يشعر بالابتهاج من جراء المشاركة فيه. وبالنسبة لي على الأقل فإن محاولة إيكو الحفاظ على اهتمام المرء بذلك العالم ليست ناجحة تمام النجاح، إنها أقل نجاحا منها في حالتها مع العالم المصور على نحو مكثف كذلك في روايته الشهيرة «اسم الوردة». وقد كنت مرشحا سيئا لقراءة ذلك الكتاب بدوره، وذلك بسبب جمعه بين أمرين لا يحظى أي منهما بالكثير من الجاذبية بالنسبة لي، وهما القصة البوليسية الإنجليزية والعصور الوسطى.

وتدمير الذات المرتبط بالتفسير الخالي من الضوابط يعني إيكو، بالطبع، لا في صورة المتحمسين الذين يتعقبون أثر فرسان المعبد عبر التاريخ فحسب، فهو معني باتجاهات القراء المعاصرين للنصوص الأدبية، وبصفة خاصة قراء الأعمال الروائية، والعديد من الكتب التي نعرض لها هنا ينصب على مسألة الكيفية التي يمكن بها كبح جماح التفسير وضبطه، وكيف يمكن للقراءة إذا ما تحررت من المفاهيم التقليدية (التي لم تحظ بقدر كاف من الاعتبار) لضوابطها، أن يتم إنقاذها من التردي إلى بعد عن التحدد خاو، ومضجر يقينا، كالرؤى الخيالية المرتبطة بجنون الاضطهاد لدى جمعية الصليب الوردي.

إن إيكو يرغب في أن نسمح بلعبة قوامها العديد من التفسيرات للرواية والشعر، وهو غالبا ما يقتطف قول فرلين إنه ليس هناك معنى واحد حقيقي للقصيدة، وإنما بعض

التفسيرات مستبعدة على وجـه القطع. ومن شأنه أن يتفق مع ذلك الباحث في الدراسات الكلاسيكية من معـارفي الذي يقر، على نحو يشـوبه ظل من التردد، بأن التـلاعب الحر لقـاصـد المعنى أو (للـدال) لم يمتـد إلى أن كلمـة «ألبـوم» في إحدى قصـائد هـوراس يمكن أن تـؤخـذ على أنها تشير إلى مجلـد صـور. وهو يـلاحظ مـوافقا أن جيفـري هارتمان يحجم عن قراءة بيت ووردزورث «لايمكن للشـاعر إلا أن يكـون خارجـا عن القاعـدة Gay» بالمعنى الـذي قد تشير إليه هذه الكلمة الآن، ويشير إلى أن ذلك له علاقة بالوقت الذي كتب فيه البيت (وسوف أشير إلى أن تلك نقطة قد تـوغل في السير إلى أبعد مما يرغب إيكو).

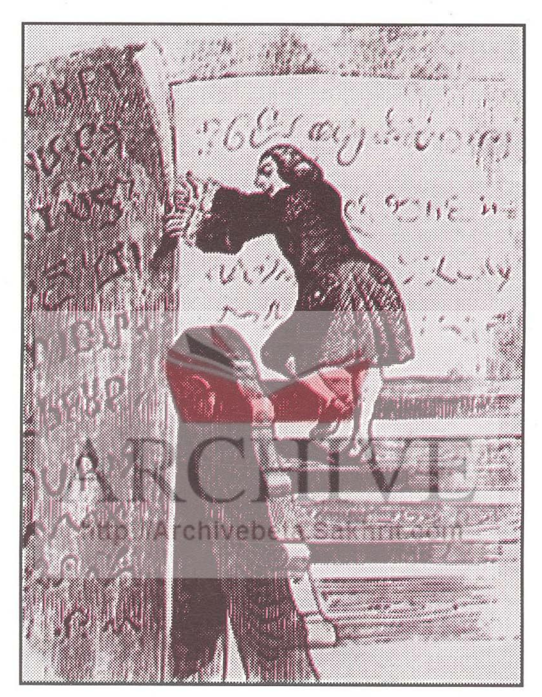
ورغبة إيكو في التراجع عن التفسير الذي لا ضـابط لـه يتم تشجيعهـا صراحـة من خلال الفكرة القائلة إنه ربما قام بفعل شيء لتشجيع هـذا التفسير. فقـد كتب يقـول في كتابه «الأعمال المفتوحـة»، الصادر في العام 1962(1) تحت العنوان الإيطـالي"Opera Aperta" «دعوت إلى دور إيجابي للمفسر... وتلقيت الانطبـاع بأنـه في غضون العقـود الأخيرة تم التشـديد بصـورة مفرطـة على حقوق المفسرين». وفي كتابات إيكو منذ ذلك الحين شارك جنبـاً إلى جنب مع آخرين مثل فـولفجـانج إيسر(2) في تطـويـر مفهـوم «القارئ المضمـر» الذي يدعـوه إيكو الآن بـ«القارئ النموذجي» ويقصد به القارئ الـذي تحقق لـه الفهم اللغـوي، والمعرفـة التجريبية، وبشكل أكثر عمـومية التوقعات (على سبيل المثـال الخاصـة بنص ينتمي لـذلك الشكل) التي يمكن القـول إن النص يفترضها. والقـارئ النموذجي هـو «نوع من النمـط المثـالي لا يستشرفـه النص كمتعاون فحسـب، وإنما يحاول أن يخلقه كذلك».

إلى جـانب ذلك، يمكن، وبشكل ممـاثل، بنـاء صرح مفـاهيـم متعـددة عن المؤلفين المضمرين (الضمنيين) أو الكـامنين، حيث تعد الرواية، في مقابل المؤلف التجريبي (أي الشخص التاريخي الذي ألـف الكتاب) هو المؤلف المألوف على نحـو أكبر فحسب(3). وجانب من أكثر الفصول إثارة للاهتمام في مجمـوعـة المحـاضرات التي تحمل عنـوان «ستة مسارات في الغابـات الروائية» يدور حول هذه الموضوعات وبصفة خاصة فيما يتعلق بنص فتن إيكـو لفترة طـويلة، وهـو «سيلفتي»، لجيرار دي نـرفـال. وفي هـذه الحالة، وإلى جوار المؤلف التجـريبي (الذي كان في حقيقة الأمـر يدعى جيرار لابروني. وقـد انتحر بشنـق نفسه في العـام1855) هناك روايـة ضمير المخاطب («جي-رار») ووراءه فضـلا على ذلك مـؤلف نمـوذجي، ضمير غير شخصي يقول كل ما قيل في هذه الرواية القصيرة أو القصة الطويلة. وينجز إيكو عمـلا أصيلا بارعا من هـذه العناصر، على نحـو ما ينجزه في حـالـة التداخـلات الزمنيـة للكتاب، بدءا من أزمنـة الأفعال في الجملـة الأولى، إلى تحليـلات شكـلانيـة

مستفيضة للعودة إلى الماضي.

وإذا جاز التعبير، قلنا إن القارىء النموذجي هو فرض الضوابط على التفسير. ولا يعني ذلك أن الفكرة تقدم «معيارا» لتفسير مقبول، فمن الجليّ أنها لا تستطيع تقديم مثل هذا المعيار، حيث إن القارىء النموذجي هو نفسه، أو هي نفسها، مبنى حقا من النص ذاته فحسب. وإيكو يسعده بالقدر ذاته أن يوضح حدود التفسير من حيث «قصد النص».

فليس هناك معيار للقراءة المقبولة، وإنما توجد قراءات محتملة أو غير محتملة. وفكرة القارىء النموذجي تقدم لنا بؤرة أو إطارا لتجميع الضوابط التي تبدو مناسبة. وبين الأمثلة والإيضاحات التي يقدمها في كتابه «التفسير والإفراط فيه»! هناك بعض التعليقات على رواياته، حيث يقدم لنا نفسه، مع استبعاد سريع وموفق للامتياز الذي يتمتع به المؤلف، على أنه قارىء نموذجي، ويبلغنا، ربما بقليل من العون من ذاكرته التجريبية أن «فوكو» في رواية «بندول فوكو» يتعين أن يكون صدى لميشيل فوكو وكذلك ليون فوكو (الذي اخترع البندول). ويرغب إيكو في أن يفهم القارىء النموذجي أن الشخصية الرئيسية المسماة «كاسوبون» إنما سمي كذلك استلهاما لاسم باحث عصر النهضة اسحق كاسوبون وليس زوج دوروثيا في «المسيرة الوسيطة» (وهذا ما يشير إليه الكتاب) ولكنه يبلغنا كذلك، وعلى نحو مدهش، أنه لم يخطر له أن العمل الذي كانت عاكفة عليه شخصية جورج إليوت بلا انتهاء هو «مفتاح لكل الميثولوجيات» ولكن «كقارىء نموذجي أحس بأنني ملزم بقبول تلك الإشارة التفسيرية»



ذلك أمر صحيح يقينا، فالإشارة التفسيرية تقع بصورة مطلقة في نطاق التداعيات التي يمكن لهذا الكتاب أن يطرحها على نحو مناسب، ويمكن على نحو مساند وضعها في ذهن القارىء الذي يقال

له ما يعنيه الكتاب، ووفقا لشهادة إيكو فإنها لم تكن جزءا من مقاصد المؤلف التجريبي. وبالنسبة لإيكو كمنظّر، فإن هذا أمر لا أهمية له، حيث إن المؤلف التجريبي هو في هذا الصدد الشخص الذي يحصل رسميا على أقل قدر من الاهتمام، ويعامل بازدراء معظم الوقت، ويقول إيكو في وقت مبكر في كتابه «ستة مسارات»: «سأقول لك في الحال إنه لم يكن بمقدوري أن أكترث أدنى اكتراث بالمؤلف التجريبي للنص الروائي (أو أي نص حقا)». ويتابع قائلا إن معرفة عصر المؤلف لن تساعدك على الحكم بما إذا كان كتاب «شيطان في الجسد..» رائعة إبداعية أو إبلاغك بالسر في أن كانط قد قدم اثنتي عشرة مقولة. وهذا أمر غير قابل للجدال بشأنه، ولكنه ليس بالحجة الراسخة، ويمكنك بالمثل القول في مواجهة الشكلانية إن معرفة عدد الكلمات في الصفحة لن يجيب كذلك عن تلك المسائل.

وهذه المسائل لا تدور حول مقاصد المؤلف فحسب أو بصورة أساسية، على الرغم من أنه يجدر القول إن اعتراضات إيكو على النزعة القصدية، شأن اعتراضات كثيرين غيره، يبدو أنها تعتمد بالفعل على مفهوم فظ للقصد، وإيكو يعطي الانطباع في بعض الأحيان بأنه بناء على وجهة النظر القصدية يتعين على المؤلف أن يكون في ذهنه في كل لحظة منطاد (بالون) رسام، كاريكاتوري يحمل عبارة تفسيرية لما يكتبه، ولكن ليست تلك صورة معقولة للقيام بأي شيء بصورة قصدية. غير أنه بغض النظر تماما عن المسائل المتعلقة بالقصد، يبدو أن تنحية إيكو الكاملة للمؤلف التجريبي جانبا تعبر عن حالة واضحة من حالات الكف أو القمع. وحقيقة الأمر - وذلك ليس بالأمر المدهش - أن إيكو يخضع تفسيراته للضبط، ويمد القارىء النموذجي بما يحتاج إليه هذا القارىء، وذلك بالتوجه طوال الوقت إلى الحقائق التي تدور حول المؤلف التجريبي: من هو، ومتى يكتب، بل أي كتاب يعتقد أن يعكف على تأليفه، أي مقاصده بأوسع المعاني. ولديه حجة مستفيضة وممتعة غاية الإمتاع حول أسماء الشوارع في «الفرسان الثلاثة» التي تدور حول تاريخ كتابة ألكسندر دوماس للرواية وخطط (طبوغرافية) باريس في ذلك الوقت، وما كان يمكن لدوماس (دوماس الفعلي..) أن يتوقعه بصورة معقولة حول ما يتوقع أن يعرفه قارئه.

والمعلومات المتعلقة بالمؤلف التجريبي هي مثال واحد فحسب على الأمور العديدة التي ليس من المدهش أن يكون من المفيد الإلمام بها. وفي أحد المقالات التي تضمها مجموعة المقالات الصادرة بعنوان «ضوابط التفسير» كتب إيكو يقول في معرض مناقشة دريدا:

«إذا كان صحيحا أن مفهوما للمعنى الأدبي هو أمر إشكالي إلى حد بعيد، فإنه لا يمكن إنكار أنه لكي يتم استكشاف كل

امكانات النص، حتى تلك الإمكانات التي لم يتصورها مؤلفه، فإن المفسر يتعين عليه في المقام الأول أن يسلم بوجود معنى في درجة الصفر أو يسلم بالمعنى الصفري، أي ذلك المعنى الذي يقر به أكثر المعاجم المتيسرة بساطة وافتقارا (للعمق والتوسع)، المعنى الذي تقر به حالة لغة معينة، في لحظة تاريخية بعينها، المعنى الذي لا يمكن أن ينكره أي عضو من أعضاء مجموعة من المتحدثين الأصحاء من أبناء تلك اللغة».

وفضلا على هذا، فعندما يشير إيكو إلى معجم، حتى إلى معجم فقير في معانيه، فإنه يتبع في ذلك جانبا كبيرا من الفلسفة المعاصرة لا يميز، من حيث المبدأ، بين المعجم ودائرة المعارف.

يبدو هذا القدر معقولا (إن لم تكن هذه الكلمة محبطة بأكثر مما ينبغي). وتبدو الممارسة الفعلية التي أخذ بها إيكو، وقوامها جعل المعرفة التجريبية مؤثرة في تفسير النصوص، ـ تبدو معقولة بصورة ملحوظة، حتى وإن كان في بعض الأحيان يسمح لنفسه بنوع من «الازدهار الدريداني»(*) الذي يجعل العالم الفعلي مجرد نص آخر. وهو يقول في كتابه «ضوابط التفسير» إنه: «يتعين على المرء لكي يقوم بمقارنة العوالم أن ينظر حتى إلى العالم الحقيقي أو الفعلي على أنه بنية ثقافية، فما يسمى بالعالم الفعلي هو العالم الذي نشير إليه ـ صوابا أو خطأ ـ على أنه العالم الذي تصفه دائرة المعارف البريطانية أو مجلة تايم...» هنا، وبصفة خاصة ونحن نمر بتلك الكلمة الشنيعة «ما يسمى»، يبدو أننا في طريقنا إلى إحدى وجهات النظر «بعد ـ البنيوية» الأكثر تهوسا والتي قال لي عنها صديق ذات يوم: قل ذلك لقدامى المحاربين في عالم النصوص الأجنبية! ولكن من الواضح أن قلب إيكو ليس معلقا بوجهة النظر تلك، فهو في هذه المسائل تجريبي يستحق الاحترام، ويبدو فحسب أنه أخذت بلبه المفاتن المشكوك فيها لنص بعينه ولا شيء خارجه، بل إنه بمجرد الاشارة إلى هذا الخطر الذي تعرض له بادر بالسماح لـ«صوابا أو خطأ» بأن تنحي هذا الخطر جانبا، تاركا إيانا فحسب مع الفكرة المنذرة بالخطر والقائلة إن العالم يمكن على نحو قابل للتصور أن يكون كما تصفه مجلة «تايم»..

ويعتقد بعض نقاد إيكو أنه حساس بأكثر مما ينبغي، ففي «التفسير والإفراط فيه».. وهو المجلد نفسه الذي يضم «محاضرات تانر» الذي يظهر فيه مقال

(*) نسبة إلى جاك دريدا (المولود في الجزائر سنة 1930) وهو أحد أعلام ما بعد البنيوية، اشتهر بمنهجه النقدي «التفكيكي» في إعادة قراءة النص «كعمل مفتوح، وبتفسيراته الجديدة للمذاهب الفلسفية «المقفلة» من أفلاطون وهيجل إلى ماركس وهسرل، التي اتسمت في رأيه بنزعة «التمركز حول المنطق»، ولذلك نراه يحلل التصورات النظرية الموروثة التي زعمت لنفسها «العلمية» للكشف عن افتراضاتها الميتافيزيقية أو الانطولوجية الكائنة فيها، متأثراً في ذلك بمقولة هيدجر عن «تحطيم الميتافيزقا الغربية» من أهم أعماله التي وجدت صدى كبيراً في أوساط النقد الأدبي خاصة: الصوت والظاهرة، الكتابة والاختلاف، الجراماتولوجيا، الحقيقة في فن التصوير، البطاقة البريدية «المراجع».

إيكو، يلاحظ جوناثان كالر في حذق أن كلمة «إفراط» تثير بعض الأسئلة. ويذهب إلى القول إنه « شأن معظم الأنشطة الثقافية، يثير التفسير الاهتمام عندما يكون متطرفا فحسب» (ويحذف المشرف على إعداد الكتاب في مقدمته المكثفة بصورة معتدلة كلمة «الثقافية» فيحول ما يمكن النقاش حوله إلى طرح متسم بالحماقة). والأمر يعتمد يقينا على ما يراد التفسير من أجله.

ويخيل إلي أن كالر يفترض أن ما يدور الجدل حوله هو مناقشة الأدب من حيث هو أدب. وهو في هذا الصدد يشير إلى تمييز مساند قام به «ويني بوث» بين فهم النص و«الإفراط في فهمه». فبينما نجد هذا الأخير يتألف من «متابعة أسئلة لا يطرحها النص على قارئه النموذجي... فإن من الممكن أن يكون من المهم والمثمر للغاية طرح أسئلة لا يشجع النص المرء على طرحها عنه». وكما يقول كالر: إن إحدى مزايا اعتراض بوث على اعتراض إيكو هو أنه يجعل من الأيسر إدراك دور الإفراط في الفهم وأهميته عنه في حال تسمية هذه

الممارسة قصدا بالإفراط في التفسير». ذلك أن «الإفراط في الفهم» تمس الحاجة إليه لتصحيح قراءات تحظى بالاحترام بشكل مبالغ فيه. ويقتبس كالر مقتطفا من «بارت» يفيد أن من لا يعيدون القراءة يفرضون على أنفسهم قراءة القصة نفسها في كل مكان: «إنهم يتعرفون على ما يظنونه أو ما يعرفونه بالفعل».

ذلك هو، على وجه اليقين، أحد أسباب الإفراط في فهم النصوص الخيالية، والانتقال إلى ما وراء آفاق «القارئ النموذجي» .غير أنه حتى في حالة الأدب فإن ذلك ليس سبباً في الإفراط في فهم هذه النصوص. وعلى سبيل المثال عندما يجري تقديمها للطلاب الذين لم يقرأوها من قبل قط، حقا إن المعلمين يقومون بإعادة قراءتها، ولديهم أسباب معقولة تماما، (كأسباب أولئك الساعين إلى ركن من السوق) لجعل هذه النصوص شيئا جديدا، ولكن طلابهم (إذا كانوا سيقرأون هذه النصوص على الإطلاق، وهو أمر مختلف تماما!) يحتاجون في المقام الأول إلى جعل هذه النصوص شيئا قديما، وأن يوضح لهم

كيف يصبحون قراء نموذجيين.

لكن هناك سبباً مختلفا تمام الاختلاف، وأكثر أهمية، للاحتراز من الفكرة القائلة إن التفسير ينبغي أن يحاول دائما أن يكون متطرفا، أو أنه ينبغي أن يطمح، بحسب اصطلاح كالر، إلى أن يكون مثيرا للاهتمام. فتأريخ إيكو لفنتازيا جنون الاضطهاد الذي يصل إلى أقصاه في بروتوكولات حكماء صهيون ونسلهم يذكرنا بأن التفسير هو أمر سياسي ملح، وليس فحسب بالمعنى الذي يأخذ به العملاء السريون لأقسام الأدب إعادة قراءة رواية «قلب الظلام» على أنها مسألة سياسية. إن السجلات يجري تفسيرها عندما يتم إنكار المحارق كحقيقة تاريخية وعندئذ لا يطلب من التفسير أن يكون شيئاً متطرفاً ومثيراً للاهتمام، وإنما الذي يطلب منه، بصراحة هو الحقيقة.

ولأن إيكو يدرك أن تغيرات التفسير يمكن أن تكون سياسية على نحو جاد، فإن رواياته تخاطب قضايا سياسية، حتى وإن لم يجار المرء الإشارة التي ذكرها روبرت لوملي في مقدمته المفيدة لـ «تأجيل يوم الدينونة»(*) والتي يقول فيها إن روايات إيكو هي «مجازات سياسية». وهذه المقدمة تبلغ المرء بقدر معين من المعلومات عن علاقات إيكو بالغة الالتباس عبر السنوات بالحياة السياسية الإيطالية، وبصفة خاصة علاقاته باليسار الإيطالي (وقد علمت كذلك من لوملي أن إيكو هو مؤلف الكتاب القياسي الإيطالي عن كيفية كتابة رسالة دكتوراة) والكتاب نفسه يخاطب السياسة، ولكنها سياسة الثقافة بصورة كلية على وجه التقريب. وهو ليس بالمجموعة المرضية تماماً، فهناك ترجمات من كتاب نشر في العام 1964 بعنوان «التشاؤميون والمتكاملون (أي المحتوون)»! تتبعها تشكيلة من القطع حول الثقافة الشعبية وسياسة الثقافة، بعضها قديم للغاية (أحداث إيطالية وقعت في الستينات، أورويل على نحو ما يبدو في رواية «1984» وعلى نحو مؤلم للغاية زفاف تشارلز وديانا..).

ويتم التمييز بين المثقفين «التشاؤميين أو القائلين بنهاية العالم» و«المتكاملين» من خلال مواقفهم من الثقافة الشعبية، وكما يبرز هذا الاختيار للتصنيفات بوضوح بالغ، فإن إيكو يقف بصورة لا لبس فيها مع المتكاملين، أي مع أولئك الذين يرغبون في أن يجعلوا من الثقافة الشعبية شيئا، بينما يرى التشاؤميون في التلفزيون و«الثقافة الجماهيرية» نهاية الحضارة. ويحيي إيكو التشاؤميين، بل إنه ليهدي الكتاب لهم، ولكنه يعتقد أن صياغاتهم - وبصفة خاصة اصطلاح «الثقافة الجماهيرية» نفسه هي «فتيشات» (أفكار

---

* أو تأجيل الرؤية الكوارثية أو الكارثة الكونية (الابوكاليبسه Apocaolypse). وقد لزم التنويه بسبب تردد الكلمة الأخيرة في الفقرات القادمة تميزاً للمثقفين «الكوارثيين» الذي يصور لهم تمردهم المتشائم على الثقافة المعاصرة أننا دخلنا بالفعل عصر «نهاية الحضارة» من المثقفين «المحتوين» الذين استوعبتهم السلطة وأجهزة الإسلام المسموعة «المراجع».

حصرية متسلطة)، وأن رؤيتهم للماضي في مقابل الحاضر رؤية غير تاريخية، وأنهم بصورة أساسية يمنعون أنفسهم بتكبر وتعال عن تلك المظاهر والتجليات التي يمكن أن تكون ممتعة ومثيرة للاهتمام وغنية بالعلامات الدالة (السيميوطيقية).

ويفترض أن المتشائمين ـ الذين كان إيكو يخاطبهم عندما كتب هذه المقالات ـ ينتمون إلى اليسار حتى وإن كان هذا (كما في حالة أدورنو)(*) قد مثل اختيارا للغة خطابية طنانة أكثر من أي شيء آخر. ولكن الذين ينجذبون في الوقت الحاضر إلى النزعة «الشتراوسية» الأمريكية أو غيرها من صياغات النزعة التشاؤمية الثقافية، سيجدون أنفسهم وقد جوبهوا بالتحدي من إيكو لكي يتأملوا ـ على سبيل المثال في مقال له بعنوان «مستقبل المعرفة بالقراءة والكتابة» ـ فيما يتحسرون عليه وكيف يختلف على وجه الدقة عما كان عليه في الماضي. وهو يمتاز بصفة خاصة في إيضاح العواقب المترتبة على الافتراضات «الماكلوهانية» عن الصورة والكلمة. فقد كان الاتصال البصري في العصور الوسطى ـ كما يشير هو نفسه ـ أكثر أهمية من الكتابة. «كانت الكاتدرائيات هي تلفزيونات عصرها، والفارق بينها وبين تلفزيوننا هو أن «مخرجي» العصور الوسطى كانوا يقرأون كتبا جيدة ولديهم الكثير من الخيال، ويعملون للصالح العام» والواقع أن هذا لا يمضي بنا إلا إلى حد طرح أسئلة أفضل وأكثر صعوبة عن معرفة القراءة والكتابة، كما أن إيكو، على الأقل في هذه الصفحات، لا يساعدنا كثيرا في الرد عليها. وفي هذا الصدد تعدّ مقولة المثقف «المتكامل» أو «المحتوى» بمثابة وهم، فهي تسجل، في مقابل الرفض أو النفي، معنى واحدا فحسب، وهو أن بعض المثقفين قد استوعبوا الثقافة الشعبية إلى الحد الذي يمكنهم من مواكبتها ومجاراتها، على نحو ما يفعل إيكو في مقاله حول «شارلي براون وكريزي كات». بيد أن هذه المقولة لا تتيح أملا في أن بعض المثقفين قد يتكاملون معها ويندرجون فيها، ويكون لهم بعض التأثير عليها، على نحو ما يبدو بوضوح أن إيكو كان يتمنى أن تكون عليه الحال عندما قارن إدارة مؤسسة راديو وتلفزيون إيطاليا، منتقدا إياها، بمصممي كاتدرائية «شارتر»..

والواقع إن إيكو قد نشط في مجال التلفزيون والنشر والصحافة، إلى جوار كونه أستاذا جامعيا. والكثير من مقالاته التي تدور حول السياسة الثقافية أعيد

(*) هوتيودور فيزنجروند أدورنو (1903 ـ 1969) الذي يعد مع صديقه هور كهيمر ـ أبرز أعضاء «مدرسة فرانكفورت» النقدية الجدلية التي كرست بحوثها الفلسفية والاجتماعية والثقافية لنقد القيم والأوضاع البائسة السائدة فيما يسمى بالمجتمعات الصناعية المتقدمة (رأسمالية كانت أو شيوعية) وتعرية مفاهيمها الأساسية ـ كالتقدم والتنوير والحرية.. الخ تعرية نقدية تكشف عن ظواهر «اغتراب» الإنسان و«تشيئة» فيها ـ من أهم أعماله: جدل للتنوير، الجدل السالب، فلسفة الموسيقى الجديدة، ثلاث دراسات عن هيجل، ملاحظات عن الأدب، الكتابات الأخلاقية الصغيرة، النظرية الجمالية.. الخ «المراجع».

طبعها في كتب نقلا عن الصحف. غير أنه إلى جوار هذه الأنشطة المألوفة التي يقوم بها الناقد الأكاديمي، قد كتب الكثير بأسلوب أكثر خفة. فقد واظب ابتداء من العام1959 على كتابة عمود شهري في إحدى المجلات الأدبية بعنوان «يوميات صغيرة»، وكتابه «نصوص أسيئت قراءتها» يقدم نخبة من القطع المترجمة من ذلك العمود. وهي تأخذ صورة المعارضات الساخرة ـ لنا بوكوف وروب جرييه وأدورنو والأنثربولوجيا الأميركية، وذلك من بين أهداف أخرى. وقد قطعت شوطا طويلا الآن من أصولها المكتوبة بالإنجليزية أو الفرنسية أو اللغات الأخرى إلى الإيطالية ثم إلى الإنجليزية. وعلى الرغم من المهارات اللغوية التي يتمتع بها إيكو ومترجمه، فإن نبض المعارضة الساخرة الذي أطلقه لم يقدر له أن يواصل البقاء ليظهر في المجلد الحالي. أما الكتاب الآخر الصغير المكتوب بطريقة إيكو الأكثر خفة في الكتابة فهو بعنوان «كيف تسافر بسمكة سلمون». ويمثل مجموعة مترجمة من الموضوعات المكتوبة في إطار العمود نفسه، وضعت في أحد الأدراج كما هي ونشرت في وقت لاحق. وهي مقالات فكاهية حول «كيف تكون مضيفا في برنامج تلفزيوني» و«كيف تتناول الطعام على متن طائرة»وما إلى ذلك. ويحتوي أحد هذه المقالات على اكتشاف سردي أو قصصي أصيل، يعود للظهور في كتاب «ستة مسالك»: طريقة مجربة لتحديد ما إذا كان فيلم ما من الأفلام الجنسية، وهي أنه يحتوي العديد من المشاهد التي يسافر فيها الأبطال بالسيارة ويدخلون أو يغادرون المباني، ويصبون أقداح الشراب، وينغمس كل منهم في حياة الآخر اليومية، وكل ذلك يعرض مستغرقا وقته الحقيقي، وممتدا عبر الوقت الذي يقع فيه في الحياة اليومية (وهو أسلوب لفصل المشاهد الجنسية دون الاضطرار لابتكار أي حبكة). وإحدى المقالات المكتوبة عن الأجهزة المعلن عنها في مجلات شركات الطيران تبدو، على الأقل بالنسبة لي، بالغة الطرافة حيث يقول فيها:

«ليف سكوب هو قفاز يحول يديك إلى يدي وليد ملتحم الأصابع بفعل التأثير الإشعاعي، أو تهجين بطة مع زاحف مجنح، على يدي دكتور كواترماس. ويستخدم هذا القفاز في جمع أوراق الشجر المتساقطة في حديقتك التي تبلغ مساحتها ثمانين ألف فدان. وبإنفاق مبلغ بسيط قدره 12,5دولارا توفر أجر بستاني وحارس ضيعة (وقد أوصينا اللورد تشاترلي بالانتباه إليه)، أما تاي سيفر (Tie Saver) فإنه يغطي ربطة عنقك بغشاء زيتي للحماية بحيث يمكنك لدى تناول الطعام في مطعم مكسيم أن تلتهم شطائر البندورة (الطماطم) دون أن تظهر في اجتماع لمجلس المديرين عقب ذلك، وقد بدوت مثل دكتور برنارد بعد عملية نقل قلب صعبة، وذلك مقابل خمسة عشر دولاراً فقط. وهو مثالي بالنسبة لمن لا يزالون يستخدمون البريليانتين، حيث يمكنك أن تمسح جبينك بربطة العنق».

وهناك مقالات أخرى، مثل المقالة التي تدور حول التنفيذ الشاق لفكرة بورجيس الشهيرة عن خريطة مقياسها 1:1. بدت لي غير طريفة بصورة ملحوظة، لدرجة أنني أجدها في بعض الأحيان توشك أن تكون مثيرة للذهول.

ربما لم يكن هناك شيء في هذا، باستثناء التقلبات المألوفة في الكتابة الفكاهية التي تجعلنا نتسامح معها قائلين: أزمنة مختلفة، ثقافات مختلفة، أمزجة متباينة، النكتة التي لا تعرف الانتقال. ومع ذلك يداخلني الشك في أن الأمر متعلق بشيء أكثر عمقاً، شيء يرتبط بخاصية يشترك إيكو فيها مع الكثير من زملائه الأكاديميين العاملين في مجال الأدب، وبصفة خاصة أولئك الذين كرسوا أنفسهم أكثر منه للنظرية الأدبية. إنه أكثر منهم علماً وأدباً وفكاهة، وعندما يجد نفسه أمام حقيقة واقعية راسخة يصبح أرهف حساسية من الكثيرين منهم. ولكنه يشترك معهم في مرض محدّد وهو مرض محيّر ملغز، شره لا سبيل إلى التحكم فيه إلى المشكلات الحافلة بالتناقض والمفارقة، وأعراض هذا المرض تدفع الفلاسفة إلى الحنق والتميّز غضباً، والفارق بين الفريقين في هذا المجال يحدد أكثر من أي شيء آخر خط الجبهة المعاصر في الحرب القديمة قدم الدهر بين قوات الفلسفة وقوات الأدب..

وإذ يواجه الفلاسفة، وهم أصدقاء الاتساق المنطقي، بتناقض ظاهر نجدهم ينشدون حسم هذا التناقض. والمناطقة مثل ريموند سموليان (الذي أتيت في البداية على ذكر طرفته الجيدة التي اقتطفها إيكو) يحبون المفارقات ولكنهم يريدون تفسيرها. أما الطرف الآخر، وهم أصدقاء الأحجيات والألغاز، فإنهم يتحركون في الاتجاه المضاد، وإذ تعطى لهم حقيقة مضجرة يبذلون قصارى ما في وسعهم لتقديمها على هيئة تناقض. وقد طالعت قبل سنوات عديدة كتيباً بعنوان «الزن وفن الرمي بالسهام Zen and the Art of Archery حاول أن يصور تعاليم الزن بإبلاغك على سبيل المثال، بأنه في فن الرمي بالسهام يتعين على المرء أن يصوّب على الهدف من خلال عدم التصويب. ومعنى ذلك أنك إذا ما أردت أن تصيب هدفاً فإنك بحاجة إلى أن تكون في حالة ذهنية لا تحاول معها بصورة واعية أن تصيب ذلك الهدف. وينطبق هذا على معظم هذه الأنشطة. ومازلت أذكر بوضوح الضيق الذي شعرت به باعتباري عضواً ينتمي إلى صميم فريق الاتساق، فيما بدا أنه إضفاء للغموض بلا مسوغ بالمرة.

والحق أن تلك الحالة كانت سيئة بشكل مضاعف، حيث إن الحقيقة التي يلفها التناقض هي حقيقة واضحة، والمغزى الكامن في لفها على هذا النحو، المغزى المتعلق بالزن، يكمن في ممارسة عمليات تأمل وانضباط لا يكشف عنهما أي كتاب. ومن الطبيعي، في العديد من الحالات الأخرى أن فريق الاتساق المنطقي ينظر إليه عن جدارة على أنه يتألف من مجموعة مرتبكة من هادمي المباني الذين يشعرون بخطر يتهددهم، ويمدون أيديهم إلى حقيبة أدوات تفكيرهم المنطقي. وهم ـ أو بالأحرى

نحن - يخاطرون دائماً بالتعرض لنسيان أن الملمح الأول من شيء جديد بالفهم قد يأخذ شكل التناقض، وأفضل طريقة قد توجد للتعبير عن شيء جديد بقوله قد تأخذ ذلك الشكل، وفي الحياة الشخصية على الأقل قد يكون من الأفضل في بعض الأحيان تركه على ذلك النحو، حيث إن جذور التناقض لا يمكن في بعض الأحيان العثور عليها إلا بانتزاع النبات من التربة. ولكن إذا كان الأمر كذلك، فإن هناك على الأقل تفسيراً متسقاً ومنطقياً لكونه على هذا النحو، فالتناقضات في حد ذاتها لا تجعل الحياة أكثر زخماً، بل إنها في معظم الوقت لا تجعل الحياة أكثر إثارة للاهتمام، وهذا يرجع إلى السبب ذاته الكامن وراء كون البحث عن السرّ(*) السحري الغامض أمراً مضجراً للغاية، وكون التناقضات في ذاتها تخلف لك شيئاً غير محدد ولا حدود له عالماً لا مستحيل فيه، وكل شيء فيه كالآخر، ومن هنا يجيء ضجر المرء المفعم باليأس (حرفيا) وهو يرى أشكال التفكيك الآلية تقوم بسحق أحجياتها ومفارقاتها...

غير أن إيكو ليس مضجراً أبداً على مثل هذا النحو، وهو في معظم الأوقات ليس مضجراً بأي شكل من الأشكال. ورغم ذلك، يبدو أن لديه مشكلة خطيرة، مثلما يقولون في عيادة الاختلال الغذائي، فيما يتعلق بالمفارقات، وأعتقد أن ذلك هو السبب في أن نكاته لا تبدو متوازنة، إذ إن الإحساس المشترك بالفكاهة يعتمد إلى حد كبير على ما هو مفارق أو ملغز. وإيكو على استعداد لأن يجد ما قد ينظر إليه بعض قرائه على أنه متكلف أو فظ ملغز أو مفارق «بصورة مسلية». وهو يسعى إلى صياغات تمضي قدماً بذاتها، طرق لقول الأشياء قد تؤخذ، عند الحاجة، على أنها تنقض ما تقوله. وتعاطفه مع من يحبون التناقضات يصعب في بعض المواضع تمييزه من تعاطفه مع التناقضات، وهو بين الحين والآخر يصدم مبادىء المنطق بصدمة من النسبية الثقافية، كما يحدث عند قيامه بالإشارة في محاضرات تانر إلى «نمط التفكير السائد في النزعة العقلية الغربية، وهي طريقة الوضع: «إذا كانت ا إذن ب، ولكن ا صادقة، إذن ب صادقة». ترى كم يتعين علينا الإيغال باتجاه الشرق لتكف هذه الطريقة عن أن تكون صحيحة؟

إنهم في رواية «بندول فوكو» يقولون للرواية:

— «بإمكانك على الدوام أن تميِّز من يعيش في سفوح الجبال من غيره على الفور

(*) يصف الكاتب باستمرار السرَّ بأنه هرمسي، نسبة إلى الكتابات الهرمسية الشهيرة - التي تقع في حوالي أربعين رسالة مكتوبة باليونانية واللاتينية والعربية، وترجع إلى القرون القليلة بعد الميلاد وربما إلى القرن السابق له أيضا - وهي الكتابات الصوفية التي تضم أسرار الغنوصية والخلاص وبعض كتابات بوزيد ونوس الفيلسوف الرواقي المتأخر (حوالي 131- حوالي 51 ق.م) الذي وضع الإنسان بجسده وروحه الحبيسة فيه عقابا له، في المركز من الطبيعة الإلهية الشاملة - والهرمسية نسبة إلى هرميس مثلث العظمة، وهو رسول الآلهة إلى البشر والوسيط بينهما وحديثه وحي من تلك الآلهة، وهي تدل بوجه عام على كل ماهو مستغلق غامض يحتاج إلى التفسير، كما تدل على نزعة إلى الغموض الملغز أسسها أنجارتي في الشعر الإيطالي الحديث، (المراجع).

من نزعته التشككية».

ـ أنا متشكك.

ـ لا، إنك ميال لعدم التصديق فقط، نزَّاع إلى الشك، وذلك أمر مختلف.

وفي موضع ثال يمضي الراوية قائلاً:

«ليت حقيقة الأمر أن الشخص الميال إلى الشك لا يؤمن بأي شيء، بل كل ما هنالك أنه لا يصدق كل شيء، أو أنه يعتقد بشيء واحد في الوقت الواحد، ولا يعتقد بشيء ثان إلا إذا كان بشكل من الأشكال يترتب على الشيء الأول. إنه مصاب بقصر النظر، وهو مهاجي، ويتجنب التطلع للآفاق الرحبة. وإذا وجد شيئان لا يتناسب أحدهما مع الآخر ولكنك تؤمن بصدق كل منهما وتعتقد أنه في موضع خفيّ لابد أن يكون هناك شيء ثالث يربطهما، فإن هذا هو الميل إلى التصديق والميل إلى التصديق لا يقتل الفضول، وإنما يشجعه.

وأمبرتو إيكو، في تعامله مع التفسير، هو إلى درجة مدهشة ذلك الشخص الذي يحتاَّج إليه الموضوع، أي الذي يميل إلى التشكك دون أن يكون متشككا على نحو يصيب بالشلل. وهو ميال إلى التشكك في النزعة التشككية ذاتها، وفيما يتعلق بالفضاء اللامتناهي للسيمياء غير المنضبطة. وهو في الوقت نفسه ميال للتشكك فيما يخص الافتراضات التقليدية التي تدور حول المؤلف والمدى الذي يمكن في إطاره استعادة المعنى على نحو محدّد. ولكنه في كل معالجاته الإبداعية لهذه المسائل يظهر، بجانب المعرفة الصافية والحسّ السليم بالفكاهة، إيماناً راسخاً بصلابة الحقيقة الواقعية، وبماضٍ تاريخي يمكن استعادته، إن لم يكن كقصة واسعة الامتداد، فعلى الأقل كتجميع لقطع صغيرة وأجزاء لا سبيل إلى إنكارها. وبين وقت وآخر فحسب، وفي غمار معالجاته للمنطق، نجده يفصح عن تذوق للمفارقة غير مكبوح الجماح على نحو يفوق ما يسمح به للتفسير أن يكونه ـ وبين وقت وآخر فحسب يبدو أنه يداعب نزعة التشكك العميق. ولكن هذه الأمور كلها في نهاية المطاف، ربما لا تكون إلا إحدى ألاعيبه، لأن من الجليّ الواضح أنه يدرك أن الفكرة السليمة وفهم الماضي، بما في ذلك ضروب الجنون في تفسيراته، إنما يدعمها في حقيقة الأمر الإيمان القوى بأن الشيء الواحد ينتج عن شيء آخر، وأن المفسرين المتأثرين برغباتهم وتمنياتهم لن يستطيعوا أن يمنحوا التناقضات قوة بأكثر مما يمكنهم أن يبرهنوا على وجود مؤامرة فرسان المعبد..

المراجع

(1) ترجم إلى الإنجليزية تحت عنوان العمل المفتوح: ـ مطبعة جامعة هارفارد ـ 1989.

(2) القارئ المضمر (الضمني) ـ مطبعة جامعة جونز هوبكنز ـ 1974. فعل القراءة ـ مطبعة جامعة جونز هوبكنز ـ 1978.

(3) يقدم إيكو ملمحاً تاريخياً لهذه الأفكار في «قصد القراءة» وهي إحدى المقالات التي تم جمعها في كتاب «ضوابط التفسير». وهو يلتقط بصفة خاصة مفهوم ويني بوث عن «المؤلف المضمر» الذي نشر للمرة الأولى في العالم 1961.

حوار مع ماريو بارجاس يوسا

الأدب والسياسة

أجرت الحوار: كاثرين أرجان

ترجمة: عبدالرحيم حزل

ولد الروائي والقاص البيروني (نسبة إلى البيرو) ماريو بارجاس يوسا *Mario Vargas Liosa* عام 1936 في أريكيبا، وكان الابن الأوحد لأب سيتعرفه الكاتب وهو في سن العاشرة. وقد ظلت علاقة الصبي بوالده يسودها عدم التفاهم، مما حمله على هجر المهد الأسري في مدينة بيورا نحو العاصمة ليما، حيث سجله والده في كليتها العسكرية. وهي التجربة التي ألهمت الكاتب روايته الأولى.

درس يوسا الأدب والقانون طالبا في كليتيهما، وأسهم بالكتابة في بعض الصحف اليومية، قبل أن يترك الدراسة للمشاركة في أنشطة الحزب الشيوعي. ويومئذ، اكتشف الأدب الفرنسي وأخذ يحلم بالقدوم إلى باريس والاستقرار بها.

العنوان الأصلي للمقال:

Mario Vargas Liosa - Lire/ Fevrier 1995.

مراجعة: د. عبدالغفار مكاوي

بدأ ماريو بارجاس يوسا نشر أولى قصصه القصيرة في عام 1958. وغادر، في السنة التالية، بلده البيرو برفقة زوجته الأولى «العمة جوليا» للدراسة في كل من مدريد وباريس. وبعد ثماني عشرة سنة من العمل الأدبي قضاها في كل من أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، عاد ليستقر بصفة دائمة في مدينة ليما، برفقة زوجته الثانية باتريشيا وأبنائهما الثلاثة. وكان ذلك قبيل عودة الديمقراطية إلى البيرو في عام 1980.

أنفق يوسا، بداية من عام 1987، ثلاث سنوات في حملة للإعداد لخوض الانتخابات الرئاسية، التي خسرها عام 1990. فعاد بعدها للاستقرار في أوروبا، كاتبا متفرغا.

لا يُعنى ماريو بارجاس يوسا، بتوظيف الغرائبية ولا النزعة العالمثالثية لشعوب أمريكا اللاتينية في أدبه. وعلى خلاف كتابات الروائي الكولومبي جابرييل جارسيا ماركيز، تندرج أعمال يوسا ضمن التقليد الروائي الفلوبيري. وعلى خلاف سيرة الروائي الأرجنتيني كارلوس فوينتس، يعيش يوسا حياة ملتزمة أشبه بحياة الكاتب الفرنسي أندريه مالرو.

من أعمال يوسا الروائية والقصصية: «المدينة والكلاب» 1966 «البيت الأخضر» 1969، «محادثة في الكاتدرائية» 1973، «حرب نهاية العالم» 1983 و«من قتل بالومينو موليرو» 1987، و«الرجل الذي يتكلم» 1989. ومن دراساته: «القصوف الدائم» 1978، «ضد رياح ومد بحار» 1989، و«الحقيقة بالكذب» 1992.

وقد حصل الكاتب، في شهر نوفمبر من السنة الماضية، على جائزة سرفانتيس وهي أهم تقدير أدبي يمنح للأدب المكتوب باللغة الإسبانية.

كيف عشت الأسابيع الأولى التي تلت هزيمتكم في الانتخابات الرئاسية، في 31 يونيو 1990؟

- لقد عانيت، في البداية، من إجهاد حاد بسبب طول الحملة الانتخابية، وما حملته من ضغوط، واتسمت به من عنف، في طوريها معا. وإذن، فقد بدأت في إعادة بناء جسمي من جديد. لكن غمرني، في الوقت نفسه، ارتياح وفرح عارم، كمن استعاد حريته. فكانت تلك فترة رائعة، تمكنت أثناءها من التنقل دونما حرس خاص، كما أصبحت قادرا على أن أختار ما أريد، و ألا أفعل شيئا. ثم استعدت ميولي ككاتب. فعدت، من جديد، إلى القراءة والكتابة، وصرت أسعد إنسان. واستمرت حالي كذلك حتى السادس من شهر أبريل من عام 1992. ففي هذا اليوم، أعلن رئيس البيرو السيد فوجي موري، عن قراره بإلغاء جميع الحريات، فكان لذلك وقع الكارثة على البيرو وعليّ كذلك، إذ لم تكن لدي الرغبة في الانغماس، من جديد، في معترك السياسة، ولا في الخوض مرة أخرى في جدالها. كنت قد سئمت ذلك. لكن كان يتحتم عليّ أن

أقول شيئا ما.

هل يعني ذلك أنك تتأسف على السنوات الثلاث التي وهبتها للمعركة السياسية؟

ـ كلا. فحتى وإن لم تكن تلك التجربة بالسارة، إلا أنها علمتني الشيء الكثير عن السياسة، وعن بلدي، الذي كنت أعتقد أنني أعرفه جيدا، مثلما علمتني الشيء الكثير عن نفسي أيضا. لقد أصبح بإمكاني اليوم أن أتناول المشاكل السياسية، وأن أكتب وأفكر عن معرفة واطلاع، وهو ما لم يكن في متناولي، قبل خوض تلك التجربة. فالسياسة، من منظور مثقف، تختلف اختلافا كبيرا عن الممارسة. إنها من جهة، تمرين على التفكير النقدي، وهي، من جهة أخرى، صراع على السلطة. وينبغي معرفة ذلك.

وماذا علمتك هذه التجربة عن نفسك؟

ـ لقد عرفتني حدودي. فقد كنت موقنا أن الأفكار تلعب دورا رئيسيا في حملة انتخابية. لكنني ما لبثت أن اكتشفت أن المهم، في مثل هذه الظروف، إنما هو المناورات، والدسائس، والاحتيالات، أي الجانب العملي والنفعي المحض.. ووجدت في نفسي رفضا فطريا للازدواجية، والاستعراضية والتصنع الدائم، وسواها مما تقوم عليه حياة رجل السياسة. فأنا لا أجيد المداهنة. والسياسة عملية تقنية، كما قال ماكيافيلي وسرعان ما اكتشفت أنني لا أجيد هذه التقنية. لكني لم أتحول، مع ذلك، إلى عدمي. فمازلت على اقتناع بأن السياسة وسيلة لا غنى عنها لتغيير المجتمعات.

فأنت تقر، في نهاية المطاف، بصواب رأي الشاعر المكسيكي أكتافيو باث الذي كان قد حذرك من مغبة فقدان استقلالك، ومن تلاعبات رجال السياسة، والشعور بالخيبة، الذي قد تولده مشاركتك في الانتخابات الرئاسية.

ــ نعم. لكن من غير تعميم. فقد حقق البعض ممن تخلوا عن حياتهم ككتاب ليقتحموا معترك السياسة، نصيبا من النجاح. وانظر إلى صنيع الرئيس التشيكي فاكلاف هافل، فقد ساهم، وهو الكاتب، في التحول ببلاده نحو الديمقراطية. ولقد كانت تجربتي، بل تضحيتي



تلك - إذ أنفقت فيها، على كل حال، ثلاث سنوات من حياتي - تجربة تعلمت منها، كما كانت في الوقت نفسه غير مجدية إلى حد بعيد. ولا أعني بعدم الجدوى ما أسفرت عنه نتائج الانتخابات، بل أتحدث عن الأفكار التي كنت أطمح إلى جعل الناس يعتنقونها. فقد كانت دعوتي إلى الديمقراطية والليبرالية الاقتصادية. بيد أن العكس تماما هو الذي حدث. فقد أصبحت لدينا في البيرو، حكومة استبدادية، وشعبية فوق ذلك. فضلا على أن جميع الاقتراحات الاقتصادية التي تقدمت بها لإنعاش الديمقراطية قد تم استعمالها للتضحية بهذه الديمقراطية. وإنها لفظاعة تتجاوز كل حد.

وهكذا، جاء هذا الكتاب(*) لتسجيل تجربتك وبرنامجك؟

- لقد أردت أن أقدم فيه رؤيتي للوقائع. وما كان بإمكاني أن أفعل ذلك إلا باللجوء إلى الكتابة. فأنا كاتب، وهذا يعني أن كل الأحداث المهمة التي تعرض لي تتحول إلى حوافز لي على أن أحمل قلمي. وكذلك، لأن هذه التجربة لا يمكن أن تعرف أو يحكم عليها إلا بعد أن تتم كتابتها، وتدخل، من ثم، عالم الأدب. وكانت الكتابة عندي كذلك ضربا من التطهر، فقد تحررت من هذه التجربة، ووضعت نهايتها من خلال كتابتي لها.

(*) كتاب «السمكة في الماء»، ترجمه عن الإسبانية ألبير بنسوسان، صدر عن دار جاليمار، 1995.

فيما يروي هذا الكتاب قصة ترشيحك لخوض الانتخابات الرئاسية، فإنه يرسم كذلك مسارك الأدبي والسياسي. ألا يمكن اعتباره، بذلك أول سيرة ذاتية لك؟

ـ لقد كانت نيتي، في البداية، أن أكرس هذا الكتاب لفكري السياسي. ولكن سرعان ما تبين لي أن هذا سيجعلني أقدم عن نفسي صورة جزئية جدا ومتحيزة جدا. ذلك أنني لست سياسيا محترفا، بل مثقفا زاول السياسة بصورة عابرة، ولذلك، ألفت بين سجلين، هما شهادتي السياسية، وعلى الجانب الآخر، رواية سنوات تكويني، بدءا من طفولتي، وتوقفا على الخصوص عند علاقتي بوالدي، ثم اكتشافي الأدب، وميولي لأن أصبح كاتبا ـ وهي مهمة من الصعب جدا النهوض بها ـ وتأثراتي ونضالي في صفوف الحزب الشيوعي، ثم في صفوف الحزب الديمقراطي المسيحي، الذي استمر نشاطي فيه حتى قطيعته مع كوبا في عام 1970. فقد بدا لي أن هذا السياق يمكن أن يجلو تلك السنوات الثلاث التي قضيتها مرشحا لتحمل أعباء المهمة الأسمى، كما يقولون عن رئاسة البلاد.

لقد كرست عقودا من حياتك للأدب. ثم انقطعت عنه لمدة ثلاث سنوات، لم تكتب خلالها سطرا واحدا، فهل أدى ذلك إلى تجفيف ينابيع الإبداع عندك؟

ـ إطلاقا. فبالإضافة إلى هذه المذكرات، نشرت رواية ستظهر ترجمتها الفرنسية قريبا في فرنسا. وثمة أعمال أخرى في سبيلها إلى رؤية النور، ومنها رواية يدور موضوعها حول تآمر نخبة الدومينيكان مع وكالة المخابرات الأمريكية، ورواية ثانية كرستها لفلورا تريستان، تلك المرأة التي افتتنت دائما بحياتها العجيبة. فقد عاشت عصر اليوتوبيات الذهبي، وأعتقد أنها خبرتها جميعا.

ألا يتناقض افتتانك هذا باليوتوبيا، مع نضالك في خدمة الديمقراطيات الليبرالية؟

ـ إننا بحاجة إلى اليوتوبيا، حاجتنا إلى واقع مختلف عن الواقع الذي نعيشه. وإنها لأكثر الخصائص إنسانية. ولا تكون اليوتوبيا خطيرة ولا هدامة إلا عندما تصبح استبدادية. فعندئذ، تصبح جحيما. ولا يمكننا أن نجد قرينة عن تحقق اليوتوبيا على صعيد الجماعة، لأن مفهوم اليوتوبيا، هذا المطلق، يرفض

مبدأ تعددية الجماعة البشرية. أما في المجالات الفردية والفنية، فتكون اليوتوبيا مشروعة تماما، وتتولد عنها تحققات خارقة.

وما يوتوبياك؟

- أن أكتب وأترصد شهاب الأدب؟

وماذا أيضا؟

ـ إنه خليط من المغامرة.. وأشياء كثيرة.. لكني أعتقد أنه ينبغي لي، للحديث عن ذلك بجدية، أن أخضع ذاتي لمراقبة شديدة، وينبغي أن تشف كتاباتي بوضوح عن هذه الحميمية السرية.

وبهذا الصدد تحديدا، ماذا كان أثر تلك السنوات الثلاث التي كان حظها من اليوتوبيا قليلا، في عملك ككاتب؟

ـ لا أعتقد أنها قد غيرت منه بشكل جوهري، إذ إنني كنت أفصل دائما بين أنشطتي ككاتب وأنشطتي كسياسي، فليست لهما الطبيعة نفسها. إن الكتابة معناها أن تستثمر جماع شخصيتك، وليس أفكارك أو وعيك فحسب، بل وأحاسيسك وغرائزك. ولكي يفسح الكاتب المجال لهواجسه وخيالاته، عليه أن يفتح الأبواب لكل ما يعتمل في دخيلة نفسه، بما في ذلك شياطينه. أما السياسة، فينبغي أن تكون عقلانية وذكية، فهي تتوسل بالأفكار وتنتمي بذلك إلى مجال العقل. حيث أطلق العنان لذاتي ككاتب، لا أحتاج إلى مراقبتها أو التحكم فيها كسياسي.

ألا يكون كل الأشخاص، وكل الديكورات والدسائس التي أحاطتك أثناء حملتك الانتخابية مادة روائية عجيبة؟

ـ إنني لا أنوي أن أصنع منه رواية. وهذا الكتاب هو خاتمتها. لكن يبقى كل شيء واردا. ولقد أصبحت الآن حذرا! لكن كل شيء كما لا يخفى عليك، يمكن أن يتحول إلى مادة روائية. فالرواية مسألة معالجة وشكل. وليست هناك موضوعات ولا مناسبات أكثر أدبية من غيرها.

فالمقام يخلق المقال.

- إن ما كان يهمني، عندما كنت عاكفا على كتابة هذه المذكرات، أن أقدم شهادة صادقة عن تلك التجربة، لا شهادة نسبية أو ملتبسة، لأن هذه هي سمة الكتابات التخييلية (الروائية). على أن الواقع الذي عاينته خلال حملتي الانتخابية، كان يتجاوز حدود الخيال بكثير. ثم إن الخيال يتجاوز بكثير مجال الإبداع، ولا يحد به، فنحن نجده في العلوم، كما نجده في الدين وفي السياسة، وفي أشكال الفذلكة والقذف، والتآمر والنوايا السيئة. ويمكن أن أقول لك، على سبيل الدعابة، إنني طوال ثلاث سنوات، عشت فيما يشبه الخيال.

لأنك عشت رواية طبيعية رائعة، ما عادت بك حاجة إلى كتابتها؟

ـــ إن فكـرة التطلع إلى أن أعيش تجربة مفعمة بالإثـارة والمخاطرة، وأن أكتب، في خضم الحياة الـواقعية، رواية كبيرة، هذه الفكرة التـي ربما تكون قد حفـزتني على خوض تلـك الانتخابـات كان مصدرها زوجتي بـاتريشيا. فهي تعـرفني جيدا، وربما كـانت محقـة في اقتراحهـا ذاك! وربما كـانت إرادتي، دون وعي مني أكثر منهـا عن وعي، أن أعيش المغـامـرة الكبيرة. ولـو لم تكن رئاسة البيرو أخطـر المهن في العالم، لما رشحت نفسي أبدا للانتخابات. لقد كنت ومـا أزال أعتقـد أنني إنما أصبحت روائيـا لأنني لم أفلح في أن أكـون مغامرا. فالكتابة طريقة أخرى مختلفة جدا، في عيش حيوات عجيبة، ومصائر تشذ عن المألوف.

لنعـد إلى الـدوافع التي جعلتك تنتقل من الكتـابة إلى الخطـابة. فقد ذكـرت دوافع معنوية. ولكن كيف جـرت الأمور على وجـه الدقة؟

ـــ لقد عـارضت في عـام 1987، قانون التأميم الشـامل للنظام البنكي والمالي الذي أقره رئيس البـلاد يومئذ وهو ألان جـارسيا. ففي بلـد نـام مثل البيرو، تميل الـدولـة والحكـومـة إلى التماهـي مـع بعضهما. وفيما يخوّل هذا القانون رجلا واحدا كل السلطات، فإنه يضر بالـديمقراطية أيما إضرار. والحال أن اتخاذ هـذا الموقف كان لـه صـدى كبير، فـوجـدتني في وضـع الزعيم في ظرف حرج من حياة شعب. وإذن، فقـد قلت في نفسي إن ذلـك قـد يكون فرصة ينبغـي اغتنامها لخدمة قيم التقـدم وتقويتها، وللعمل كـذلك على تطبيق الإصـلاحـات الليبراليـة والديمقراطيـة التي دافعت عنها فيما كتبته من مقالات، طيلة ثلاثين عاما.

لكن باسم أيـة مسؤولية، أو بمـوجب أي حق يمكن للكاتب أن يحل محل رجل السياسة؟

ـــ ليس في الأمر أي حلـول. فأنـا كاتب زاولت السياسة بصورة عابرة. وثقي من أن عملا كهذا ليس مصدره التعالي إطـلاقا. إن مسؤوليـة الكاتب أمر قائم لا جدال فيـه، لكنها لا تفوق في أهميتها، بأي حال ما ينهض به أي مواطن آخـر، ولا تختلف، في طبيعتها، عما ينهض بـه سـائر المواطنين من مسـؤوليـات. وكـل مـا في الأمـر، أن مسؤوليتك وأنت كاتب ـ على الأقل في بعض البلدان ـ تكـون أكثر وضوحا. ولـذلك أفهم كيـف أن الكـاتب الـذي يعيش داخل مجتمع ديمقراطي، يتيح لـه إمكـانات متعددة للمشـاركـة في الحياة العمـومية، أفهم كيـف أن هذا الكاتب ينصرف إلى إبـداعه الشخصي.

أما في بلدان مثل بلدي، يمتلك فيه المثقفون وضعا مميزا، ويعرفون ثمن الحرية - وهي شرط ضروري للإبداع - ويخاطبون جمهورا عريضا، فأعتقد أن على هؤلاء المثقفين أن يستعملوا سلطتهم على نحو متحضر، وأعني بقولي هذا أن عليهم أن يجعلوا خيالهم وفكرهم في خدمة مجتمعاتهم. ولقد قبل معظم الكتاب من جيلي تحمل هذه المسؤولية. لكنها مسؤولية قد تدفع بهم إلى الدفاع عن أسوأ التوجهات. لأنه ليس صحيحا أن كونك كاتبا يمنحك القدرة على استجلاء غوامض السياسة.

من الذي تقصده بتلميحك؟

— كل أولئك الكتاب الذي دافعوا عن أنظمة استبدادية أو شمولية يمينية، ويسارية على الخصوص، مثلما دافعوا عن أنظمة «خرافية»، فأجزلوا لها المسوغات التي تبرر ما تمارسه من عسف وفظاظة وحطّ من شأن الثقافة الديمقراطية. فلا ينبغي أن ننسى أن سارتر، مع ما كان يعرف فيه من نباهة، قد انبرى، في أخريات أيامه، للدفاع عن الثورة الثقافية التي شهدتها الصين، وهي الحماقة التي أدت إلى تصفية أربعين مليونا من الصينيين كما تصفى الدواب. والحال أنني درجت، طوال سني شبابي، على سماع ما كان يقوله مثقفون من أمثال سارتر، وكانوا يعتبرون أكثر رجالات ذلك العصر إدراكا لحقائق الأمور، فأثروا بالغ التأثير في أفعال جيل كامل من البسطاء سريعي التصديق، بل وفي حركاته. فلم يسهم أي شخص قدر ما أسهم الكتاب — ومن بينهم ما كان من المبرزين في ذلك العصر - في تقديس المجرمين أمثال ماو، أو ستالين، أو هتلر، أو فرانكو. ولا يزال فيديل كاسترو في وقتنا الراهن، يجد من يقدسونه ويفتتنون به من أوساط المثقفين والكتاب. ولذلك أعتبر أن مسؤولية الكاتب لا تضمن له نباهة ولا قدرة على استجلاء غوامض الأمور.

هل تعتبر مناصرة الكاتب لأسوأ الأنظمة أمرا محتوما؟

- لا يستسلم الكاتب، ولا الفنان بشكل أهم، للرداءة. والحال أن الديمقراطية ترتبط بالرداءة أيما ارتباط. ففي نظر الفنان، تخلق القاعدة الغالبة مجتمعات وأنظمة حياة تفتقر إلى أية جاذبية. هذا الرفض للرداءة، وهذا الاندفاع الأهوج نحو الحدود القصوى، والثورات الشاملة، التي تطمح إلى تحقيق الكمال وتجسيد المطلق، تلك بعض العوامل التي ترمي بالفنان في أحضان الوحوش آكلي لحوم البشر. وتعتبر هذه من سمات عصرنا المؤسفة غاية الأسف. ولقد شهد هذا القرن كله فنانين كبارا كانوا يصابون بالعمى الكلي عندما ينظرون في الواقع السياسي لبلد أو نظام معين. وفي الوقت الراهن، وفيما يقتر المثقفون في مساندتهم للديمقراطية الجديدة التي قامت في بلدان أوروبا الشرقية، كأنما الناس في هذه البلدان بلداء أو متوحشون لا يستحقون التمتع بالحرية ولا يجيدون

استعمالها، يجدر بنا أن نربط بين الدوافع «الكليانية» الوحشية والثورية الخفية التي تذكي نزعات التغيير في بلدان العالم الثالث.

إنك، وأنت تدين، بأسى، الإرث السارتري وتنكر المثقفين الأوروبيين للحرية، تتوجه بالنقد كذلك، في كتابك هذا، إلى كل المثقفين في بلدك بيرو، الذين هم على استعداد لبيع جلودهم لمن يدفع أكثر.

ـ لقد كان مثقفو بلادي دائما ضد الدكتاتوريات العسكرية واستمروا على سنتهم تلك، إلى أن قامت دكتاتورية عسكرية يسارية. ففي تلك اللحظة استعادهم العسكريون بكل سهولة إلى جوارهم، وأعادوا إدماجهم داخل نظام فاسد، اغتال الصحافة والتلفزة وفرض الرقابة عليهما، دون أن تواجهه، في ذلك، أية صعوبة تذكر. ولقد عمل هؤلاء المثقفون جنبا إلى جنب وبالتنسيق مع هؤلاء الحكام. ومما لا حاجة هنا إلى ذكره أن المبدع البيروني الذي لا يكون «مستقيما» سياسيا يحكم عليه بالتهميش وتغلق المنافذ في وجهه، الأمر الذي يعرقل مساره الأدبي، ويجعل من الصعب عليه أن يستمر في إبداعه أو يأخذ بنصيبه من الحياة الثقافية. وهذا واقع يميز بلداننا من العالم الثالث يعود مثقفوها ـ الذين يمتلكون سلطة حقيقية ـ تدريجيا إلى الخوض في القضايا التي عرفتموها أنتم في الغرب، خلال سنوات السبعينات، أعني العودة إلى نقد الانخراط الحزبي بعد انهيار الاشتراكية الحقيقية.

هل أفهم من كلامك أنك لا تحمل أي ود لجابرييل جارسيا ماركيز وهو صديق فيديل كاسترو؟

ـ إن جارسيا ماركيز صديق للثورة الكوبية، لكنه يتكتم، بصورة مثيرة، هذا الموضوع في كتاباته. فهو لم ينشر أبدا، كتابا واحدا في موضوع «الكاستروية»، لأنه مجرد أداة، متزلف. وهذا أمر يثير الأسى. فكيف تريد مني أن أحترمه؟ إنني أفضل عليه صديقا آخر لفيديل كاسترو، ذلك هو ماريو بينيديتي، الذي نشر مجموعة من المؤلفات في خدمة النظام الكوبي. فأنا أحترم هذا الكاتب لأنه يحيا في انسجام مع أفكاره، لا تشغله الاعتبارات الانتهازية ولا اللهاث وراء الأمجاد. وفي هذا تفسير لكونه لا يعيش في الولايات المتحدة، ولا يتلقى منحا على غرار عدد كبير من كتاب أمريكا اللاتينية. ولقد اتهمني بعض

المثقفين أثناء الحملة الانتخابية بالعمالة للإمبريالية الأمريكية، وبكوني موظفا في أجهزة مخابراتها. والحال أن هؤلاء الأشخاص أنفسهم يحاضرون اليوم في أرقى الجامعات الأمريكية، ويبنون أمجادهم في عقر الإمبريالية، بينما يدبجون خطاباتهم التي يناهضون فيها الإمبريالية.

ألا ينطوي كفاح الكاتب في سبيل إضفاء الأخلاقية على الحياة الثقافية على مخاطر؟

ـ إنني لست من دعاة النقاء الفردي. وما أشجبه، هو الفساد الذي استشرى في الحياة الثقافية. فتلك الازدواجية الدائمة تضع جدارة الكاتب بالاحترام موضع تساؤل. فكيف نثق في حقيقة كاتب إذا كانت لا تخرج عن كونها مجرد استعراض؟

هل يعني هذا أن الحظوة والتأثير اللذين كانا للكاتب قد أخذا في الانحسار؟

ـ أعتقد ذلك. وليس لهذا الأمر أية علاقة بتأثير التلفاز الذي طالما اعتبر بمنزلة العدو العمومي الأول للكتاب. إن الكتاب أنفسهم يسهمون في الحط من صورتهم، ومن كلمتهم.

لكن ألم يكن هذا التبديد للأوهام أمرا ضروريا؟

ـ ربما كان كذلك. فمن المحتمل أن الكتاب، وهم يدعون الانتساب على نحو تعسفي إلى التقليد الرومانسي، إنما يغتصبون وضعا متميزا، بادعاء كونهم فئة تفوق سواها في الوعي. وقد لا يكون انحطاط صورة الكاتب ـ وهو ما حدث في المجتمعات الديمقراطية ـ أمرا مأساويا على العكس مما يعتقد البعض. كما أن اختفاء العظماء، الذين كان المرء يستمد من مواقفهم ما يهدي سبيله داخل المجتمع ـ من أمثال فيكتور هوجو، وإميل زولا، وأندريه جيد، وسواهم لا يعني نهاية الأدب.

فما الرسالة التي يبقى للأدب إذن أن يؤديها؟

ـ إنها رفض الواقع، برسم أشكال أخرى له، وإدراكه عن طريق إعادة بنائه، وإعطاء الإنسان إمكان تعرف ذاته من خلال تحكمه التام في كل الظروف المحيطة به. لكنني، وإن كنت أنتقد سارتر بهذه الحدة، مازلت أومن بإمكان تحول الكلمات إلى أفعال، عن طريق الوعي الفردي الذي يساعد الأدب على تشكيله.

وأية كلمة تبغض؟

ـ كلمة «صحيح». فأن أكون ضمن الرؤية الصحيحة للأشياء أمر يرهبني. إنني أكره هذه الكلمة، التي تحيل على المعتقل، مثلما تحيل على تصور أحادي وتعصبي للحقيقة.

وأية كلمة تحب؟

ـ كلمة «اختيار»، بكل تحديد لأنها كلمة تنطوي على قدر كبير من المسؤولية.

مراحل اكتساب الطفل للغة

تبدأ عملية التعلم التي تنتهي باكتساب الإنسان مهارة التكلم في الثلث الأخير من الحمل، فالرّضع يبدأون في محاولة الحديث بلغة خاصة بهم حتى قبل أن يستطيعوا التفوه بكلمة واحدة مفهومة.

تأليف: جون لوك*

ترجمة: د. إيهاب عبدالرحيم

العنوان الأصلي للمقال:

Phases in The Child's Development of Language. .

American Scientist: Vol. 82 (Sep. - Oct. 1994)

مراجعة: د. سناء الحمود

* مدير معمل اللغويات العصبية في مستشفى «ماسوتشوستس» العام في مدينة بوسطن الأمريكية وهو مدرس للأمراض العصبية في كلية «هارفارد» الطبية إضافة لكون مديراً لبرنامج الدراسات العليا في علوم الاتصال واضطراباتها في معهد التخصصات الطبية لمستشفى «ماسوتشوستس» العام. وهو حاصل على درجة الدكتوراة في باثولوجيا التخاطب وعلمالسمعيات منجامعة «أوهايو».

إن الوجوه المعبرة والحديث المعبر تشجع وتحافظ على العلاقة بين الأم وطفلها، وتستثير رد فعل اجتماعيا قد يكون رئيسيا في عملية اكتساب الطفل للغة. ويبدو أن الطفل يولدولديه قدرة على الفهم والاستجابة للتلميحات مثل تعابير الوجه والعروض ــ أي أنماط التوكيد والتنغيم في الحديث . فالطفل الذي لم يتعد عمره دقائق معدودة يستطيع تقليد تعابير الوجه، والظاهر هو أن التواصل اللغوي يعتمد كثيرا على هذا النظام الأساسي للتواصل الشعوري. ويبدأ الطفل بالابتسام والهديل، مما يجعل الكبار يقتربون منه، ثم يتقدم إلى «الرغي» عندما تتوافر له السيطرة العصبية اللازمة ويتحول الطفل إلى متحدث بدوره عن طريق هذا «الرغي» بإخراج الأصوات نفسها التي يخرجها الكبار أثناء حديثهم.

نحن البشر مخلوقات ثرثارة، على الأقل من وجهة نظر عالم اللغويات البريطاني «فراي» Fry الذي يرى تسمية الجنس البشري باسم «الإنسان المتحدث» بدلا من اسم «الإنسان العاقل» الذي نعرفه به الآن. فنحن قد نستخدم أكثر من 40 ألف كلمة في اليوم العادي، وهو ما يوازي ما بين أربع إلى ست ساعات من الحديث المتواصل. ويتفوه الأمريكي العادي، في ساعة واحدة من المناقشات الهادئة، بنحو 24 ألف مخرج صوتي منفرد.

ويستطيع حديثو الولادة، بعكس البالغين، أن يستمروا في إخراج الأصوات Vocalize لساعات متواصلة دون النطق بكلمة واحدة.

ولنتساءل كيف يستطيع الرضيع، والذي يعني اسمه حرفيا «غير القادر على الحديث»، أن يتحول إلى متحدث لبق؟ وتبدأ عملية اكتساب اللغة في أحيان كثيرة مع أول كلمات مفهومة ينطق بها الطفل، لذلك نسجل تتابع عملية اكتساب اللغة بدءا من هذه النقطة. ويقوم علماء تطور اللغويات، على سبيل المثال، بملاحظة العمر الذي يتم فيه استخدام الكلمات لأول مرة، وترتيب اكتساب التراكيب الإعرابية. لكن هذه العملية تترك لنا أسئلة حيوية دون أجوبة شافية: فلماذا يُقدِم الطفل على فعل أي من هذه الخطوات؟ وما الذي حفزه على الانتباه لحديث الكبار في المقام الأول؟ وما الذي يفعله الرضيع قبل أن يستطيع النطق بأولى كلماته؟ وما العمل البنيوي اللازم لحدوث هذه اللحظة الحاسمة؟

وقد ركزت في أبحاثي التي أجريتها في معمل اللغويات العصبية، التابع لمستشفى «ماساتشوستس» العام على تلك الفترة التي تسبق نطق الطفل أولى كلماته، فالمولود يستغرق نحو عام كامل لكي يبدأ في الكلام، ولكن خلال هذا العام تبدأ العديد من الآليات المتعلقة بالكلام في التكوّن وفي التحوّل إلى فعل إيجابي - وهو التكلم -، فالطفل «يسافر» إلى اللغة المنطوقة عبر طرق غير لغوية أو جار - لغوية، مثل اكتساب القدرات المفاهيمية والسلوك الصوتي والقدرة العصبية التي تعدّه للتحول إلى متحدث.

الجنس الناطق:

يعتبر كون الدارس لعملية التطور اللغوي هو ذاته متحدثا لبقا إعاقة له من نواح عدة، حيث إن طلاقة الحديث تجعل من الصعب على المرء أن ينحي جانبا مفاهيمه المسبقة حول اللغة وأن يستعيد القدرة على تصور نظرة الطفل الساذجة للكبار الذين يتحدثون بطلاقة.

ومن الوجهة التاريخية، فقد اعتبرت اللغة من الإنجازات الفريدة للجنس البشري، لأننا النوع الحي الوحيد القادر على إجادة القواعد النحوية أثناء الحديث

- أي تلك المنظومة من الترتيبات اللغوية التي نستخدمها عند تكوين الجمل التي ننطق بها.

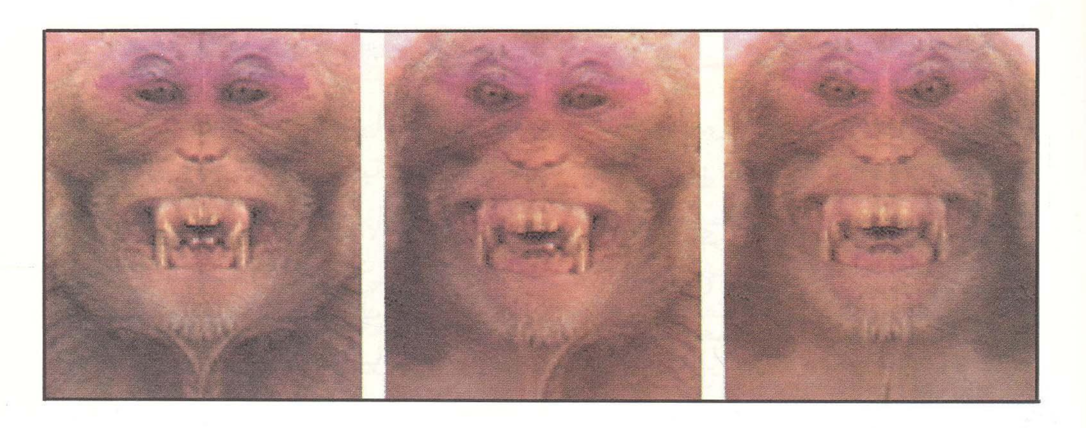
ويمكنني القول إن هذا الاختلاف بيننا وبين غيرنا من الرئيسيات يبدأ لسبب أساسي وبسيط وهو أننا نتحدث أكثر من غيرنا من الرئيسيات. فمجرد فعل «التكلم»، بغض النظر عما يقال أو حتى عما إذا كان هناك مايقال، قد يكون ذا أهمية كبرى في عملية اكتساب اللغة.

وقد لاحظ «ألين جاردنر» وزملاؤه في جامعة «يوتاه» منذ فترة وجيزة أن الشمبانزي حيوان صامت في أغلب الأحيان، لدرجة أن مجموعة برية منه قوامها عشرة حيوانات مختلفة العمر والجنس وتتغذى بسلام على شجرة تين في «جومبي» Gombe قد تصدر من الأصوات ما يجعل الباحث غير المتمرس لا يشعر بوجودها على الإطلاق حتى عند مروره تحت الشجرة نفسها.

لكن هذا لا يعني القول إن الرئيسيات من غير البشر لا تتعامل مطلقا بالأصوات فيما بينها. فعلى العكس من ذلك، تمتلك العديد من هذه الأجناس مجموعة متنوعة من الصيحات: فهناك صيحة للتحذير وصيحة للطعام وغيرها من الإشارات الصوتية. لكن غير الواضح حتى الآن هو كون هذه الصيحات مكتسبة أم أنها تستعمل بغرض الخداع، وهما من الصفات المميزة للمقدرة اللغوية للبشر.

ونحن نميل للاعتقاد بأننا نتحدث كثيرا نظرا لأن لدينا الكثير داخل عقولنا، أي وفرة من الأفكار التي لا يمكن التعبير عنها إلا بالكلام. ومع هذا فقد أثبتت الدراسات التي أجراها عالم البيولوجيا «دونبار» وزملاؤه من University College في لندن أن المناقشات التي

يقلد الأطفال حديث الكبار عبر الهاتف حتى قبل أن يستطيعوا النطق بالكلمات. ويمتاز البشر عن غيرهم من الرئيسيات بأنهم يتحدثون باستمرار، حتى ولو لم يكن هناك شيء مهم ليقال. ومن المحتمل أن الرغبة في تقليد هذا السلوك «الرائع» للكبار هي الحافز الذي يدفع بالأطفال لمحاولة اكتساب اللغة ، أكثر من حاجتهم إلى تعلمها من أجل توصيل المعلومات.



للتواصل الشعوري واللغوي أسس عصبية شديدة الاختلاف. وتظهر هذه الصور الاصطناعية، والتي أنتجت عن طريق استنساخ صورة «فيديو» لنسناس من نوع «ريزوس» أثناء تعبيره عن التهديد. ثم عكس الجانب الأيسر أو الأيمن من الصورة الأصلية (في الوسط). والصورة الاصطناعية اليسرى ـ اليسرى هي أكثر تعبيرا من تلك اليمنى ـ اليمنى، مما يشير إلى أن المشاعر تحس بصورة أقوى في نصف المخ الأيمن، والذي يتحكم في حركات النصف الأيسر للوجه. وقد وجد بالدليل المقارن أن التواصل اللغوي واقع تحت سيطرة نصف المخ المعاكس. مما يشير إلى أنه على الرغم من أن التواصل اللغوي قد يبنى أساسا على التواصل الشعوري، فإنه يكتسب الأسس العصبية الخاصة به في نهاية الأمر.

تظهر سيطرة نصف المخ الأيسر على الكلام بين سن الثالثة والسابعة. وقد يظهر الأطفال في مثل هذه اللقطات العائلية وكأنهم يتكلمون من الجانب الأيمن لأفواههم، مستخدمين أعصاب المسلك الصوتي الواقعة تحت سيطرة نصف المخ الأيسر.

تجري بيننا وبين غيرنا من البشر، حتى في أعرق الجامعات البريطانية، إنما تدور حول العلاقات والتجارب الشخصية والرياضة وأنشطة أوقات الفراغ وما شابهها. وقد وجد أن هناك أربع عشرة مناقشة فقط ــ من بين مائة خضعت للبحث ـ لها علاقة بالأمور الأكاديمية التي تدرس في الجامعة! ويعلق «دونبار» على هذا قائلا إن «المحتوى الفكري للمناقشات البشرية إنما هو ـ في كثير من الأحيان ـ تافه».

والأطفال الصغار هم متحدثون عظماء، بغض النظر عن وجود من يسمعهم أو عدم وجودهم.

ومنذ نحو سبعين عاما اكتشف عالم النفس السويسري جان بياجيه Jean Piaget، وجود ما أطلق عليه «الحديث البدائي» بين الأطفال، ومنذ ذلك الحين تم تأليف ثلاثة كتب على الأقل عن «حديث المهد» أو الحديث الذي يتفوه به الرضيع عندما يترك بمفرده على سريره الصغير.

والأطفال الصغار ينشغلون أيضا بما أطلق عليه أحد زملائي «المونولوجات الماراثونية»، أو نوبات الحديث المتواصل الذي ينشغل به الطفل عندما يكون بمفرده. وحتى عند وجود مستمعين، فهو كثيرا ما يستمر في التكلم دون أن يظهر النية للاشتراك مع غيره في الحديث. وإذا تساوى الرّضع في باقي الصفات الذهنية، فالمرجح هو أن الأطفال الأكثر «تحدثا» سيكتسبون اللغة أسرع من غيرهم.

وقد ذكرت «كاثرين نيلسون» من City University في نيويورك، في دراسة لها أجريت منذ عدة أعوام أن عدد المخارج اللفظية التي يتم تسجيلها في جلسة واحدة لطفل يبلغ من العمر عشرين شهرا تتناسب مع السرعة التي سيتعلم بها الطفل اللغة فيما بعد. إضافة إلى أن الأطفال «الثرثارين» يسجلون نقاطا أكثر من غيرهم في عدد من اختبارات التطور اللغوي الأخرى. وباختصار يبدو أن الأطفال يتعلمون اللغة عن طريق دفع أنفسهم إليها ـ بالحديث ـ دفعا.

الحديث الشخصي:

لا تولي معظم النظريات التي تفسر عملية اكتساب اللغة أهمية كبرى للغة كوسيلة للتفاعل الاجتماعي والعاطفي، في حين تركز فقط على دور اللغة في تبادل المعلومات المنطقية. لكننا عندما نتحدث، رغم أن نيتنا تكون دون شك هي الرغبة في نقل المعلومات الخاصة بموضوع حديثنا، فنحن نظهر أيضا قدرا كبيرا من المعلومات عن أنفسنا. فالطريقة التي نتحدث بها تقدم الأدلة على أعمارنا والطبقة الاجتماعية التي ننتمي إليها، والمستوى التعليمي الذي وصلنا إليه وموطننا الأصلي وهكذا. إضافة لأن تعبيرات وجهك وصوتك ينقلان ــ دون

قصد في كثير من الأحيان ـــ موقفك تجاه الشخص الذي تتحدث إليـه. وربما كانت الأوجـه الاجتماعية والعـاطفيـة، وليست الحاجة إلى نقل المعلومات، هي التي تدفع الطفل الصغير إلى محاولـة تعلم الكـلام. وأعتقـد أن الأطفال ـــ من أجل أن يقلـدوا الأشخاص الذين يـرتبطون بهم عاطفيا، والذين يقضون أغلب أوقاتهم في الحديث ـ قد ينتهون إلى الافتراض ـــ ولو جزئيا ـ بأنهم يجب أن يتكلموا أيضـا. وقد يظهر لنـا الطفل الـذي «يتحـدث» في لعبـة على شكل الهاتف لمحة عملية عن هذه النقطة، فالطفل يمسك بسماعة الهـاتف قرب أذنه وهو محدق في الفضاء ـ متخيلا مستمعا وهميـا ـــ ويبدأ في «الـرغي» ثم يتـوقف للحظـة قبل معـاودة «حديثـه» وهكـذا. ورغم أن الطفل قـد لا ينطق بأيـة كلمـة، فمن الواضح أنه يستمتع بمحاكاة وتقليد الكبار من حوله.

ولأن علماء اللغويـات قد أغفلـوا دور اللغة كوسيلة للتفاعل الاجتماعي وللتعبير عن المشاعـر، فيبدو أنهم قـد أغفلوا دور «العَـرُوض» Prosody (وهـــي أنماط التـوكيد والتنغيم في الحديث) وكـذا دور تعابير الوجه.

وقد ذكـرت «آن فيرنالـد» من جـامعة ستانفورد، والتي تقوم بـدراسة «حديث الأمهـات» (أي الحديث المبـالغ فيـه ـ عـروضيـا ـــ والـذي تـوجهـه الأمهـات لأطفـالهن) أنـه كلما غيرت الأمهـات من نبرات حديثهن، بـدت السعادة على وجوه الأطفال.

ويحب الأطفال الصغار الوجوه المعبرة بـالمثـل، ففي دراسـة أجـراهـا «إدوارد ترونبك» وزمـلاؤه في مستشفى الأطفال التابع لجامعة كولومبيا البريطانية بكندا، طلب من الأمهات أن ينظـرن إلى أطفالهن «بـوجـه غير معبر» فـوجـد أن الأطفـال يبتسمون بدرجة أقل، ثم ما يلبث الواحد منهم أن يهبط لأسفل في مقعـده ويتحول نظره بعيدا.

ويسهل ميل الأطفـــال لتتبع التغيرات الصوتيـة والوجهيـة من عمليـة اكتساب اللغـة بدرجـة كبيرة. وقد أضيف تأكيـدا أقوى، وهو أن الطفل يتلقى كل المعلومات التي يستطيع والـده أن يقدمها عـن اللغة المنطـوقـة عن طـريق هـذه التركيبـة «اللالفظية» من التلميحات.

وهـذه التلميحـات مفيـدة، على سبيل المثـــال، في تعلم الحديـث المرجعي (أي مفهوم أن الكلمات إنما تشير إلى أشيـاء). وعندما ينظر إلى عينيّ أمه، فهو «يرى» ما تفكر فيه وهي تحدثه، وبهذا يستطيع أن يستنتج مـايمكن أن تتحـدث بشأنـه. ويتعلم الطفل الكلمات عن طـريق الـربط بين أجـــزاء محددة من الكلمات التـي يسمعها والأشياء. وبهذه الطريقة يرتقي الطفل بحديثـه من كونه وسيلـة للتعامل الشخصي لكونـه وسيلة لإقامة العـلاقات مع العالم الخارجي.

المخ الاجتماعي والعاطفي:

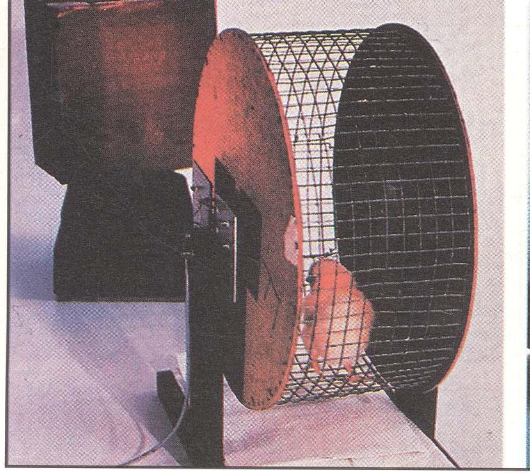
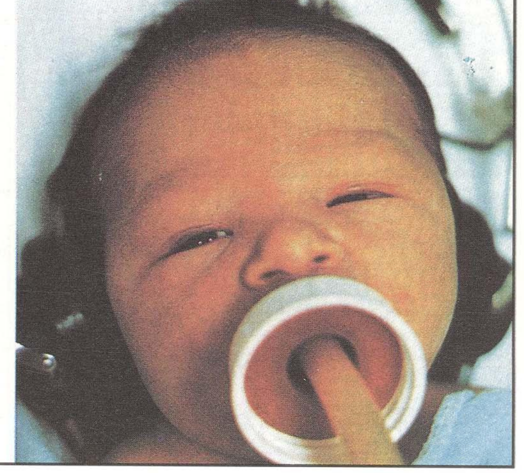
ركزت أغلب الدراسات التي أجريت عن الأساس البيولوجي للكلام على مخ البالغين وعلى اللغة المكتسبة بكاملها. وقد أصبح من المعروف منذ أكثر من قرن كامل من الزمان أنه عندما يصاب نصف المخ الأيسر بالتلف، يصبح الشخص البالغ «أحبس» Aphasic، أي أنه يصبح غير قادر على استعادة ونطق الكلمات بطلاقة. وبهذا نعرف أن «مراكز التكلم» في مخ الشخص البالغ تقع في نصف المخ الأيسر. ومع هذا، ففي الواقع لا تظهر هذه الهيمنة من نصف المخ الأيسر على عملية اكتساب اللغة إلا في مرحلة متأخرة منها، وقد ذكر «روبرت جريفز» من جامعة كولومبيا البريطانية عام 1983 أنه خلال فعل التحدث يبدأ النصف الأيمن من الفم في الفتح قبل النصف الأيسر إضافة إلى كونه ينفتح بدرجة أكبر ولهذا مغزى فسيولوجي، نظرا لأن الأعصاب المغذية للمسلك الصوتي تتصالب أثناء نزولها من المخ، أي أن النصف الأيمن من الفم ينفتح قبل النصف الأيسر لأن هذا الأخير يسيطر على عملية إخراج الكلمات. ومع هذا فقد اكتشفت أخيرا «ستاسي نيفل»، وهي إحدى طلبة الدراسات العليا الذين أشرف عليهم، أن هذا التباين بين نصفي الفم لا يوجد منذ الولادة، بل يظهر مابين سن الثالثة والسابعة. وإذا كانت المشكلة هي في اكتشاف الأساس البيولوجي لعملية اكتساب اللغة، وليس لمجرد اللغة المكتسبة ذاتها، فسيكون علينا فحص العمليات العصبية وراء التواصل الاجتماعي والعاطفي مع تلك الخاصة بالتواصل اللغوي. فالسؤال هو كيف يستطيع المخ أن يتعرف الوجوه أو الأصوات والمشاعر التي ينطوي عليها كل منها؟ ويظهر النصف الأيسر من الوجه في البالغين والأطفال الكبار، مشاعر أكثر من تلك التي يبديها النصف الأيمن. وهذا يتسق مع حقيقة أن نصف المخ الأيمن، والذي يغذي نصف الوجه الأيسر، هو أكثر انشغالا بعملية التعبير عن المشاعر من النصف الأيسر. وقد وجد زميلي في جامعة «هارفارد» ـ مارك هاوسر ـ أخيرا أن هذا التأثير تمكن ملاحظته في النسانيس من نوع «ريزوس» Rhesus Monkeys. وبالمثل فإن المحتوى الشعوري من الحديث، مثل محتواه من العروض، يتم إعداده تفاضليا في نصف المخ الأيمن. وباختصار فإن التواصل الاجتماعي «اللا لفظي» يبدو أنه يستند إلى آليات تقع أساسا في نصف المخ الأيمن.

وهذا التجنيب الوظيفي يكون أكثر أهمية إذا نظر إليه كتراث للتطور، وربما قبل وجود مايسمى بـ «اللغة المنطوقة» كانت المعلومات الصوتية بجميع أنواعها يتم إعدادها في كل من نصفي المخ. وبعد ذلك، عندما اكتسب أسلافنا السيطرة على

الأنشطة اليدوية مثل عمليات الرمي أو الإمساك بالأشياء بدأت أمخاخهم في التخصص، الذي أدى بدوره إلى تمكينهم من أداء الحركات اللفظية السريعة. وتشير تحليلات أنماط الإمساك بالأشياء في الرئيسيات من غير البشر إلى أن هذا «التخصص» ربما تحول إلى النصف الأيسر من المخ. فقد أتاحت القدرة على النطق السريع لأسلافنا تجزيء نتاجهم الصوتي إلى عناصر أولية يمكن دمجها أو ترتيبها حسب الرغبة. وقد كانت هذه المتتالية سريعة الحركة ترسل إلى نصف المخ الأيسر، والذي كان يتقن عملية التنسيق الحركي بصورة أفضل. وربما دفعت عملية الازدحام الناتجة إلى إيجاد مؤثر صوتي مع ترك السيطرة على هذه الوظيفة التواصلية المهمة للنصف الأيمن من المخ. ومهما كانت حقيقة هذا المشهد (السيناريو) التطوري، فمن الواضح أن آليات نصف المخ الأيسر لإعداد وإخراج الكلمات لم تكن لتكتسب بمعزل عن آليات النصف الأيمن لإعداد الحركات الوجهية والصوتية والإشارات المعنوية التي تتضمنها. ونادرا ما يذكر الشعور مرتبطا بعملية اكتساب اللغة، لكني أعتقد أن لهذا أهمية في عملية اكتساب اللغة لا تقل عن أهمية الحافز في عملية التعلم التالية. فالشعور يدفع الطفل إلى أن يكون اجتماعيا وليقلد سلوك الآخرين، وهو يعطيه معلومات شخصية مهمة لنقلها قبل أن يكتسب لغةوأفكارا معقدة. وتتميز الآليات الإعرابية لجنسنا البشري بحاجتها إلى التغذية المستمرة، ويبدو أنها تستوعب الألفاظ المختزنة في عقل الطفل الصغير من خلال عمل غيرها من الآليات الاجتماعية. وبعد ذلك، فلا يتعلم الطفل اللغة عن طريق الدراسة الاختيارية لقواعدها ومعجمها، بل يتعلمها بطريقة عرضية بشكل أو بآخر، أي «كأثر جانبي» للتواصل بالطرق اللا لفظية. ولنتساءل الآن بدقة:هل هذا هو ما يحدث بالفعل؟ وما الخطوات التي تغطى بها الفجوة بين عمليتي إصدار الأصوات والتعبير اللفظي. وتشير نتائج أبحاثي إلى أن اللغة تكتسب على مراحل متتابعة. والمراحل التي أعنيها ليست هي الخطوات التقليدية لعملية اكتساب اللغة، مثل تعرُّف وقع صوت ما، والإشارةPainting والرغي Babbling ثم نطق الكلمات، وهكذا. لكن ما أعنيه هو تلك الخطوات الأكثر أهمية لاكتساب المقدرة اللغوية والتي أطلق عليها اسم «التعلم الصوتي» والتخزين والتحليل والحوسبة ثم الدمج والإتقان.

المرحلة الأولى: التعلم الصوتي

هناك الكثير مما يجب على الطفل أن يتعلمه عن اللغة، ولذلك فهو يبدأ هذه العملية مبكرا. فالجنين الذي ينمو بصورة طبيعية يمكنه أن يسمع صوت أمه من داخل الرحم خلال الثلث الأخير من الحمل. وتظهر لنا التسجيلات

يجري فرخ البط، في هذه التجربة، على طاحون الدوس محاولا الوصول إلى «الأم» التي انطبعت في ذهنه (صندوق ملون في هذه التجربة). وفي تجربة أخرى، يرضع الطفل البشري من حلمة بسرعة معينة تستدعي (عبر سماعات الأذن) صوت أمه وهي تقرأ حكاية من خلال شريط تسجيل. فالأطفال يولدون ولديهم تفضيل لأصوات أمهاتهم، ربما بسبب اعتيادهم هذا الصوت أثناء الحياة الرحمية.

الصوتية من داخل الرحم أن صوت الأم يمكن سماعه بوضوح أكبر من أصوات غيرها من الناس. وربما كان تفضيل الوليد لصوت أمه نتيجة لهذا التعرض قبل الولادي، وقد كان عالم السلوك الجنيني «جيلبرت جوتليب» من أوائل العلماء الذين أظهروا أن التعلم قبل الولادي قد يفسر بعض سلوكيات الوليد، وقد علل جوتليب تفضيل البطيطة -Duck ling أصوات فراخ البط أثناء الفقس بأن هذا قد يكون نتيجة سماعها صوتها هي نفسها من داخل قشرة البيضة. ولاختبار صحة هذه الفرضية، قام «بعزل صوتي» مؤقت لمجموعة من الأجنّة عن طريق لمس قنواتها السمعية بإبرة تحت جلدية ذات طرف غروي. وعند الفقس أظهرت المجموعة الضابطة تفضيلا لأصوات جنسها المعتادة، لكن الفراخ التي أجريت لها عملية العزل الصوتي تبين أنها تنجذب لأصوات أفراد جنسها إضافة لأصوات الأجناس الأخرى. وقد ظهر تفضيل حديثي الولادة من البشر لأصوات أمهاتهم من خلال الأبحاث التي أجراها كل من أنتوني دي كاسبر من جامعة نورث كارولينا ووليم فاينر من معهد ولاية نيويورك النفساني، فقد أعطي الرّضع حلمات من البلاستيك متصلة بحاسوب يقوم بتشغيل تسجيلات صوتية. وقد تمت برمجة الحاسوب بحيث يتم بث صوت الأم أو غيرها حسب السرعة التي يمص بها الرضيع، وقد وجد أن الرضع عادة ما

تتزامن بداية «الرغي» مع بداية «رج الخشخيشة» العنيف أثناء نمو الطفل. وهذا يشير إلى أن كلا من عمليتي التكلم و«رج الخشخيشة» واقعتان تحت سيطرة آليات عصبية واقعة داخل النصف المخي نفسه. وباعتبار الميل إلى «رج الخشخيشة» باليد اليمنى، يبدو أن هذه الآلية توجد في نصف المخ الأيسر، وبهذا قد تشير بداية «الرغي» إلى بداية سيطرة نصف المخ الأيسر على عملية التكلم.



يمصون الحلمات بالسرعة التي تمكنهم من سماع أصوات أمهاتهم مهما كلفهم هذا من جهد في الرضاعة. وفي حين يتم قياس سلوك فراخ البط في المثال التالي بعدد الدورات في الثانية، يقاس سلوك الرضع من البشر بعدد المصات في الثانية. وبسبب التعرض قبل الولادي، فقد يبدأ الرضيع حياته بتفضيل لغة أمه، إضافة إلى صوتها. وقد وجد جاك ميهلر وزملاؤه من معمل العلوم الاستعرافية واللغوية النفسية الفرنسي، أن الرضيع البالغ من العمر أربعة أيام، والمولود في باريس لأم ناطقة بالفرنسية، يفضل صوت اللغة الفرنسية على الروسية مثلا.

في السعي نحو التكلم:

يمكننا فهم رغبة الرضيع في سماع صوت أمه بصورة أفضل إذا نظرنا إليها في إطار «الانطباع السلوكي»، وهي ظاهرة درست بصورة جدية لأول مرة على يد «كونراد لورينتز» Lorenz وهو عالم بدراسة سلوك الحيوان، في الخمسينات، فقد وجد لورينتز أن فراخ البط تتبع أي جسم متحرك تراه بعد الفقس مباشرة. ويقوم اليوم يوهان بولهيوز وغيره من علماء الحيوان في جامعة كمبردج بدراسة فراخ البط في دواليب دوارة وهي تعدو مسرعة نحو- ولكن دون الوصول إلى — أجسام «منطبعة» موضوعة على مسافة عدة

أقدام أمامها. وحتى يستطيع الرضيع من بني جنسنا أن يحبو، لا يتمكن من انتهاج هـذا السـلوك «الاتبـاعي» وبالتـالي لا يستطيع أن يصل إلى الصـور والأصوات التي يميل إليها. لذلك فلـديه حيلة أخرى تأتي بـالنتائج نفسهـا تقريبـا، إذ يمتلك تحكما في «العضلات الاجتماعية»، والتي تظهـر الابتسـام والهديل، وفي دور الحضانة تؤدي هذه الأفعال دور السلوك الاتباعي نفسه، مع اختلاف وحيد هو أن هذه الإيماءات تعمل بطـريقةعكسية، أي أنها تجعل الكبار يقتربـون من الرضيع، حتى مجال رؤيته الواضحة على الأقل.

لغة الأم:

إن الـرابطـة بين الأم ورضيعهـا هي المنشأ الـذي يدفع عجلـة اكتساب اللغـة قدما. وهذه الرابطـة الشعوريةهي القناة التي تنتقل عبرها المشاعر عادة في صورة التعابير اللفظية والوجهية. وتستغل اللغة المنطوقـة هذه القناة المفتوحـة، مستفيدة من الرابطـة الموجودة بين الأم ورضيعها بـدمج معلـومـات جـديـدة داخل تيار التلميحات نفسه. وإذا كان الارتباط بالأم يلعب مثل هـذا الـدور الرئيسي في عمليـة اكتسـاب اللغة، فيمكن أن نتـوقع أنـه لن يتم تعلم لغات الغرباء بدرجة كفاءة تعلم لغة الأم نفسها، وهذا هـو الواقع بالفعل، فقـد أشـار كـم كبير من الأبحـاث إلى أن اللغة التي يتم تعلمها بعد سن الثامنة هي أكثـر احتمالا لأن تُنْطَق «بلكنـةأجنبيـة» تمكن مـلاحظتها بسهولـة. ولم يتم فهم انخفاض الحسـاسية اللغـوية بصـورة كاملة حتى الآن، لكنه مـن المفيد مراجعة الأبحـاث الخاصـة بعمليـةالتعلم في الحيوان. فقـد تعرف عالما دراسـة سلوك الحيـوان بجـامعـة كمبردج، بـاتـريك باتسون وروبـرت هايند عملية تطورية أسمياهـا «الإقصـاء التنـافسي» Com-petitive Exclusion بمعنى أنـه إذا كان لآلية مخية مـا قدرة محدودة، فيمكن أن تحتل بفعل الاستثارات المبكـرة، ومن ثم تصبح غير حساسة لـلاستثارات التالية من الأنـواع الأخـرى. ويمكن أن يفسر وجود تأثير مماثل في الإنسان سبب كون لغة الأم هي نفسها لغـة رضيعها حتى لو نشأ هـذا الـرضيع وسط بيئـة متعـددة اللغات.

المقاطع الصوتية:

يكون معظم التعلم الصوتي في السنة الأولى من عمر الطفل إدراكيا فحسب، لذا فهـو لا يدع إلا القليل ممـا يمكن للآبـاء الفـرحين أن يسجلـوه على أشرطـة التسجيل. ولكن هذا الوضـع يبدأ في التغير عندما يمتلك الطفل السيطرة على حركات فمه، وهي ما يبدو أن الرئيسيات من غير البشر لا يمتلكـونها على الإطـلاق. وبعـد ذلك يبدأ الطفل في إصدار أصوات تختلف جـذريـا عن الصرخـات ، والهديل، والصيحات التـي كان يصـدرها سـابقا. فهو يصـدر مقاطع جيدة التكـوين، وهنا

نقول إن الطفل قد بدأ «الرغي». ويرجع الفضل بدرجة كبيرة في معرفتنا بأن «الرغي» يبدأ عندما يبلغ الطفل ستة إلى ثمانية أشهر من عمره، إلى الأبحاث التي قام بها كيم أولر وزملاؤه في جامعة ميامي. ويبدأ الطفل في فتح وغلق فمه إيقاعيا أثناء إصداره الأصوات، وهو الفعل الذي تصدر عنه مقاطع صوتية تشبه كثيرا تلك التي يصدرها البالغون أثناء حديثهم. ويبدو في الواقع أن حديث الرضع مثل كلمات «ماما» و«بابا» و«باي باي».... تتكون أساسا من كلمات لها الشكل الساكن نفسه ـ اللين التكراري للرغي، ربما لأن الكبار يحاولون النطق بكلمات يستطيع الأطفال تكرارها. وهذا لا يعني أن نعتبر «الرغي» مجرد عملية محاكاة. ففي الواقع أن «الإلهام» الذي يؤدي إلى حدوث الحركات المخرجة للصوت غالبا ما يأتي في معظمه من داخل الطفل نفسه. فالأطفال المولودون بصمم خلقي يبدأون في الرغي متأخرا ويكون لديهم مخزون ضئيل من الأصوات مقارنة بأقرانهم الأصحاء، أي أن الصمم يؤخر بداية الرغي، ولكنه لا يلغيه تماما. وبالإضافة لهذا، يبدو أن هذا التأخير يحدث بسبب عدم تمكن الطفل من سماع نفسه، لا من سماع الآخرين. وهذا، على الأقل، هو مضمون الدراسات التي أجريت على الأطفال الذين تعرضوا لعملية فغر القصبة الهوائية (وهي عملية جراحية يتم فيها فصل القصبة الهوائية عن البلعوم) إذ وجد أن هؤلاء الأطفال يستطيعون سماع أصوات غيرهم، ومن ثم يتمكنون من أداء الحركات المصاحبة للرغي، لكنهم لايستطيعون أن يستمعوا للرغي الخاص بهم.

وقد قمت، بالاشتراك مع داون بيرسون في معمل اللغويات العصبية، بدراسة حالة طفلة صغيرة اسمها «جيني» أجريت لها عملية فغر القصبة الهوائية عندما بلغ عمرها خمسة أشهر ـ أي قبل شهر أو أكثر من البداية الطبيعية للرغي ـ حتى بلغ عمرها عشرين شهرا، ولأن جيني كانت تفهم اللغة المنطوقة وقتها، فقد أردنا معرفة ما إذا كانت ستتمكن من الكلام بمجرد أن ينتهي الأطباء من إغلاق الفتحة الجراحية في القصبة الهوائية ومن ثم استعادتها صوتها. لكن ماحدث هو أنها بدأت في إصدار أصوات بدائية يتوقع سماعهامن الأطفال عند سن خمسة أشهر. لذا فمن الواضح أن النمو الجسدي ليس كافيا لحدوث النضج الصوتي الذي يعتمد بدوره على التأثير المشترك لكل من النمو والتجربة العملية. وتشير أبحاثنا المعملية الأخرى إلى أن بداية «الرغي» تتزامن مع تطور الآليات العصبية اللازمة للنطق بالكلمات، وقد أظهرت إحدى هذه الدراسات وجود زيادة حادة في معدل حدوث «هز الخشخيشة» Rattle Shak-ing، خصوصا ذلك الذي يصيب اليد

اليمنى، في الوقت نفسه الذي يبدأ فيه الرغي تقريبا. فعندما ينهمك الطفل في هز «الخشخيشة» بيده اليمنى، ينشغل نصف مخه الأيسر بالتحكم في نشاط حركي تكراري ذي نتيجة سمعية. وعندما يبدأ الطفل في الرغي ينشغل نصف مخه الأيسر بالتحكم في نشاط سمعي إيقاعي مماثل. وعلى هذا، فقد يعني الرغي تحديد بداية سيطرة نصف المخ الأيسر على عملية إخراج الأصوات. وتشير الأبحاث أيضا إلى أن الرغي ماهو إلا ناتج بيولوجي، أي أنه ليس ناتجا بفعل البيئة اللغوية المحيطة بالطفل. فقد قمت في بداية الثمانينات بدراسة الرغي في الأطفال الذين نشأوا وسط مجتمعات لغوية متباينة، فوجدت أن لكل منهم المخزون الصوتي نفسه. بالإضافة لكون كثير من الأصوات التي يصدرها الطفل أثناء الرغي تستمر حتى بداية مرحلة التكلم فيما عدا تعديلات طفيفة للغاية، وهي تتحول في النهاية إلى «الوحدات اللغوية» بالنسبة للطفل. والواقع أن الأصوات التي تتكرر كثيرا أثناء الرغي تشبه «الفونيمات» الموجودة في معظم لغات العالم. وقد لاحظت أيضا وجود تمايز مثير بين الأصوات التي يخرجها الطفل في مرحلة مبكرة وبمعدل عال، وتلك التي يخرجها في مرحلة متأخرة أو التي يرددها بمعدل أقل. فالأصوات التي تصدر مبكرا مثل «الميم» في كلمة «ماما» تظهر في جميع اللغات تقريبا وتنطق بالصورة نفسها عموما. أما الألفاظ التي تظهر متأخرا أو تلك النادرة مثل حرف R في نطق الأمريكيين لكلمة Rabbit (أرنب)، فتوجد في القليل من اللغات، إضافة لكونها تنطق بأشكال عدة. وبنظرة إحصائية بحتة، سنجد أن لحرف «الميم» الشائع نحو 20 شكلا أكثر من حرف «الراء» R الأقل شيوعا. أما من وجهة النظر البيولوجية المجردة، فيتوقع المرء أن يجد أن «الفونيمات» الشائعة أقل تأثرا بالبيئة المحيطة بالطفل، وأنها تظهر بأشكال أقل في اللغات المختلفة. وقد ثبت في الواقع أن «للميم» أشكالاً تقل عن نصف تلك التي «للراء». ويبدو أن الإيماءات اللفظية الشائعة، مثل «الميم» تنتج عن برامج حركية مغلقة نسبيا أو أنها لا تتأثر بما يسمعه الطفل. أما الإيماءات الخاصة باللغة، مثل «الراء» فهي أكثر انفتاحا أو أنها أكثر قابلية للتأثر بالبيئة اللفظية المحيطة بالطفل. لكن الاستنتاج العام هو أننا في كل مرة نفتح فيها أفواهنا للتحدث، نكشف عن وجود أساس بيولوجي لا يمكن السيطرة عليه. وإذا أمكننا استعادة التاريخ اللغوي، فلن أستغرب لوجود كلمة «ماما» ضمن كلمات أسلافنا الأوائل. ففي الواقع أن كلمات الأطفال الصغار قد تكوّن لب المعجم الأولى لبني الإنسان. وأنا لست أول من يعتقد بهذا، فقد كتب «تشارلز جونستون»، وهو عالم مستقل ورحالة دولي ومترجم للنصوص السنسكريتية

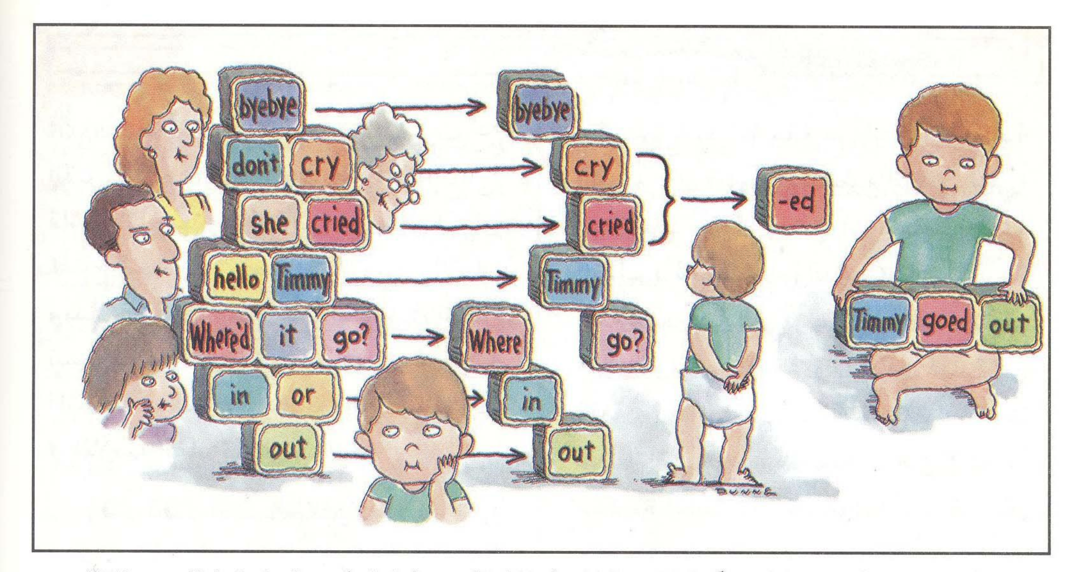
Sanskrit القديمة، منذ ما يقرب من القرن في مجلة Fortnightly Review قائلا إننا «سنجد في ثرثرة كل طفل تكرارا لمفتاح ضئيل من أصوات الإنسان الأول، وبملاحظة أولى حركات الكلام في الطفل نستطيع أن نرى الخطوات الأولى للغة المنطوقة، والتي مر بها كل العالم البشري في الأزمنة الغابرة».

وقد اكتشف في السنوات الأخيرة أن أصوات اللغة تزحف إلى المخارج الصوتية للطفل قبل الفترة التي كنا نعتقدها في السابق، أي قبل أن ينطق الطفل بأولى كلماته التي يمكن تمييزها. فقد ذكرت بنيدكت دي بويسون - باردي وزملاؤها في المركز الوطني الفرنسي للأبحاث العلمية في باريس، أن الرغي يميل للاتجاه نحو الأصوات المسموعة. كما لاحظت لورا بتيتو من جامعة مكجيل في كندا وجود اتجاهات مماثلة في الأنشطة اليدوية التي يمارسها الأطفال الذين ولدوا لآباء بُكم.

المرحلة الثانية: التخزين

ذكرت الأبحاث التي أجراها منذ عدة سنوات بيتر مارلر وزملاؤه بجامعة كاليفورنيا في ديفيز أن الطيور تختزن «أغانيها» لفترة طويلة قبل أن تتمكن من إظهارها بصورة شدو الطيور الذي نعرفه. كما أظهرت أبحاث إليزابيث بيتس وزملاؤها بجامعة كاليفورنيا في سان دييجو أن الطفل يستطيع فهم الكلمات والجمل عندما يبلغ من العمر ثمانية أشهر، أي قبل أن يستطيع التفوه بشيء بفترة طويلة، وقبل أن يستطيع تعلم القواعد التحكيمية والتشبيهات المجردة للغة النحوية التي ينطق بها الكبار. وقد يكون أول حديث مفهوم للطفل عبارة عن كلمة أو ما يبدو كجملة. ومع ذلك، فهذه الجمل هي مجرد متتابعات من الكلمات متكررة الحدوث في حديث الآخرين، مثل «افتح الباب» أو «أين هي؟». ويبدو أن حفظ هذه الكلمات يتم «بالجملة» ودون فهم لمعانيها. وهذه «الوحدات الطويلة» للكلام ـ كما تطلق عليها «آن بيترز» من جامعة هاواي ـ من وجهة النظر الوظيفية، تمكن الطفل الصغير من التحدث بطلاقة معينة قبل معرفته للكلمات ـ أو حتى قبل أن يعرف أن هذه الألفاظ هي كلمات ـ المطمورة داخل هذه الجمل.

وبما أن الببغاوات يمكنها ترديد الكلمات دون أن تفهم اللغة، فليس هناك سبب لحاجة أطفالنا إلى المعرفة النحوية لفهم أو لنطق الكلام. فالطفل يستطيع الحديث قبل تطور آلياته النحوية بنحو عشرة أو اثني عشر شهرا، وبالطبع قبل حدوث النمو المعرفي الذي يحتاج إليه لمعرفة أن الصيغ الشبيهة بالجمل يمكن أن تستخدم في المعاملات الشخصية. وقد لاحظ عالم اللغويات البريطاني مايكل هاليداي أن ابنه الثرثار والبالغ من العمر



ربما يجبر الطفل على تشغيل الآلية النحوية لنصف المخ الأيسر بفعل التفجر الحادث في قاموسه المتنامي، فالأطفال يعتادون تخزين مايسمعونه، قبل أن يتمكنوا من الحديث بفترة طويلة. ويمر الطفل عند سن 16 شهرا بطفرة في قاموسه التعبيري. وهو يكتشف بعد شهور عديدة أن الألفاظ تتكون من وحدات من المادة الصوتية. وهو يكتسب، في الوقت نفسه تقريبا، القدرة على تكوين ألفاظ جديدة باتباع القواعد في تجميع هذه الوحدات، فهو قد يستخلص من ألفاظ مثل «لا تبك» Do not cry و«هي بكت» She cried قاعدة أن الزمن الماضي لفعل ما ـ في الإنجليزية ـ يتكون بإضافة الحرفين ed إلى جذر الكلمة، ومن ثم يطبق هذه القاعدة على أفعال مثل فعل «يذهب» Go قائلا Goed. وتتسم هذه الخطوة النهائية في عملية اكتساب المهارات اللغوية بارتكاب الأخطاء النحوية التي كان الطفل في السابق محصنا منها.

18 شهرا «ليس لديه مفهوم عن اللغة كوسيلة لنقل تجربة ما إلى شخص لم يشاركه هذه التجربة بالفعل» على حد قوله. وبما أن الأطفال يبدأون في الحديث قبل معرفتهم بقواعد اللغة، فحديثهم ليس خلاقا إلى حد ما، فقليل هو ما يقولونه عما لم يسمعوا به من قبل. إضافة لأنه على الرغم من أن القدرة المتنامية على الحديث تتيح للأطفال الحديث قبل أن يبلغوا سن إدراك القواعد اللغوية، فهذه القدرة لا تتيح لهم اكتساب قدر كبير من الكلمات. وربما كان هذا راجعا لأن المواد الصوتية التي لم يتم تحليلها إلى مكوناتها ذات تأثير «مانع» على الذاكرة. وتستطيع الرئيسيات من غير البشر مضاهاة قدرة الطفل ذي الثمانية عشر شهرا على تخزين المواد الصوتية وتعرفها، إضافة للربط بينها وبين الأشياء الموجودة في البيئة المحيطة بالطفل. فالقرد «كانزي»، وهو شمبانزي من نوع «بونوبو» والذي تمت دراسة سلوكه بوساطة فريق من العلماء بقيادة «سو سافاج ـ رومبوج»، يستطيع أن يفهم معاني مئات من الكلمات، كما يمكنه أن يستجيب بصورة صحيحة لجمل لم يسمعها من قبل. وعلى ذلك، فأطفال البشر لا يتفوقون على غيرهم من الرئيسيات قبل بلوغهم المرحلة التالية من



تستطيع الرئيسيات من نوع غير البشر أن تضاهي قدرة البشر اللغوية حتى عمر السنتين فقط. ويمتلك «كانزي»، وهو شمبانزي من نوع «بونوبو» تم تدريبه على أيدي فريق من العلماء بقيادة سوزان سافاج ـ رومبوج (يسار الصورة)، قاموسا إدراكيا بصورة ما، ويستطيع إطاعة أوامر على درجة من التعقيد. أما ما ينقصه، والذي يكتسبه الأطفال عند عمر السنتين، فهي الآلية اللغوية التي تتيح التعبير عن الأفكار عن طريق تجميع متتالية من الإشارات حسب قواعد معينة.

مراحل التطور اللغوي. ويقوم نصف المخ الأيمن حتى هذه المرحلة بالكثير من عمليات التعلم والتخزين. وتشير الدراسات الحديثة التي تقوم بها «جولي إيسل» مع «دوروثي أرام» من كلية «إيمرسون» في بوسطن، إلى أن التلف الذي يصيب نصف المخ الأيمن قبل سن السنتين يعوق عملية اكتساب اللغة أكثر مما يفعل تلف نصف المخ الأيسر. فأهمية نصف المخ الأيمن لا تبدأ في الاضمحلال إلا في المرحلة التالية من عملية التطور اللغوي. ويقوم الطفل بربط الكلمات ببعضها لأول مرة عندما يبلغ عمره نحو 24 شهرا. ويعتبر دريك بيكرتون من جامعة هاواي أن عمر السنتين هو سن

بداية انفصال الأصوات التي يصدرها أطفال البشر عن تلك التي يصدرها غيرهم من الرئيسيات المدربة على فهم لغة الإشارة. أما دونالد تاكر من جامعة أوريجون فهو يعتبر هذه السن نفسها بداية لإعادة التنظيم العقلي المؤثر في السلوك العاطفي والحركي واللغوي للطفل.

المرحلة الثالثة: التحليل والحوسبة
(Analysis and Computation)

وهكذا، فإن سن السنتين هو الزمن التقريبي لظهور وحدات قياس لغوية خاصة في المخ. وتكون هذه تحليلية في تطورها وحواسيبية في وظيفتها، فهي تحدد العناصر المتكررة في ألفاظ الطفل المختزنة، وبهذا يتعلم القواعد التي تنتظم بها المخارج اللفظية في حديث الكبار. وأكثر الأدلة إقناعا على وجود «محلل» Analyzer في المخ هي الأبحاث التي أجراها كل من جاري ماركوس وستيفن بينكر وزملاؤهما في معهد ماساتشوستس للتقانة (M. I. T) والتي دلت على أن الأطفال بين سن 20 و36 شهرا يبدأون فجأة في ارتكاب أخطاء نحوية، في حين أنهم قبل هذا الوقت قد يقولون «ذهب» Went عندما يُطلب منهم ذكر ماضي فعل «يذهب» Go، لكن الواحد منهم يبدأ فجأة في ارتكاب الأخطاء مثل (Goed) بدلا من Went وMouses بدلا من Mice عند الحديث عن الفئران.

وتشير هذه الهفوات إلى أن الطفل، بدلا من مجرد تكرار ما يسمعه، قد بدأ في «حوسبة» الكلمات من عناصرها الأولية. ورغم أنه قد يبدو وقتها وكأنه يتأخر، فإنه يتقدم سعيدا للأمام. فهو قد اكتشف، ويطبق، القواعد نفسها التي يستخدمها الباقون من الزمن الماضي إلى صيغة الجمع. لكن هذا العمل الحواسيبي يعتمد على نجاح الأعمال التحليلية السابقة، والتي يكتشف من خلالها الطفل أن ألفاظه المختزنة إنما تتكون من وحدات كلامية أصغر. واعتقد أن نقص المخزون من المواد الصوتية الخام يدفع مخ الطفل إلى استحداث آلية تحليلية للتغلب على هذه المشكلة، فالطفل يظهر بين عمر 16 و18 شهرا تسارعا ملحوظا في عدد الكلمات والجمل الجديدة التي يمكنه فهمها. وإذا لم يكتشف الطفل وحدات الكلام وقواعدها الترتيبية، فسرعان ما يفيض هذا المعجم المتنامي من الكلمات الجديدة على الذاكرة المتاحة للمخ. وقد اكتشفت «روبن ماونت» وزملاؤها من كلية «ويلوك» Wheelock، من خلال تجربة يتم فيها عرض الرسوم جنبا إلى جنب بوساطة شاشتين متحركتين، أن الطفل يميل للنظر إلى الصورة اليمنى خلال المرحلة العمرية ذاتها، أي من 16 إلى 18 شهرا. ويتناسب هذا «الانحياز» للنظر إلى الجهة اليمنى مع متوسط طول الألفاظ التي ينطق بها الطفل. ويشير هذا إلى أن الطفرة المعجمية يمكن أن تعزى لاستثارة

عمل آلية تحليلية في نصف المخ الأيسر. فعندما يقوم الطفل بتحليل الكلمات، فإنه يكتشف «الفونيمات»، أي الوحدات الوظيفية التي تعطي اللغة المنطوقة تنوعها ومرونتها، والمبدأ «الفونولوجي» القائل إن آلاف الكلمات المكونة للغة ما هي إلا متتاليات مختلفة لعناصر أبسط قليلة العدد. وبهذا يتجنب الطفل «الحفظ الصم» لآلاف من الأنماط الصوتية - أي نمط واحد لكل كلمة - ومن ثم يتعامل مع الكلمات على أنها تجميعات من 40 أو نحوها من الفونيمات التي تتكون منها لغة مثل الإنجليزية على سبيل المثال.

المرحلة الرابعة: الدمج والإتقان

يقرر الأطفال الذين يبلغون هذه المرحلة من التطور اللغوي في الموعد الطبيعي أن يكتسبوا قدرا كبيرا من المعرفة اللغوية وأن ينشروها بسهولة متزايدة. وبمجرد أن يدمج الطفل آليات التحليل والتخزين معا يمكنه اكتساب معجم أوسع بكثير. وتنتج القواعد عند تطبيق التحليل التركيبي على الصور الصوتية المختزنة. وتفرض هذه القواعد بدورها ترتيبا خاصا على الألفاظ الصوتية الواردة، مما يسهل تعلم المزيد من الكلمات الجديدة. وعلى سبيل المثال فإن معرفة أن الأسماء في اللغة الإنجليزية تسبق غالبا بحرف a أو the، وأنها تتحول إلى صيغة الجمع بإضافة الحرف S في نهايتها، تسهل على الطفل تحديد مواقع الأسماء في الجمل، وبهذا يتمكن من تعلم المزيد من الأسماء الجديدة. وأثناء توسع قدرة الطفل المعجمية، تصبح عملية تكوين الجمل تلقائية شيئا فشيئا. ويبدأ الطفل المتكلم، مع استمرار تنغيم القواعد النحوية وتذكر الأشكال الشاذة للكلمات، في التحدث بصورة تشبه أكثر فأكثر حديث الكبار الذين يحاول تقليدهم. وهو يكتشف في الوقت نفسه الأساس الرئيسي لعملية التعامل بين البشر، وهو أن لكل منهم حياته العقلية التي تختلف عن حياته الخاصة، وبمجرد تحقق هذا الهدف، يتحول الطفل بدوره إلى «إنسان متحدث» قادر على استخدام الكلمات لنقل أفكاره ومشاعره إلى الآخرين، والتي لم تكن متاحة في السابق إلا له وحده. ولجنسنا البشري تخصص عصبي للغة المنطوقة. ومثل غيرها من ضروب السلوك التي تم التحكم فيها مسبقا بصعوبة، يلزم الكثير من التدخل الجسدي والبيئي للسيطرة عليها. ويمتلك جميع الأطفال ذوي الأجهزة العصبية السليمة القدرة الكامنة على تعلم اللغة المنطوقة. وبشرط وجودهم وسط متحدثين مفيدين لدرجة معقولة، سيتمكن أولئك الأطفال بدورهم من أن يعبروا عن أنفسهم بلغة منطوقة.

الميلاد العنيف لكوكب الأرض

لقد كانت الخمسمائة مليون سنة الأولى من عمر الأرض بالغة العشوائية والاضطراب والعنف، وتنحو لتحديد مصير الأرض بشكل حاسم أكثر من أي شيء آخر حدث منذ ذلك التاريخ.

تأليف: جو آلبر

ترجمة: حازم فرج

العنوان الأصلي للمقال:

Earth's Violent Birth, EARTH December 1994.

مراجعة: د. مصطفى معرفي

قبل مايقارب 4,5 بلايين سنة، غطت بحور من الصهارة كلا من الأرض والقمر. يبدو هنا القمر في أمامية الصورة، فيما تلوح الأرض فوق الأفق مطوقة بالحطام النيزكي الذي سيجتذبه القمر ليتساقط فوق سطحه.

الحياة تبدأ

- الأكسجين القاتل يكاد يقضي على الحياة
- الكوكب الأرضي يختنق تحت الرماد البركاني
- انفلاق القارات العظمى
- كويكب عملاق يضرب الأرض
- الجليد يزحف على سطح الكوكب الأرضي

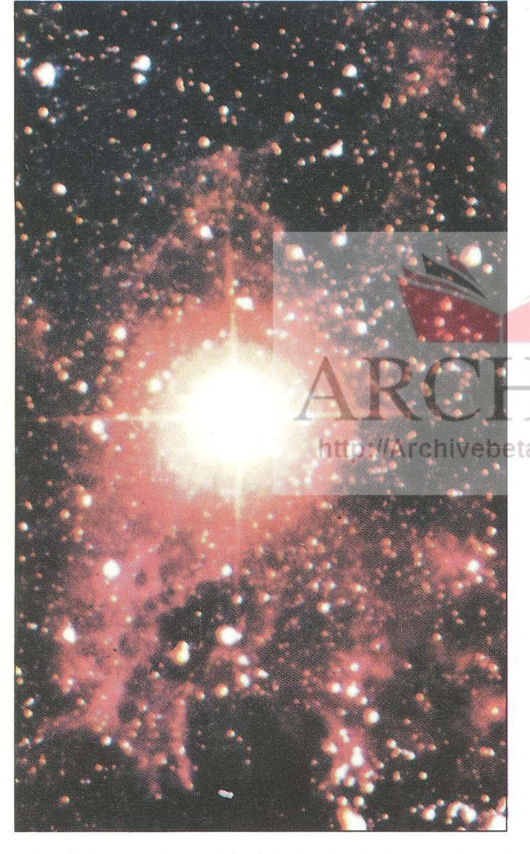
لو كـان ثمة وجـود لصحافـة تغطي الأحداث الأولى في تـاريخ الأرض، لكانت العنـاوين السـابقـة من بين الأكثرشهـرة في غضـون الأربعـةبلايين سنـة الأخيرة أو نحـو ذلك، لكن الاهتمام توارى عن قصة أخرى لا تقل عن سابقتها روعة وتشويقا. إنها قصة كوكب الأرض في أيامه الأولى:قصته في التحامه واندماجه وتكونه من فتات نيزكي يكاد لا يكون شيئا بذاته، وذلك قبل مايقارب 4,6 بلايين سنة وقبل 700 مليون سنة من ظهور أية بارقة للحياة. إنها قصة تكتنفهـا الدراما، آلاف الارتطـامات والاصطدامات أشـد عنفا بكثير مماشهـده تاريخ الحيـاة، آلاف الجوائح والمحن والانقلابـات التي أصـابت الكوكب من جهـاتـه كافـة والتي صهرت طبقة المعطـف (الوشاح) الأرضية. إنها قصـة الأمطار الحديدية السـائلة ومحيطات الصخور المنصهرة والذائبة.

لقد كانت محن الأرض التكوينية أكثر عمقـا وتأثيرا من تلك العمليات التدريجية اللاحقة التي أعطت معظم ملامح الأرض التي نعرفها اليوم. كما كـانت تلك الجوائح بالغة العشوائية والتدمير بشكل يصعب على التصـور إلى درجة تبدو معها جميع الكـوارث التي تعرضت لها الأرض عبر البلايين الأربعـة التالية من السنين كنـزهات أيام الآحـاد في الحدائق. إن أحداث مئات الملايين الأولى من السنين من عمـر الأرض قد صـاغت سيرة حياة الأرض بشكل عميق وجذري، مانحة إياها تلك المزايا الدائمة ــ مثل درجة ميلانها المحوري وقمرها وحتى مائها. وللحقيقة، فلو أن هذه الأحداث العشوائية جـرت بشكل مغاير ـ كما حدث في تكوين الكواكب الأخرى في مجموعتنا الشمسيـة ـ لكانت الأرض مكانا مختلفا جـدا عما نعرفه الآن، ولما كنا، على الأرجح، هنا ندرس هـذا الموضوع. يقول جاي ميلوش، العـالم في مختبر أبحاث الكواكب والأقمار في جـامعة أريـزونا في تكسن:«إن 90٪ من التـاريخ الجيولـوجي للأرض حـدث في العشرة بالمئـة الأولى (العُشر الأول) من تاريخ الأرض. وكـانت هذه الفترة ــ وهي التي أعدت المسرح لكافة الأحـداث الأخرى التالية منـذ ذلك التاريخ ـ شديـدة العنف والعشوائية بشكل يصعب على التصديق»

إن النظرية القائلة إن الاصطدامـات الهائلة لعبت دورا بارزا في تاريخ الأرض المبكر بدأت بالظهـور والانتشار منـذ مايقـارب العقد من السنين. غير أن هـذه النظريـة مازالـت صعبة التصديق والقبول بالنسبة إلى بعض الناس، كما يقول ميلوش. فقد درج العلماء على تصـوير نشـوء أو ولادة الأرض ضمن ظـروف وشروط تطـوريـة خـاصـة من أجل السببين العلمي والأيديولوجي (العقائدي)، وأنها كانت نتيجةعمليـات تدريجية ثابتة وليست تغيرا عشوائيا مفاجئا وفي الصميم.

إن هذه النظـرة تعكس جزئيـا الارتياب القـديم لدى الكثير من العلماء حـول دور العامل الكـارثي Catastrophism كمنظور يتسبب بإحـداث الكوارث، لتفسـير ولادة الأرض وبروز

معالمها. إذ إن الكوارث، كما اقتنع بذلك معظم العلماء، هي ببساطة سبب خاص وبعيد جدا عن احتمال إمكان تفسير معظم ما نراه اليوم. غير أن علماء الكواكب وجدوا مع بداية السبعينات والثمانينات دليلا قويا على أن الكوارث قد لعبت دورا رئيسيا في تشكيل كواكب المنظومة الشمسية. كما أنهم يرسمون الآن الصورة النهائية للأرض الوليدة، وهذه الصورة تحكمها اصطدامات الأجسام الضخمة التي سادت في المئة مليون سنة الأولى من عمر النظام الشمسي. ويقول ميلوش: «علينا أن نتخلى عن الفكرة القائلة إن عمليةنشوء ونمو الكواكب كانت عملية لطيفة وهادئة. إن عملية ولادة ونمو الكواكب لهي عملية شديدة العنف والعشوائية، وتنطوي على الكثير من الاحتمالات، كما يمكنها أن تغير جيولوجية الكوكب في لمحة عين». وسنرى هنا وصفا لبعض هذه «اللمحات» التي هي عبارة عن مجموعة من الحوادث القاسية من جهة، والحيوية جدا من جهة أخرى، أدت بكليتها إلى نشوء الأرض كما نعرفها الآن.



في مارس من العام 1987، أضاء السماء انفجار سوبرنوفا في السحابة الماجلانية الكبرى. يعتقد الفلكيون أن نظامنا الشمسي كان قد ولد عندما أرسل انفجار سوبر نوفا في مجرتنا موجات صدم داخل سحابة من الجزئيات والغبار، فارتفعت حرارتها وتكثفت وتحولت تدريجيا لتصبح الشمس والكواكب.

يعتقد علماء الفيزياء الفلكية أن قصة الأرض بدأت منذ 4,6 بلايين سنة أو دون ذلك بقليل. كان سبب ذلك حادثة شديدة العنف والتدمير: سوبر نوفا، أو الموت الانفجاري لنجم ذي كتلة هائلة. وبالنظر إلى المسافات الهائلة التي تفصل بين الأجسام الفلكية، فإن حدثا كهذا يبدو ضئيل الأهمية. فعلى سبيل المثال، تشهد مجرتنا درب التبانة انفجار سوبر نوفا (مستعر فائق) بمعدل مرة كل قرن. ومع ذلك فإن الانفجار المذكور كان حاسما بالنسبة إلينا، إذ أفضى إلى نشوء نظامنا الشمسي.

كانت سحابة من الغاز الساكن والخامد والغبار تطوق النجم المتفجر.

وبالنسبة إلى مراقب في ذلك الوقت، فإن هذه السحابة كانت ستبدو مجرد منطقة مظلمة بين النجوم، وذلك بسبب رقتها البالغة التي تجعلها صعبة الرؤية. كماكانت كميات وافرة من الهيدروجين والهليوم والأكسجين والسيليكون والحديد والكربون - أي كافة العناصر المقومة لنظام شمسي - تسبح بحرية في ذلك الفراغ. وعندما وصلت الموجات الصدمية - الصادرة عن انفجار السوبر نوفا السابق إلى هذه السحابة، بدأ خليط هذه العناصر بالتغير شكلا وبنية. لقد أدت موجات الصدم إلى ضغط ورفع درجة حرارة السحابة وتكثيفها لتتحول إلى عدة مئات من الشظايا والحطام والأنقاض. وبمجرد بدء العملية سيرها، لم تعد بحاجة إلى طاقة مستمدة من السوبر نوفا لتستمر. فبتأثير الجاذبية، جذبت الشظايا والأنقاض بعضها بعضا مشكلة بذلك قرصا أوليا. ومن ثم تجمعت المواد الأعلى حرارة في مركز القرص. وبشكل تدريجي، ازدادت حرارة القرص إلى الدرجة التي بدأت معها التفاعلات النووية. وهكذا خرج إلى الوجود نجم جديد - الشمس.

هذا وتوحي النماذج النظرية المطورة على الحاسب الإلكتروني، والتي أعدها آلان بوس من معهد كارنيغي في واشنطن، أن عملية الانضغاط (أو الارتصاص) قد جرت ضمن مدة عشرات آلاف السنين فقط، وأنها رفعت درجة الحرارة لما سيصبح النظام الشمسي الداخلي - أي من المريخ إلى الداخل - إلى مايقارب 1800 درجة مئوية (3500 F)، وهي درجة تكفي لصهر سبيكة معدن التيتانيوم في أجنحة الطائرة المقاتلة F-15، أو لغلي معدن الألمنيوم في خلاء الفضاء. أما بقية الأجزاء والفتات والشظايا الخارجية من الغبار والجزيئات في القرص فقد تحولت بدورها إلى السديم الشمسي - وهو الغطاء الحافظ الذي تشكلت فيه الكواكب من بعد. ومع التبرد التدريجي للسديم، بدأت جزيئات الغبار المتسخة بالاصطدام البطيء مع بعضها في هذا الوسط الغازي مشكلة جزيئات أكبروأكبر مع كل اصطدام تال. وبفعل جاذبية الأجسام الكبيرة سحبت الأجسام الصغيرة إليها لتزداد حجما وضخامة ولتستمر بجذب الأجسام والعناصر الأخرى. وفي غضون 100 ألف سنة فقط أو نحو ذلك، نمت حبيبات الغبار إلى صخور صغيرة، ومن ثم إلى جلاميد صخرية بحجم السيارات.

وقد اعتقد العلماء ذات مرة أن هذه العملية تقدم كامل القصة بشكلها الجوهري: إن الكواكب المكتملة كانت قد نشأت عبر ملايين السنين بطريقة النمو البطيء والثابت واللطيف نسبيا. كما قدموا صورة الأرض الوليدةككرة كبيرة من الطين تمتص تدريجيا الكتل الصغيرة الأخرى. غير أن الحسابات الأخيرة غيرت كثيرا من هذه النظرة، إذ تفترض هذه الدراسات أنه مع نمو الكرة الأرضية إلى نصف حجمها الحالي (أي منذ 4,55 بلايين سنة)، فإن كويكبات ثانوية أخرى بحجم القمر وعطارد وحتى المريخ، كانت قد نشأت وتكونت أيضا في الجوار. وهكذا، فإنه كانت عملية النمو الالتحامي الأولية قد شابهت وحاكت الكرات

الطينية المتنامية تدريجيا، فإن هذه العملية قد ماثلت لاحقا اصطدام كرات بولينغ عملاقة ببعضها البعض.

إن هذا السيناريو العنيف ساعد في تفسير كيفية حصول الأرض على إحدى أهم ميزاتها: وهي نواتها التي تتكون من الحديد والنيكل. إن تشكل نواة كهذه يتطلب الحرارة. ولكن من أين يمكن أن تأتي هذه الحرارة؟

لم يكن لدى الباحثين أي جواب مرض قبل توصلهم إلى أن الكويكبات الضخمة كانت تصطدم بالأرض الوليدة بسرعات عالية. ويعتقد الكثير من العلماء الآن أنه من المحتمل أن تكون الكويكبات قد بدأت بتشكيل النوى الغنية بالحديد في حقبة مبكرة ــ ربما بشكل متواصل أثناء الملايين العشرة أو العشرين الأولى من فترة النمو ــ عندما سخنت الصدمات الهائلة الناتجة عن السرعات العالية لها إلى درجة حرارة كافية لصهرها (أي الكويكبات)، ويمكن أن تنفصل أجزاء ومكونات هذه الكويكبات بعضها عن بعض أثناء انصهارها مثلما تنفصل عناصر عصارة الخل والزيت. ومن ثم ترسبت عناصر الحديد والنيكل وعناصر معدنية ثقيلة أخرى إلى باطن النواة، في حين صعدت العناصر أو المعادن السيليكية الأخف إلى السطح. ومع استمرار تصادم الكويكبات ونموها وانصهارها وتمايزها، فإنها لم تكتسب في النهاية مجرد نوى منصهرة وغنية بالحديد، بل أيضا أغلفة خارجية وطبقات معاطف سيليكية على السواء، وهي المقومات البنيوية الرئيسية الثلاث للأرض اليوم. وكلما كبر حجم الكويكبات قل عدد الاصطدامات التي تتعرض لها (مع أنها استمرت بالوقوع بمعدل يفوق المعدل الحالي بملايين المرات). ولكن لكون الصدمات في المرحلة الأخيرة من النمو الالتحامي شملت أجساما أكبر حجما بكثير من ذي قبل، فإنها كانت كارثية أكثر. وتفترض مجوعة من الحسابات أجراها ديفيد ستيفنسون من معهد كاليفورنيا للتقانة Caltech في باسادينا، كاليفورنيا، أن مئة جسم بحجم القمر وعشرة أجسام أكبر من حجم عطارد وعدة كويكبات أكبر من المريخ قد اشتركت في عملية تخليق الكواكب الداخلية الأربعة، ومن المحتمل أن يكون



تتشكل السدم، وهي الأشكال البدائية الأولى للنظم الشمسية، عندما تدفع الجاذبية الجزيئات معا في الفضاء تحت سيطرة قوة قابضة متزايدة الضغط. هذا وتنشأ السدم كأقراص مسطحة مدومة من الغاز والغبار. وتبدو هنا تشكل قرصين (أعلى اليسار وأسفل اليمين) داخل سحابة مفردة.

ثلث هذه الأجسام قد التحم مع الأرض لتكوين 75٪ من كتلة كوكبنا.

لقد كان لهذه الاصطدامات الهائلة آثار كارثية. إذ تسبب كل اصطدام بصهر أجزاء كبيرة من الأجسام المتلاحمة وطرد وتبديد كل وجود لأي غلاف غازي كان في طور التشكل، لتحل مكانه سماء ملأى بقطرات الحديد المصهور من نواة الجسم الصادم. ويمكن للأمطار الحديدية أن تكون قد شكلت بحيرات من صهارة الحديد على ماتبقى في حينه من سطح الأرض. ثم ترشح وترسم الحديد السائل من هذه البحيرات عبر الشقوق في طبقة المعطف (أو الوشاح) ليصبح جزءا من نواة الأرض الغنية بالحديد. وبعد عدة اصطدامات مماثلة لهذا الاصطدام، انفصلت وتمايزت المعادن والسيليكات على الأرض البدائية، وذلك بطريقة تشبه كثيرا تلك التي جرت على الكويكبات في المراحل الأسبق.

إن القول بتعرض الأرض لاصطدامات عنيفة منذ بلايين السنين لا يعدو كونه مجرد زعم تنقصه الآثار والأدلة التي تؤيده. ومن المثير أننا لو أردنا إيجاد دليل كهذا، فإن سطح الكوكب الأرضي ذاته هو واحد من أسوأ الأماكن للبحث عن مثل هذه الأدلة. إن كامل القشرة القارية الأولية للأرض قد تعرضت لعمليات الطي داخل طبقة الوشاح الأرضي، وذلك لتحرك الصفائح التكتونية عبر سطحها. ونتيجة لذلك، فقد أزالت الأرض في الواقع جميع الآثار السطحية التي عرفتها في تاريخها المبكر.

غير أنه توجد عدة أجسام أخرى في النظام الشمسي أقل تغيرا وتحولا - لحسن الحظ - قادرة على تقديم المساعدة بشكل أكبر فيما يتعلق بمعرفة ماضيها. إذ لا توجد حركة الصفائح التكتونية على كل من القمر والمريخ على سبيل المثال، كما أن السطوح الأقدم عمرا للكواكب الداخلية تكسوها فوهات القصف النيزكي من جميع الأحجام، وتفوق أقطار بعضها مسافة 1000 ميل، وتؤرخ كل ندبة أو أثر في سطوح المريخ والزهرة وعطارد اصطداما مع كويكب أو مذنب. وبالنظر إلى قمرنا، وهو الأقرب إلينا من سواه، نجده مغطى بأعداد لاتحصى من الفوهات والندوب، وحيث إن القمر يسبح في وسط أو محيط هو إلى حد كبير ذات المحيط الأرضي، فإنه يقدم سجلا لوقائع القصف النيزكي القديم. كما

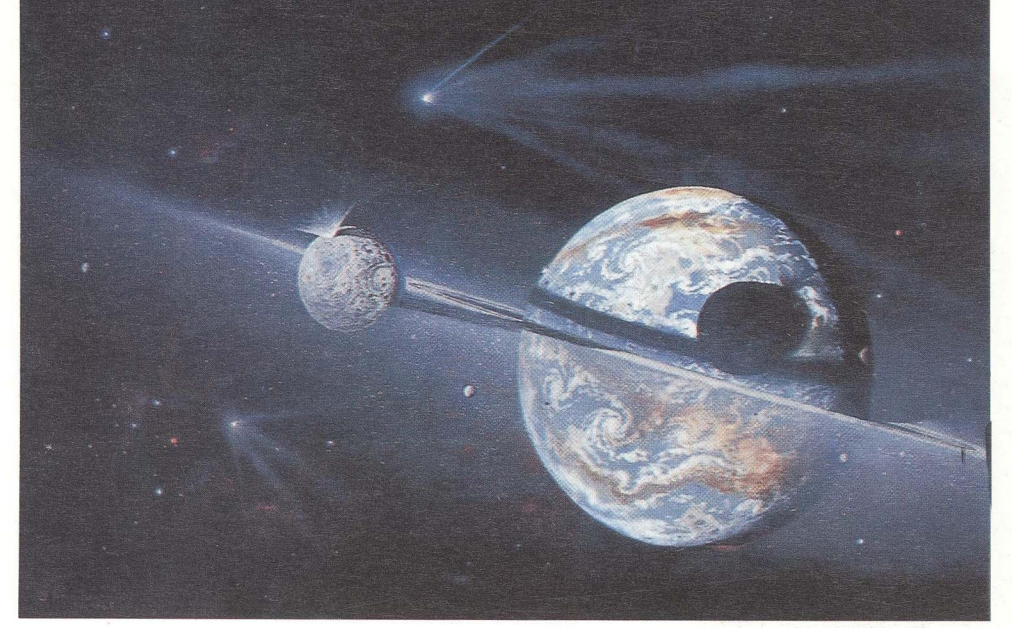
استوعبت الأرض، عندما كانت لا تزال كويكبا، عددا من الاصطدامات أعنف بكثير من أي حادث آخر عرفه تاريخ الحياة. ويبدو هنا كويكب في طوره الجنيني يرتطم بجسم نيزكي مسرع قادم من القسم الخارجي في النظام الشمسي.

تعرضت الأرض كذلك لزخات نيزكية أو كواكبية أشد وأعنف بكثير، حيث إنها قدمت كلا العاملين المساعدين التاليين: هدف أكبر حجما من القمر أولا، وقوة جاذبة كبرى تمسك بالأجسام الطائرة القريبة منها ثانيا.

كمايمكن أن تحتفظ المجموعة الشمسية أيضا بأدلة على اصطدامات حديثة وقعت في فترة متأخرة، وذلك بشكل سلوك أو تصرف خاص لبعض الكواكب. فكوكب أورانوس مثلا، يشذ مخالفا بقية الكواكب في درجة ميلان محوره التي تبلغ 97 درجة على مستوى مداره حول الشمس. ووفقا لقول آلاستير كاميرون في مركز هارفارد ـ سميث سونيان لفيزياءالفلك، فإنه من المحتمل أن يكون هذا الميلان الواضح للكوكب هو الأثر الباقي لضربة أو أكثر من جسم بحجم كوكب الأرض. قياسا على ذلك، لابد أن تكون ضربات أصغر من تلك، ولكنها ذات تأثير بالغ وملموس، قد تسببت بإعطاء كوكبنا الأرضي درجة ميلانه المحوري التي تقارب 24 درجة مع تأثيرات عميقة وبالغة أخرى بالنسبة للحياة القادمةالتي سيعرفها على سطحه. وما لم يحدث الاصطدام لم يحصل، لما كانت الفصول. وفي حال كانت هذه الاصطدامات أعنف، لتسببت بدرجة ميلان أكبر للمحور، ولكانت، بالتالي، فصول الأرض بالغة الانحراف والتشوه والقسوة لدرجة أن الحياة فيها كانت ستنحصر في حدود نطاق ضيق حول خط الاستواء.

وفي السنوات الأخيرة، قام العلماء بتركيز جل اهتمامهم على دليل آخر أكثر تشويقا ودلالة على ماضي الأرض العنيف: قمرنا الأليف والغامض معا. فلعدة قرون، لم يستطع العلماء أن يفسروا نشأته بأية طريقة مقنعة. هل

تبدو نتيجة دراسة بالأبعاد الثلاثة منفذة على الحاسب الإلكتروني، تحاكي النظرية الرائدة حاليا لتفسير أصل ومنشأ القمر. ووفقا لهذه النظرية، فإن جسما بحجم المريخ (ذي النواة الحمراء هنا) صدم الأرض الوليدة (ذات النواة الوردية) منذ 4,5 بلايين سنة. وقد أدت هذه الصدمة المدمرة إلى دمج النواتين الحديديتين لكلا الجسمين، وقذف سحب متبخرة حارة تكثفت لاحقا لتشكل القمر. تعيد هذه الصور الثلاثة تقديم لحظة الاصطدام وما تلاها من آثار.



مباشرة بعد الاصطدام الهائل، الذي تسبب بتشكل القمر منذ مايقارب 4,5 بلايين سنة، كانت الأرض لا تزال مطوقة بحزام من بقايا الحطام الناتج عن الاصطدام، وكان القمر الفتي يومها أقرب بكثير إلى الأرض منه اليوم.

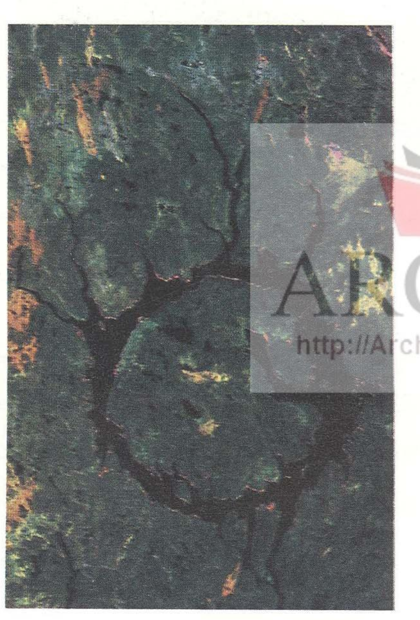
تكون ككوكب تابع نشأ في الوقت نفسه الذي تكونت فيه الأرض من سحابة من الغبار والغاز؟ أو كجسم غريب دفع إلى داخل مدار الأرض حيث أسرته جاذبيتها؟ أو كفقاعة كبيرة انفصلت عن دوران الأرض السريع حول نفسها؟ وفي منتصف السبعينات، تقدمت مجموعتان من العلماء(ضمت إحداهما ويليام هارتمان الذي تزين رسومه هذه المقالة) بنظرية أخرى، هي المفضلة الآن. فالقمر، كما يفترضون، كان الأثر المتبقي لأعنف اصطدام عرفته الأرض في تاريخها.

ووفقا لنظرية الصدمة الكبرى هذه، فإن كويكبا بحجم المريخ كان قد ضرب الأرض في وقت ما بعد اكتسابها حجمها الحالي بـ 20 مليون سنة تقريبا. وقد قدمت الدراسات المنفذة بالحاسب الإلكتروني التي أجراها كاميرون وميلوش في منتصف الثمانينات، وذلك بالتنفيذ المتواصل لمدة 100 ساعة على حاسوب فائق، صورة مدهشة لما يمكن أن يحدث للأرض بعد هذه الحادثة البالغة العنف (أدى كاميرون وميلوش عملهما على نماذج تستخدم عادة لتحاكي آثار الانفجارات النووية). لم تكن الصدمة رأسية مباشرة، الأمر الذي كان من شأنه أن يتسبب بجعل الجسم القادم يحفر عميقا في باطن الأرض ويصبح جزءا منها. على العكس

من ذلك، فإن الصدمة كانت غير مباشرة. ومع ذلك، فإن قوة الاصطدام كانت كافية لتبخير كمية كبيرة من قشرة الأرض ومايقارب 5٪ من وشاحها، تماما كما هو الأمر مع قشرة ووشاح ذلك الجسم المريخي الحجم. وقد اجتذبت النواة الحديدية للجسم الصادم الذي استمر بتحليقه بعد الصدمة إلى الأرض منسحقة داخل الكوكب، في حين كانت انبعاثات ونوافير القشرة والمعطف المتبخرة تندفع في الفضاء بسرعة كافية لتفلت من جاذبية الأرض، ولتستقر من ثم في مدار حول الكوكب. وعلى مدى عشرات الآلاف من السنين، تضامت أجزاء وفتات هذا الحطام والتأمت لتشكل القمر.

هذا ويفسر نموذج فرضية الصدمة الكبرى عددا من المسائل المحيرة حول طبيعة العلاقة بين الأرض والقمر. إن الدليل الأكثر وضوحا في هذه العلاقة هو العمر المتقارب بالإضافة إلى كونهما من المادة نفسها. وإذا ما كانت الحال هذه فيجب أن يكون للقمر نواة كتلك التي للأرض. ومن ناحية أخرى، فإن بنية وتركيب الوشاح القمري تشابه تلك التي لوشاح الأرض ولو أنها لا تماثلها تماما. هذا ويبدو أن كل جسم في النظام الشمسي، سواء كان نيزكا أو كوكبا أو قمرا، يمتلك سمة وحيدة النوع من كميات متناسبة العناصر في وشاحه، وتعكس هذه السمة المجموعة الفريدة للعمليات الفيزيائية على الكوكب — مثل عدد الاصطدامات ودرجة الانصهار بعد كل اصطدام — والتي شكلت ذلك الجسم المحدد.

وبالمقارنة مع بقية الأجسام المعروفة في الكون، يحتوي سطح الأرض ووشاحها على كميات صغيرة فقط من النيكل والكوبالت والتنغستن والأوزيميوم والإيريديوم والفوسفور. ويعتقد الباحثون أن هذه العناصر كانت قد غاصت في باطن الأرض مع صهارة الحديد التي شكلت النواة. كما تحتوي صخور القمر على كميات من هذه العناصر تماثل بشكل غريب، وتدعو إلى التساؤل، تلك الكميات على



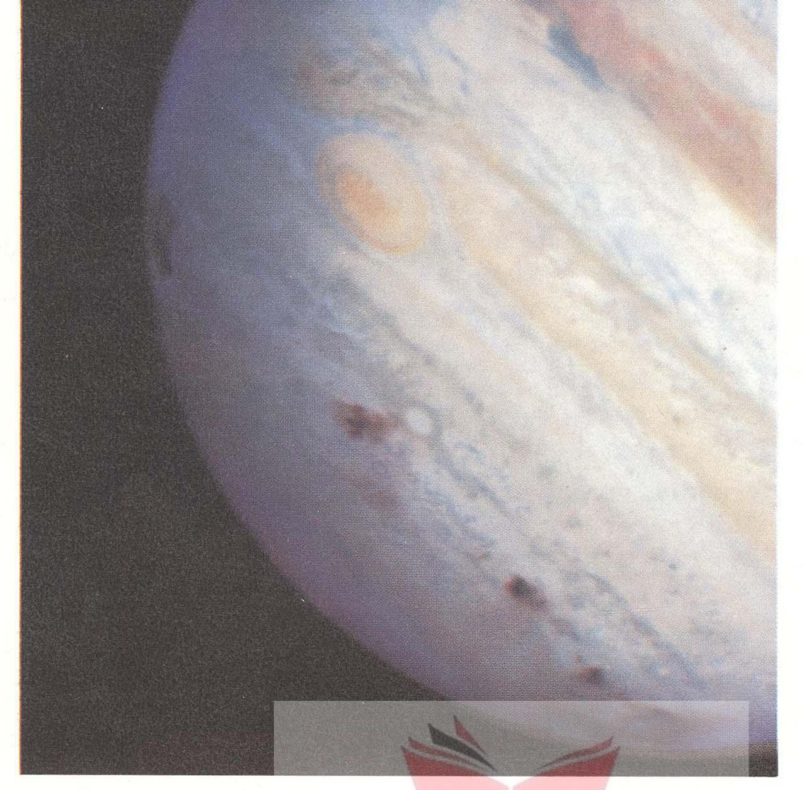
أزالت الأرض معظم آثار ماضيها العنيف. غير أن بقايا بعض الصدمات الصغيرة والحديثة لا تزال واضحة. فمنذ 214 مليون سنة، ضرب نيزك منطقة كيبك Quebec الكندية محدثا هذا الأثر، وهو أثر صدمة مانيكويغن. يبلغ عرض هذا الأثر 40 ميلا وقد نتج عن اصطدام ولد طاقة تعادل 23 مليون ميغا طن من مادة T.N.T.

الأرض. وهذا ما يـوحي أن يكون القمر، في الواقع، قطعة من معطف الأرض سـابقا، تضامت من مادة كانت قد تبخرت قبلا نتيجة الاصطدام الهائل. هذا وكان من الممكن أن تزداد كميات العناصر الصغيرة هـذه على كل من الأرض والقمر فيما لو أعطى الجسم الصـادم بعضا من مادته إلى السحابة المتبخرة.

هذا ويبدو أن فرضية الصدمـة الكبرى تتناسب وهذه الحقائق بشكل جيد، ولكنها ليست مكتملـة مع ذلك. وفي الـواقع، لم تـزل ثمة معضلـة وحيـدة بـارزة في هـذه النظريـة تـزعج الجيوفيزيائيين، وترتبط هذه المعضلـة بالحوادث التي لابد أن تنجم عن آثار الاصطدام. ففي جميع التقديرات والحسابات كان يمكن أن ينصهر سطح الأرض تماما لأول مرة منذ التشكل الكـامل والنهـائي للأرض، وكـان من الممكن أن يغمـر سطح الكـوكب محيط من الصهـارة السائلة بدرجة حرارة 2000 مئوية (3600F) أو أكثر، مما يسمح لجميع العناصر والمعادن في طبقـة المعطف الخارجية لـلأرض بأن تختلط وتمتزج ببعضهـا وتشكل من ثم مجموعـة جـديدة من المعـادن مع تبرد هذا المحيط. ومن ثم تنفصل العنـاصر بعضها عن بعض مـرة أخـرى، فتصعد الخفيفـة إلى السطح وتغوص الثقيلـة إلى طبقة المعطف الـداخلية. وفيما لـو حصل هذا حقا، لوجب على المعادن في طبقة المعطف العلـوية أن تكون غنية ومشبعة بعناصر مثل الباريوم والبوتـاسيوم والروبيديوم، وفاقدة لعناصر أخرى مثـل اليورانيوم والثوريوم والرصـاص والزركونيـوم. تتلخص المشكلة في أن القطع الصخريـة القليلة التي ارتفعت من صخور المعطف إلى سطح الأرض تنبىء بقصـة أخرى مختلفة. فكما يقول جون جـونز، من مركز جونسون الفضائي التابع لوكالة NASA: «تتألف هذه الصخور من خلائط مادية لم تنتقل بعيدا في حركتهـا من حيث توقعنا أن نجدها في الأرض البـدائية قبل أن يحدث انصهار كهذا». وهذا ما يدفع بسؤال حرج ودقيق: فإذا ما كان الانصهار قد حصل فعلا، فكيف أمكن إذن لهذه الصخور أن تبقى على حالها؟



صـورة فسيفسـائيـة ملتقطـة من مـركبـة كلمنتاين تظهر بوضوح سطح القمـر كثير الفوهات والحفر بآثاره التي لا تمحى والناتجة عن القصـف العنيف والكثيف، ويبدو القطب الجنوبي للقمر في مركز الصورة.



تقدم هذه الصورة الملتقطة بمنظار هابل الفضائي منظرا مؤثرا لـ «الجروح» التي خلفها المذنب Shoe-maker - Levy 9 على كوكب المشتري في الفترة الممتدة بين 16 ـ 22 يوليو 1994. ويبلغ قطر الفوهة التي خلفها أكبر هذه الاصطدامات قطر الأرض نفسه.

يوجد لدى ميلوش تفسير بسيط نسبيا هنا: إذ إن عمليات الحمل الحراري في هذا المحيط المنصهر كانت نشيطة وقوية للغاية، كما كان التبرد سريعا كذلك لدرجة لم تعط فرصة لحدوث تباينات واختلافات في بنية المعطف. ولكنه يوافق ويؤكد مع ذلك أنه مازالت هناك حاجة كبيرة إلى دراسات أخرى لحل هذه المشكلة ويقول: «إن تصورنا وفهمنا للتركيب الفيزيائي والكيميائي للمعادن في درجات الحرارة القصوى هذه هو ضعيف وناقص في أفضل أحواله».

وفي الوقت الذي ولد فيه القمر، قبل مايقارب 4,5 بلايين سنة، كانت الأرض قد بدأت تبدو بشكل الكوكب الذي نعرفه جميعا اليوم. إذ تكاملت كتلتها، وتحدد مدارها حول الشمس ودورانها حول نفسها ودرجة ميلانها المحوري. كما كان المعطف والنواة قد أخذا مواضعهما، ولم يكن ينقص هناك سوى المكون أو المقوم الحاسم بالنسبة لظهورنا المستقبلي: الماء.

من المحتمل أن تكون الأرض قد اكتسبت ماءها بالطريقة ذاتها التي اكتسبت بها الكثير من خصائصها ومزاياها الأخرى، أي القصف النيزكي العنيف. ووفقا لرأي مايكل كار، الخبير في المؤسسة الأمريكية للمسح الجيولوجي USGS في كاليفورنيا، وهنريش فانكه، من معهد ماكس بلانك للكيمياء في ألمانيا، فإنه من المحتمل أن هذه الخطوة الحاسمة لم تحصل حتى وقت متأخر من تطور الأرض. وهم يفترضون الآن أن نسبة كبيرة من الماء، إضافة إلى

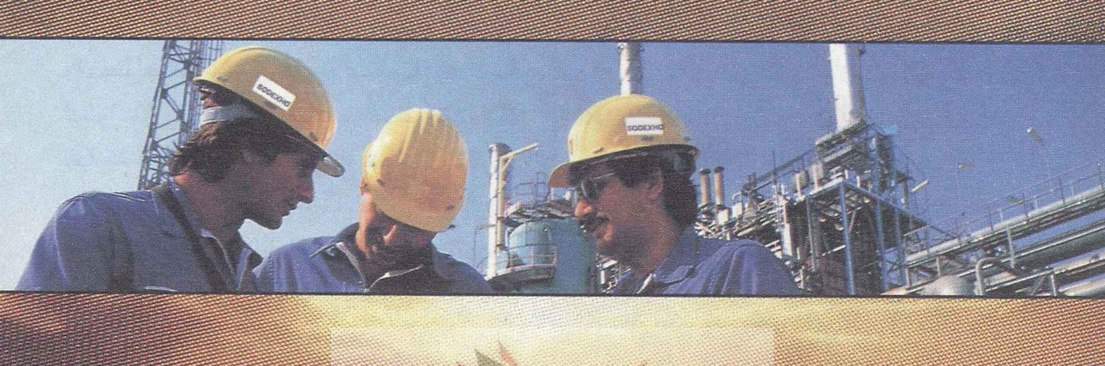
المياه المعدنية التي تحتوي على الحديد بين عناصرها على سطح الكوكب، قد جاءت من طبقة خارجية رقيقة من مادة جسم نيزكي بعد أن تشكلت الأرض بمعظمها. وتقدم الدراسات المتعلقة بكوكب المريخ الدليل على ذلك. فلكون الأرض والمريخ كوكبين متجاورين، يفترض العلماء أن المريخ كان قد تعرض أيضا للقصف النيزكي كما حصل على الأرض. وتظهر دراسة كار وفانكه أنه توجد كمية كبيرة من الجليد على سطح المريخ وأحواض مياه جوفية تحت السطح. غير أن طبقة الوشاح المريخية جافة نسبيا. وقد عرف العلماء هذا الأمر من سقوط عدد من القطع والشظايا من طبقة الوشاح المريخية على الأرض بشكل نيازك احتوت على كميات ضئيلة جدا من الماء. وهذا ما يقتضي بالاستدلال أن الماء الموجود على المريخ وعلى الأرض أيضا قد جاء بعد تشكل طبقة المعطف. ويمكن أن يكون الماء قد ظهر على الأرض قبل ذلك الحين، ولكن من المرجح في هذه الحالة أنه لم يبق في مكانه. ويعود ذلك، في أحد أسبابه، إلى تفاعل الماء مع الحديد ليشكل أكسيد الحديد، أو مايعرف بالصدأ. وهكذا فإن أي وجود للماء في فترة التضخم والنمو، إما أن يكون قد تفاعل مع الحديد وغاص من ثم إلى النواة، أو أن يكون قد أفلت بعيدا أثناء انقضاض الكويكبات. ويقول كار: «إذا كان لدينا حديد حر، لا يمكن أن نحصل على ماء حر. ولذلك فإننا نعلم أن الماء الذي يغطي الكوكب الآن قد جاء بعد أن غاص معظم الحديد إلى نواة الكوكب، وأعتقد أنه من الأنسب القول إنه دون هذا القصف النيزكي المتأخر، لكان هناك القليل جدا من الماء فقط، ولما كانت هناك حياة على الأرض».

وبعد 4 بلايين سنة منذ ذلك الوقت، بدأت موجات القصف بالتضاؤل، مع استمرار سقوط كميات مهمة من الحطام والشظايا القادمة من الفضاء على الأرض لمدة مئة مليون سنة أخرى. ومن الممكن أن بعض هذه الصدمات قد أزال وأنهى أشكال الحياة البدائية، مجبرا عملية التطور على البدء من نقطة الصفر من جديد.

ماذا عن وقتنا الحالي؟ تبدو الاصطدامات الحالية بالمقارنة مع تلك التي شهدتها الأرض في تاريخها الغابر صغيرة وضئيلة إلى درجة مضحكة. ومع ذلك علينا بالتروي والتمعن في هذا الاحتمال. فمنذ 65 مليون سنة فقط، أمكن لكويكب بقطر 6 أميال فقط أن يغير مناخ الأرض بما يكفي لانقراض الكثير من أشكال الحياة في حينه، بما فيها الديناصورات. وفي السنة الماضية ضرب المذنب شوميكر ـ ليفي 9 (Shoemaker - Levy 9) كوكب المشتري مخلفا خدوشا وآثارا أخرى بحجم كوكب الأرض على الكوكب العملاق.

إن لم يكن من شيء آخر، فإن هذه الرشقات النيزكية الصغيرة والعرضية تبدو كرسائل رمزية تذكرنا بأن علينا احترام واعتبار الأيام الخطرة والحرجة السابقة من تاريخ كوكبنا، عندما تلازم الخلق والمحق معا.

العقد الصعب في حياة أوبك



في هذا المقال يناقش الاستشاريان البتروليان «عافلي» و«كلاين» الطريقة التي تتعامل بها أوبك مع سوق نفطية متقلبة تخرج تغيراتها عن أي توقعات.

ترجمة: د. مظفر صلاح الدين شعبان

لقد أثبتت عشر السنوات الأخيرة أنها عقد من الصعوبات بالنسبة لمنتجي النفط في الشرق الأوسط وعلى الرغم من أن الإنتاج المحلي تزايد بنسبة 60٪، من 12,1 مليون برميل في اليوم في عام 1983 إلى 19,3 مليون برميل/ يوم في عام 1993، فإن معظم منتجي الشرق الأوسط يجدون أنفسهم في ظروف مالية صعبة ويواجهون محيطا سياسيا ذا صعوبة مستمرة. لقد هبطت أسعار النفط الخام من 30 دولارا للبرميل في عام 1983 إلى 15 ـ 17 دولارا حاليا، كما تعرض السعر إلى انخفاض قصير الأمد فوصل إلى 10 دولارات/ برميل في عامي 1986

العنوان الأصلي للمقال:

Decade of difficulty Technichal, Review Middle East, Septemberxo october 1994

مراجعة: عامر التميمي

و1988 وإلى ارتفاع قصير الأمد وصل إلى 35 دولارا/برميل بعد الغزو العراقي للكويت. وقد أدت هذه التأرجحات الحديثة والمستمرة إلى تفجير الوهم القائل بإمكان إبقاء أسعار النفط مرتفعة بشكل غير محدد بوساطة عمل سياسي موجه. وبالفعل فقد وضحت هذه التأرجحات بشكل لا يقبل الجدل كلا من سلطة السوق والاحتياجات الضرورية والأغراض الإفرادية لدول الأوبك. وكما حدث مع معظم التكتلات سابقا، فإن السياسة أخلت الساحة للاعتبارات الاقتصادية.

ومع ذلك، فمن الخطأ استبعاد أوبك كلية، فالتكتل لا يزال موجودا وهو يتابع عقد اجتماعاته بشكل منتظم ويستمر في التوصل إلى حلول وسط قابلة للتطبيق في المواقف الصعبة. وفي هذا الصدد فإن هذا التكتل ليس أقل نجاحا من التحالفات الأخرى، التي تم إنشاؤها لتطوير التعاون السياسي، مثل الاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة. والشيء الذي تغير في أوبك هو توازن القوى ضمن التكتل، والعلاقات السياسية بين دوله الأعضاء والموقف السياسي في الشرق الأوسط عموما. وكل من هذه العوامل كان له أثر واضح في طبيعة المنظمة وفي قدرتها على الاستجابة لقوى السوق. إن تحليلا لكميات النفط التي ستطرح في السوق، والطلب المتوقع على النفط وعلاقتهما الإفرادية المتبادلة مع السعر تشكل أداة مفيدة من أجل تعيين العوامل الرئيسية المؤثرة في أوبك، وفي السوق، وفي صناعة النفط على مدى السنوات القليلة القادمة.

الطلب على النفط:

لقد سمح الانخفاض الحقيقي في سعر النفط الملحوظ خلال عشر السنوات الأخيرة، بزيادة الطلب على النفط بمعدل 14٪ أو 1,3٪ سنويا. وقد ازداد الطلب الإجمالي على الطاقة الأولية بمعدل 20٪ (2٪ سنويا) على مدى سنوات الفترة ذاتها، مما يشير إلى أن النفط فقد جزءا من حصته في السوق مع أن أسعاره انخفضت بشكل حاد. ويمكن أن نجد تفسيرا لهذه الظاهرة لدى حكومات الدول المستهلكة وسياساتها الرامية إلى فرض ضرائب على المنتجات النفطية، وليس إلى تخفيض الطلب على النفط بالدرجة الأولى، على أمل تجنب التبعية للنفط المستورد. وسياسات الدول المستهلكة لا تأتي كنتيجة للاهتمامات البيئية الغيرية، ولكن من أجل فرض ضرائب لتوليد إيرادات للخزينة العامة.

وفي أغلب التقدير فإن حكومات منظمة الدول الصناعية OECD لن تغير هذه السياسة، لذا فمن المستبعد أن تزداد معدلات الطلب على النفط في العالم المتقدم. ومنه ينتج أن الدول النامية ستشكل الأساس من أجل نمو الطلب على النفط، وذلك إذا كانت حكومات هذه الدول تعارض إغراء فرض ضرائب باهظة على المنتجات النفطية.

المجموعتان الأكثر أهمية ضمن الدول النامية هما الدول في آسيا ــ المحيط الهادي، وتلك التي كانت تشكل الاتحاد السوفييتي السابق (FSU) . إن اقتصاد الدول الآسيوية المطلة على المحيط الهادي ينمو بسرعة، وجميع المؤشرات توحي بأنه مهيأ للاستمرار في أدائه المذهل الذي أظهره في العقد الماضي. ولكن، لا يزال أمام دول الاتحاد السوفييتي السابق طريق طويل عليها أن تقطعه قبل أن يتوقف

انحدارها الاقتصادي. من ناحية أخرى فإن العالم المتقدم بدأ لتوه في الصعود خارجا من أطول وأعمق تراجع في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. واعتمادا على هذه الخلفية وبافتراض أن أسعار النفط الخام ستبقى حول معدلها الحالي، فمن المقدر أن يزداد الطلب العالمي على النفط بشكل خاص هذا العام بعد الانخفاض الطفيف الذي طرأ في عام 1993.

إن الزيادة في طلب الدول الصناعية OECD على النفط في عام 1994 كان بقيادة أمريكا الشمالية ويتوقع أن تتبعه زيادات مقابلة في أوروبا وبعدها في اليابان.

لذا يتوقع أن يزداد طلب منظمة الدول الصناعية OECD بمعدل 0,6 مليون برميل في اليوم في 1995. وعلى العكس، يتوقع في دول الاتحاد السوفييتي السابق FSU وفي الدول التي تنتهج الاقتصاد المبرمج مركزيا CPE، أن يبقى الطلب منبسطا في أحسن الأحوال، على حين يتوقع أن يزداد الطلب في باقي أنحاء العالم بمعدل 1,1 مليون برميل/يوم خلال الفترة ذاتها. ومن هذا الرقم الإجمالي الأخير يتوقع أن تبلغ حصة الدول الآسيوية المطلة على المحيط الهادي نحو 0,7 مليون برميل/يوم.

وكما حصل في السنوات السابقة فإن استهلاك النفط مستمر في التقلص في دول المعسكر الشرقي السابق، إذ هبط بمعدل 16,5٪ في عام 1993. ولكن الطلب في هذه الدول (بولندا، المجر، جمهوريتا التشيك والسلوفاك) سجل في بداية المرحلة الديمقراطية زيادة في عام 1993. علما بأن دول شرقي أوروبا الباقية أظهرت انخفاضا جماعيا قدره 8٪ في عام 1993، وهو رقم يكاد يكون هامشيا بالمقارنة مع انخفاض 30٪ في الاستهلاك الأوكراني وانخفاض قدره 19٪ في الطلب الإجمالي لدول الاتحاد السوفييتي السابق FSU. وعلى حين يتوقع أن يبقى الطلب في أوروبا الشرقية والوسطى ثابتا على مدى السنتين التاليتين فإن الاستهلاك في دول الاتحاد السوفييتي السابق مهيأ للانخفاض بمعدل إضافي قدره 15٪ هذا العام، مما يعكس الاضطرابات السياسية والاقتصادية في المنطقة. وفي السيناريو الأكثر تفاؤلا، فإن طلب دول FSU سيصل إلى قيمته الدنيا في عام 1995 قبل أن يستعيد عافيته ببطء.

وبشكل إجمالي، فإن الطلب على النفط مهيأ للتزايد سنويا بمعدل 1,5 ـ مليوني برميل/يوم

الطلب العالمي على النفط 1992 ـ 1995، مليون برميل/اليوم

	1992	1993	1994	1995
منظمة الدول الصناعية OECD	38,7	38,8	39,3	39,9
CPE/FSU*	8	6,7	6	6
باقي دول العالم	19,8	20,7	21,5	22,6
الطلب الكلي	16,5	66,2	66,8	68,5

* CPE هي الاقتصادات ذات التخطيط المركزي.

على مدى السنوات القليلة القادمة، علما بأن المرة الأخيرة التي سجل فيها معدل مماثل لنمو الطلب على النفط كان في سبعينات القرن الحالي.

وبشكل طبيعي سينظر إلى هذا المستوى من تزايد الطلب على أنه هامشي بالنسبة لأسعار النفط، ولكن اعتبارات توريدات النفط تقترح شيئا آخر.

إمدادات النفط:

من المقدر أن تبقى إمدادات النفط ثابتة في الدول غير المنتمية إلى أوبك حتى نهاية عام 1995، وذلك رغم أن الصورة مختلطة، فمن المتوقع أن يكون إنتاج بحر الشمال قد تزايد بمعدل يبلغ 0,65 مليون برميل/يوم في عام 1994 و0,2 مليون برميل/يوم في عام 1995. أما إنتاج أمريكا اللاتينية فيتوقع أن يزداد بصورة حدية مثل الإنتاج الأفريقي (وبشكل رئيسي من أنغولا). وفي مكان آخر خارج أوبك لا يحتمل أن تظهر كميات إنتاجية معتبرة، كما أن الزيادات في التوريدات الكندية تغطي عليها الانحدارات في الإنتاج الأمريكي. ويتوقع أن تزداد التوريدات من غير دول أوبك خارج المعسكر الشرقي السابق بمعدل 0,9 مليون برميل في اليوم في عام 1994 و0,6 مليون برميل/يوم في عام 1995.

الإمدادات العالمية بالنفط 1992 ـ 1995 مليون برميل/يوم

	1992	1993	1994	1995
طلب السوق	66,5	66,3	66,8	68,5
المخزون	0,2	0,5	0,3	0,3
الطلب الكلي	66,7	66,8	67,1	68,8
التوريدات من دول غير أوبك	39,0	38,4	38,4	38,4
ربح المعالجة	1,5	1,5	1,5	1,5
NGL من أوبك	2,1	2,2	2,3	2,3
الطلب على النفط من أوبك*	24,1	24,7	24,9	26,6
الطلب الكلي	66,7	66,8	67,1	68,8

* تم إدخال الأكوادور في عام 1992 فقط

الطلب الموسمي على النفط الربع الرابع/ 1994 ـ الربع الرابع/ 1995

	الربع الرابع 1994	الربع الأول 1995	الربع الثاني 1995	الربع الثالث 1995	الربع الرابع 1995
الطلب الكلي	67,9	69,3	66,8	67,4	70,2
الطلب الكلي على النفط الخام من أوبك	24,9	26,2	25,8	26,5	27,5



إن إنتاج النفط في دول الاتحاد السوفييتي السابق مستمر في الانخفاض نظرا لأن الصناعة النفطية المحلية تتفكك حيث سجل هبوط قدره 12٪ في عام 1993. وحتى الآن لم تلحظ سوى إشارة صغيرة فقط توحي بأن الوضع سيتحسن، حيث ينظر المستثمرون الأجانب إلى الاستثمارات ذات عدة المليارات من الدولارات على أنها مخاطرة كبيرة، على حين تبقى الأنظمة السياسية والمالية غير مطمئنة. وبالتالي يتوقع أن ينخفض إنتاج دول الاتحاد السوفييتي السابق بمعدل إضافي قدره 0,9 مليون برميل/يوم هذه السنة و0,6 مليون برميل/يوم في عام 1995. وبجمع تقديرات الإمداد مع تقديرات الطلب المحلي نجد أن الصادرات الصافية من دول الاتحاد السوفييتي السابق سوف تنخفض بمعدل 0,1 ــ 0,2 مليون برميل/يوم هذا العام و0,6 مليون برميل في عام 1995. وبالطبع، وكما هو محتمل، إذا تبين أن تقديرات الطلب متفائلة جدا، فإن الصادرات الصافية من دول الاتحاد السوفييتي السابق سوف تزداد.

إذا اعتبرنا أن الواردات من الدول غير المنتمية إلى أوبك تبقى ثابتة خلال عام 1995 وأن الطلب على النفط سيزداد، فإن الأثر الإجمالي سيكون طلبا زائدا على نفط أوبك. وحسب هذه الافتراضات فإن الطلب على نفط أوبك قد ازداد بصورة حدية في عام 1994 بمعدل 1,7 مليون برميل في عام 1995. يضاف إلى ذلك وجود زيادات سنوية أهم متوقعة فيما بعد. حاليا، ليست هناك أية مشكلة مرتبطة بمقدرة أوبك على إنتاج هذه الكميات الإضافية. والمشكلة الرئيسية التي ستواجه هذا التكتل هي الاتفاق على توزيع حصص الإنتاج الكفيلة بتغطية الطلب السنوي والموسمي والتي تشمل فترات الطلب الضعيف حيث تهبط أسعار النفط.

وهكذا. فإن أوبك ستحتاج إلى تحديد توزيع سنوي للحصص عام 1995 قدره 26,5 مليون برميل/يوم من معدله في عام 1994 البالغ 24,52 مليون برميل/يوم. والتكتل مضطر إلى توضيح طريقته في مواجهة التغيرات الموسمية في الطلب، أي أن إنتاج أوبك في الربع الثاني من عام 1995 يجب أن يكون أقل بـ 1,7 مليون برميل/يوم منه في الربع الرابع. تاريخيا، إن الصعوبة التي واجهت أوبك في تعاطفها، أو عدم تعاطفها، تجاه تأمين

التوريدات بهذه الطريقة، أدت إلى تغييرات مهمة في السعر الموسمي (على الرغم من أن هذه التغيرات بدت في عام 1994 وكأنها غير موسمية) علما أن عدم مرونة السعر، والفشل في إدارة الإنتاج خلال فترات الطلب الضعيف سببا انخفاضات كبيرة في السعر وشجعا التنافس بين المنتجين. يضاف إلى ذلك أن الإنتاج الفائض، إبان هذه الفترات، أدى إلى تراكم المخزون النفطي مما أعاق رفع الأسعار في فترات الطلب العالي المقابلة. وعليه، فمن المحتمل أن الأسعار المتوسطة السنوية كانت أقل منها فيما لو كانت أوبك قادرة (أو راغبة) في إدارة التوريد بنجاح.

وبالطبع فإن النتيجة، التي يمكن استخلاصها من طريقة التشغيل هذه هي أن الغايات التي توختها أوبك من سياسة الأسعار كانت مفيدة، بالنسبة للاعتبارات الأخرى، وبشكل خاص بالنسبة لسياسة أوبك الداخلية.

إن المقدرة الحالية الممكنة لأوبك على الإنتاج تقدر بـ 28,7 برميل/يوم تؤمن العربية السعودية فيها 10,2 ملايين برميل/ في اليوم، علما بأنه يمكن تقسيم دول أوبك إلى مجموعتين: مجموعة الدول ذات سعة الإنتاج الإضافية (العراق، الكويت، العربية السعودية، الإمارات العربية المتحدة)، وتلك ذات الإنتاج القريب من سقفها (الغابون، أندونيسيا، إيران، ليبيا، نيجيريا وقطر).

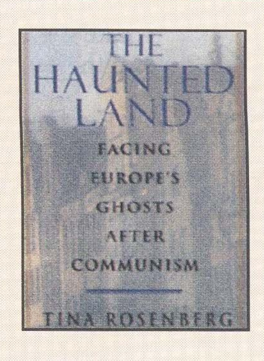
العراق:

ومادام العراق مستبعدا من السوق العالمي فإن توزيع الحصص يجب أن يصبح أسهل، على حين يستمر الطلب بالازدياد لأن هناك أربع دول فقط تتمتع بالقدرة على زيادة إنتاجها بشكل معتبر. وبين هذه الدول تعد العربية السعودية أكثرها أهمية نظرا لمقدرتها الكامنة على زيادة الإنتاج بمعدل 2,2 مليون برميل/اليوم زيادة على الحصة الحالية. وهذا أكبر بنحو خمس مرات من المقدرات الإفرادية للكويت، والإمارات العربية المتحدة وفنزويلا .

ولكن السؤال الأساسي هو: كيف ينبغي التعامل مع العودة الممكنة للعراق إلى السوق العالمي؟ انطلاقا من الآفاق الجيولوجية للعراق، وبافتراض إمكان تأمين رأس مال أجنبي كاف، فبمقدور العراق أن ينتج 3 ملايين برميل/يوم في غضون سنتين أو ثلاث وأن يتجاوز معدل 5 ملايين برميل خلال فترة خمس سنوات أخرى. وهذا سيجعله ثاني أكبر منتج في أوبك، وإن أضيف ذلك إلى عدد سكان العراق الكبير نسبيا فإن هذا البلد قد يصبح مشكلة معقدة سياسيا بالنسبة للمنتجين الآخرين في الشرق الأوسط. وإذا أخذنا أسعار النفط المتواضعة الحالية بعين الاعتبار وحاجة أوبك إلى اجتذاب الاستثمارات الأجنبية من أجل رفع الإنتاج، فإن الفرص في الشرق الأوسط أمام شركات النفط الأجنبية هي أفضل مما كانت عليه خلال 30 سنة. لذا فإن مجموعة الظروف الحالية يمكن أن تشكل أوراقا رابحة على طول الخط من أجل صناعة النفط العالمية ومن أجل دول الشرق الأوسط المنتجة للنفط، وهذا سيعود بالفائدة على صناعة النفط العالمية نتيجة الإنتاج ذي الكلفة الرخيصة. كما يفيد هذه الدول من العائدات الحكومية المتزايدة ويحد من متطلباتها على إنفاق رأس المال كما يعزز استقرارها السياسي.

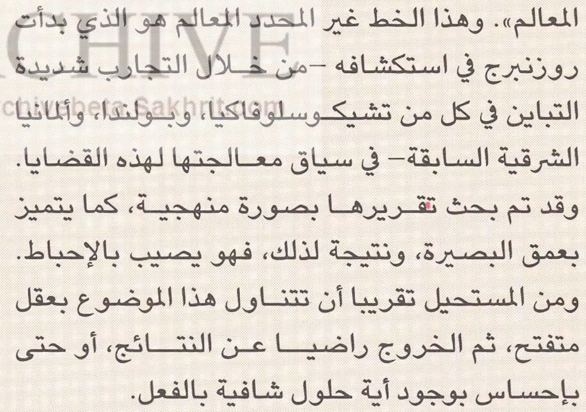
تصفية الحسابات

عرض: أندرو ناجورسكي



أثار السقوط المفاجئ للأنظمة الشيوعية في بلدان أوروبا الشرقية كماً كبيرا من الأسئلة الأخلاقية الشائكة. فماذا يتوجب فعله حيال الحكام المخلوعين، والمسؤولين عن أفعال القمع العنيفة؟ وماذا نفعل حيال أتباعهم الذين كانوا ينفذون الأوامر بكل إخلاص؟ بل وماذا نفعل حيال أولئك المواطنين العاديين، ممن تعاونوا مع أجهزة الشرطة السرية السابقة، والذين كانوا يبلغون عن جيرانهم، وزملائهم، وحتى عن أزواجهم أو زوجاتهم؟

كتبت الصحفية الأمريكية «تينا روزنبرج» في كتابها «الأرض المسكونة: مواجهة أشباح أوروبا بعد الشيوعية» ما نصه: «كثيرا ما يكون الحد الفاصل بين التبرئة والملاحقة، بين العفو وفقدان الذاكرة، وبين العدالة والانتقام، حدا غير واضح المعالم». وهذا الخط غير المحدد المعالم هو الذي بدأت روزنبرج في استكشافه -من خلال التجارب شديدة التباين في كل من تشيكوسلوفاكيا، وبولندا، وألمانيا الشرقية السابقة- في سياق معالجتها لهذه القضايا.





وقد تم بحث تقريرها بصورة منهجية، كما يتميز بعمق البصيرة، ونتيجة لذلك، فهو يصيب بالإحباط. ومن المستحيل تقريبا أن تتناول هذا الموضوع بعقل متفتح، ثم الخروج راضيا عن النتائج، أو حتى بإحساس بوجود أية حلول شافية بالفعل.

ولنأخذ مثال ما يتوجب فعله بملفات الشرطة السرية. فقد اتبع التشيك، ولكن ليس السلوفاك، سياسة للتطهير بحماس كبير، في صورة إبعاد فوري لأي من المسؤولين الكبار الذين يثبت كونهم من الوشاة. ويبدو إبعاد الوشاة الذين افتضح أمرهم من المناصب العليا، نظريا،

العنوان الأصلي للكتاب:

Settling Scores, Newsweek; July 31, 1995

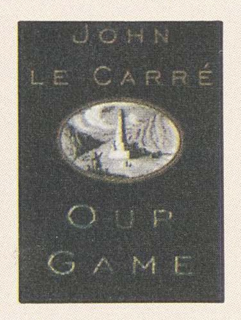
من المعقول تماما. أما من الناحية العملية، فقد أصبحت عمليات التطهير وسيلة لتهويل سقطات العدالة. وتذكر روزنبرج تفاصيل تحطيم «رودلف زوكال»، والذي بعد فترة قصيرة من التعاون، تحول إلى مُعارض شرس للنظام، كما زج به في السجن. وكأحد أعضاء أول برلمان منتخب بحرية في تشيكوسلوفاكيا، فقد تم وسمه بالوشاية، كما تم طرده بعيدا عن الحياة العامة. وكثيرا ما يجلس أولئك الذين لم يعترضوا على شيء في حياتهم، للحكم على من خاطروا بكل شيء. وتبنى القضايا على تصنيفات مشبوهة، وكثيرا ما لا يمكن التحقق من صحتها، للأشخاص الذين تضمهم سجلات الشرطة السرية. وترى روزنبرج أن التناول الألماني لملفات «ستاسي» أقرب للعدل كثيرا، نظرا لأنه يتيح لأصحاب العمل أو الأفراد الاطلاع على ملفات كاملة، وأن يستنبطوا استنتاجاتهم بأنفسهم، بدلا من الاعتماد ببساطة على ذلك التصنيف الذي يذكره الملف، كما هي الحال في قضية التشيك. لكن حتى ذلك الأسلوب لا يقدم شيئا لحماية أولئك الذين دونت أسماؤهم في تقارير مضللة بالعنية كتبها عملاء «ستاسي» الباحثون عن نيل رضا رؤسائهم.

كتابة التاريخ من جديد: بينما وجه معظم التركيز إلى المشاركين من المستويات الدنيا، ظهر الأشخاص الذين أداروا النظام القديم بقوة. وقد حاكم الألمان حرس الحدود الذين قتلوا الفارين، لكنهم سمحوا لإريش هونيكر بالفرار، لكي يموت بعد ذلك بسلام في شيلي. وتعتقد روزنبرج أنه تجب الملاحقة القضائية للأشخاص في حالة واحدة، وهي الأفعال الإجرامية المحددة، وليس بسبب تلك القرارات السياسية الجدلية، مثل إعلان الجنرال «فويسييتش ياروزلسكي» تطبيق الأحكام العسكرية في بولندا في ديسمبر من عام 1981. وتنظر المؤلفة بعين الشك إلى الإجراءات البرلمانية الخرقاء التي اتخذت بحق «ياروزلسكي»، والتي ثبت فشلها في النهاية، لكنها ترفض أيضا محاولاته لتغيير وجه التاريخ باعتبار نفسه بطلا قوميا بولنديا، بدلا من كونه مخلبا لموسكو. وتؤكد ذلك بقولها إنه «لم يكن مذنبا بالعبودية للحظة واحدة، بل لحياته كلها».

وقد قضت روزنبرج سنوات عديدة من عمرها كمراسلة صحفية في أمريكا اللاتينية، وهي منطقة ذات تاريخ طويل للقمع والانتقام. وقد نبع من تلك التجربة إيمانها باللجان القضائية، والتي توثق لأوجه جور الطغاة المخلوعين وأتباعهم، بدلا من تقديمهم للمحاكمة. ومن المحتمل ألا ينجح مثل هذا الأسلوب في بلدان أوروبا الشرقية، فقد عمل كثير جدا من الناس جاهدين لكي ينجحوا في إخفاء الماضي، بدلا من التعايش معه. وباستثناء حالات نادرة، فهناك كثير ممن يفترض أن يظهروا أكبر قدر من الندم، يدعون بلا خجل أنه لا شيء لديهم ليندموا عليه، أو حتى يعتبرون أنفسهم ضحايا. وروزنبرج محقة في تحذيرها من مخاطر تجاهل العملية الحقيقية في السعي نحو تصفية الحسابات. ومع ذلك، وكما يوضح كتاب «الأرض المسكونة» بجلاء، فذلك يترك كيفية الموازنة بين هذه الاهتمامات والحاجة إلى اعتراف أمين بتواطؤ كل من الحكام وكثير من الأتباع لأنظمة الأمس القمعية، أمرا غير محسوم لدرجة تصيب بالجنون.

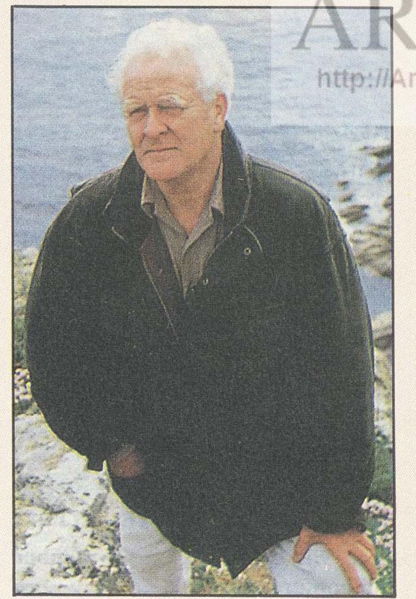
العودة من الحرب الباردة

عـرض: بـول جـراي



تبعث رواية «جون لو كاريه» الجديدة على وجه السرعة بجاسوسين سابقين وشابة جميلة، إلى الركام الأدبي والأخلاقي لما بعد الحرب الباردة.

وسط كثير من الأدلة العكسية، تشير علامة واحدة إلى أن الولايات المتحدة ليست في سبيلها إلى الانحطاط الفكري تماما: وهي الشعبية المستمرة لروايات «جون لو كاريه» (Le Carré). وقد ظل الرجل يصنع قوائم أحسن الكتب الأمريكية مبيعا منذ ثلاثين عاما - منذ أن أحدثت روايته «الجاسوس القادم من الصقيع» ثورة في الروايات الجاسوسية - وقد فعل ذلك من دون استخدام أي من الشراك النمطية المستخدمة في روايات الرعب والإثارة. فليس هناك عباقرة أشرار يحتفظون بالعالم كرهينة في كتبه، ويحدث العنف فيما بين السطور، وإذا كان هناك جنس، فهو من النوع التأملي وليس التصويري، فيصطبغ بالمعرفة المسبقة لأن اللذة نادرا ما تدوم طويلا.



ومن الصعب تلخيص ما يقدمه «لو كاريه» لقرائه بدلا من الأجراس والصافرات، لكنه يظهر نفسه بوضوح مرة أخرى في رواية «لعبتنا». فهناك حبكة معقدة، تم التقديم لها بتمهل، تصبح حلقاتها متزايدة الضيق تدريجيا. وهناك حوار شديد الوضوح والذكاء، يجري أغلبه في سياق تهديد خفي بالخطر. كما أن هناك بطلا لا يرى نفسه في مثل هذه البطولة، لكنه يصارع شياطينه الداخليين كما يصارع تلك القوى المتجمعة ضده.

يرعى «تيم كرانمر»، والذي بلغ الخمسين من عمره، منزلا قديما فخما وبستانا للكروم في مدينة سومرست آلت إليه ملكيتهما طبقا لوصية أحد أعمامه الأثرياء. ولم

العنوان الأصلي للكتاب:

In from the Cold War ,Time, March 20, 1995

يكن تقاعده عن العمل بمحض اختيـاره. فبعد فترة خدمة طويلة في المخابـرات البريطانية، تزامنت مع بعض من أشد السنوات صقيعـا في الحرب الباردة، تم طرده على يدي رئيسه الجديـد باعتباره غير ملائم للنظـام العالمي الجديـد: «أعني أن خمسا وعشرين سنـة يجب أن تقوم بتشكيل العقل، أليس كذلك؟ وقد اعتقدت أنه سيكون من الأفضل بكثير بالنسبة لك أن تقتنع بأنك قد أمضيت مدة خدمتك كلها، وأنه قد حان الوقت لكي تبحث عن وسيلة جديدة للعيش».

ومهما كان قدر الإحبـاط الذي شعر به «تيم»، فقد لطّف من حدتـه حب «إيما مانزيني»، وهي مـوسيقية جميلـة رقيقـة المشـاعر وافقت على العيش معـه. وبعـد كل السنـوات التي قضاهـا في التجسس والسرية، يرى «تيم» أنها «خطري الأمني الذي جلبته على نفسي، وانفتاحي الجديد، وهي الجلاسنوست الوحيدة في حياتي».

وليس ببعيـد منه، هنـاك صديقه القـديم من أيـام الدراسـة في المرحلة الإعـدادية وفي جـامعة أكسفـورد ـ لاري بتيفـر، الذي يعمل بـالتدريس في جـامعـة «باث»، والـذي تم طرده أيضـا من المخابرات ومنحه وظيفة أستاذ بالجامعة، حيث يتمنى معلموه القدامى أن يبقى بعيدا عن المشاكل. وقـد كان «تيم» واحـدا من أولئك المعلمين، فقد جنّـد «لاري» للعمل في التجسس وتولى «إدارتـه»، حسب لهجة الصنعـة، لمدة تقترب من العشرين عامـا، حيث تم خداع مجموعـة متعاقبـة من قادة المخابرات الروسية (KGB) في لندن، والذين صدقوا أن «لاري» كان يعمل لحسابهم بالفعل. ورغم مهـارته كعميل مـزدوج، فقد اشتملت وصـاية «تيم» عليه اعتقـادا ببراءته، إضـافة إلى مـواهب «بايرونية» مع النساء، وشوق للمقاصد النبيلة المفقودة. ويتفكر «تيم» قائلا: «كانت خطيئتي هي أن أعليت فيه الغشاش فوق العالم، وذلك سبب كراهيته لي أكثر مما أستحق في بعض الأحيان».

وقد تحطمت الحيـاة الوادعة التي كـان يعيشها تيم في الـريف فجأة، فقد انسحبت «إيما» من محبتها له ومن البيت، في الوقت نفسه الذي اختفى فيه «لاري». وقد اصطحب الشرطي المحقق معه مذكـرة متجارئة كتب فيهـا: «نعم، حسنا، فقـد كان... صـديقك منحرفـا قليلا، أصـدقك القول، ياسيدي المستر كـرانمر». وقد تم بعد ذلك استـدعاء تيم إلى مكتبه السابق لاستجـوابه، ثم إخباره بشيء مذهل: فقـد تمكن لاري، مع آخر من اتصل به من عمـلاء المخابرات السوفييتيـة، من سرقة مبلغ 37 مليون جنيه استرليني من الحكومة الروسيـة. ويعتقد رؤساؤه السابقون أن «تيم» الذي يحيا حياة بذخ قـد يكون اقتسم الغنيمة معهما. وعليه فقد أمروه بتسليـم جواز سفره لهم، وعدم الحديث إلى أي شخص سواهم.

ومن المتع الكثيرة التي تحملها قراءة روايـة «لو كـاريه»، والتي تشمل هذه، هي الإحساس بأن الرحلة المقطوعـة، وبصرف النظر عن كون غايتها تبدو لا منطقيـة، تتواصل من خلال سلسلة من الخطوات المعدة بعنـاية، والخلابة تماما. وبـذلك فمن المعقول تماما أن يبدأ «تيم»، بـاعتبار العمل الذي كان يقوم به سابقـا، في بحثه غير المرخص عن لاري وإيما، لافتراضه بأنهما معا، وأن سعيه وراءهما سيقوده أعمق فأعمق نحو الركام الأدبي والأخلاقي لحقبة ما بعد الحرب الباردة.

وليس مجرد الفضول المهني، أو الألم الذي يحس به العاشق الذي هجرته حبيبته، هو ما يدفع «تيم» للتعرض لأخطار متزايدة. فهو يشعر بمسؤولية أخلاقية عما يحدث، حتى وهو غير واثق مما يمكن أن يكون عليه ذلك: «كنت أنا من أخضعت لاري للعيش في حياة كالروايات، تعلم منها فنون المراوغة وأطلقت في داخله تلك الآلية التي تعمل الآن بطريقة جنونية مدمرة. وقد كنت أنا من أحاط عنق إيما بأنشوطة، فلم أفكر للحظة عندما أطلقت عليها اسم الرفيق المثالي، أنها ستصبح ذلك الرفيق المثالي للاري».

وكل ما يجب أن يقال عن المكان الذي سينتهي إليه تيم، هو أنه منطقة اضطرابات يتوقع أن يسمع العالم المزيد عنها في خلال عام أو اثنين. وقد كان «لو كاريه» أول من جسد، في رواياته، كيف كان مقاتلو الحرب الباردة المكرسين لأهداف تختلف جذريا، يشبهون بعضهم البعض رغم ذلك، في طرق تنفيذ المهام المنوطة بهم. وتتميز رواية «لعبتنا» بنفاذ البصيرة فيما يتعلق بكل من الصراعات الحديثة بين القوى الراسخة والجماعات الإثنية أو الدينية الصغيرة المطالبة بالاستقلال الوطني. ويمجد «لاري»، الرومانسي، حقوقهم وهو على استعداد لتعريض حياته للخطر من أجلهم. أما «تيم»، وهو الرجل العملي، فلا يرى فائدة تذكر من «إنقاذ البرابرة من بطش بعضهم البعض في بلدان لا يزيد حجمها على حرف في الخريطة». ولكل من وجهتي النظر هاتين وجاهتها، كما أن «لو كاريه» لا يتخذ جانب أيهما. لكن القراء الذين تجذبهم جرّات هذه الرواية التي لا تقاوم سيستخلصون منها شيئا أكثر من مجرد الإثارة.



أصوات الحب

عرض: لورا شابيرو

هل أصابتك القراءة بالإحباط؟ كلمة بعد كلمة، وجملة بعد جملة، القديم نفسه يتكرر ثانية، تشجع، فقد كتبت رواية «جويس ماينارد» الأخيرة من أجلك. وعندما تفتح صفحاتها لأول مرة، تبدو رواية «أين يذهب الحب» مثلها مثل أي كتاب آخر، وفي الواقع أنها تبدو كواحدة من كتب «ماينارد» الأخرى. لكن ماينارد تكتب هذه المرة عن تربية الأطفال في مدينة صغيرة بمنطقة نيو إنجلند، وبلوغ منتصف العمر، والطلاق. وهناك الأم الطيبة (والتي تقوم بخبز الفطائر وتعد حفلات أعياد الميلاد)، والأم السيئة (والتي تهرب إلى نيوزيلندا، تاركة وراءها زوجها وطفلها)، وقليل من العلاقات الملتهبة. لكن هذه الرواية مختلفة ـ فهي تأتي

العنوان الأصلي للكتاب:

Sounds of Love, Newsweek; July 31, 1995

مع مؤثراتها الصوتية الخاصة.

وكما توضح «ماينارد» في مقدمة كتابها، فهي لم تؤلف كل الحكمة التي جاءت في روايتها بمفردها. فتكتب قائلة: (لقد تمت صياغة الكثير من أفكاري عن الحب كنتيجة للاستماع لعدد من الأغاني، من «كول بورتر» إلى «لوسيندا وليامز»، إلى «الخنافس»). وقد ألهمتها تلك الأغنيات إنتاج اسطوانة مدمجة (CD)، متاحة من خلال طلبات الشراء بالبريد، تحتوي على القطع الموسيقية التي وجدتها أقوى تأثيرا (ومنها أغنية دولي بارتون بعنوان «افكر الليلة بعيني الزرقاوتين»، وأغنية جوني ميتشيل بعنوان «أميليا»، وغيرهما) وحسبما ترى ماينارد، فإن «تعريف القراء بالموسيقى التي أحبها سيحسن من إحساسهم بكتابي».

وهكذا، فإذا خانتك الكلمات ـ أقصد كلمات ماينارد بالطبع ـ فاطو صفحات الكتاب وستحس بالتحسن سريعا.

غزو القارة: سيبيريا والروس

تأليف: و. بروس لينكولن

عرض: ستيف ج. ماركس

سيتم تصنيف تأريخ و. بروس لينكولن الشامل لسيبيريا منذ الأزمنة السحيقة حتى الوقت الحاضر، ضمن أفضل كتب التاريخ الشعبية. ولينكولن كاتب لا يقاوم، بينما تمثل فصول كتابه لقطات خاطفة بالألوان الطبيعية لماضي سيبيريا وحاضرها. وقد يوجه إليه بعض النقد لسرده حكاية بدلا من كتابة مقال تحليلي، لكن الأكاديميين سيجدون قيمة كبرى هناك. وبالنسبة للمحاضرين في قاعات الدراسة، يبث الكتاب فيضا من المعلومات متعددة الجوانب عن وجود روسيا في آسيا وشمال الباسيفيكي. وسيكتشف الباحثون نبعا غنيا من المراجع الببليوجرافية. فقد نقب لينكولن جيدا في المصادر المنشورة، كما استنبط مقتنيات الأرشيف الروسية والفرنسية والأمريكية.

وتختلف معالجة لينكولن لسيبيريا قليلا. فهو ينقل الحقائق المعقدة والمتناقضة عن منطقة كانت تعتبر «أرضا للفرص» بالنسبة لتجارها والمهاجرين إليها من الفلاحين، بينما كانت ـ في الوقت نفسه ـ «أرضا للطغيان والعذاب» بالنسبة لمنفييها. وبعد ذلك، فهو يوضح خصائص هذا الشقاق كلما كان ذلك ملائما، بالكشف، مثلا، عن الطبيعة المتقلبة لسيبيريا كمستعمرة عقابية للقياصرة، كما تجسدها القسوة التي تعرض لها دوستويفسكي، والراحة المنزلية التي أتاحتها لـ «لينين».

العنوان الأصلي للكتاب:

The Conquest of a Continent: Siberia and the Russians, American Historical Review; February 1995

وكواحدة من نغماته الضمنية، يسرد لينكولن ببراعة قصة ذلك الجشع شبه الاستعماري الذي تميز به التوجه الروسي نحو سيبيريا، من الاستنزاف المبكر لقطعان الحيوانات ذات الفراء، إلى مغامرات التصنيع السوفييتية التي حولتها إلى منطقة للكوارث البيئية. ومما يتعلق بتلك النغمة تركيزه المتقطع على السكان الأصليين لسيبيريا، والذين تلقى انحدارهم تحت السيطرة الروسية اهتماما ضئيلا نسبيا من المؤرخين.

وتعد بعض تفسيراته موضعا للخلاف. فلينكولن يجسد سيبيريا بإصرار شديد في صورة الغرب الأمريكي، مع وجود خليقة (ethos) ديمقراطية جسورة بين المستوطنين من الطبقات الدنيا، وصخب المدن المزدهرة. ومع ذلك فقد تم الإعلان عن الفروق الموجودة بين الحدود الأمريكية والروسية. فقد أظهر الفلاحون السيبيريون، مثل نظرائهم من الأوروبيين ـ الروس، ميلا قليلا نحو إقامة البيوت المنفردة، مفضلين أنماطا جماعية من الفلاحة والتنظيم الاجتماعي.

ورغم أن غياب طبقة النبلاء والبعد عن سانت بطرسبرج قد منحهم شعورا بالتحرر من التدخلات الأجنبية، فإن تلك الملايين من الفلاحين الذين شملتهم حركة الهجرة السيبيرية الكبرى، والتي امتدت من منتصف التسعينات من القرن التاسع عشر حتى عام 1914، كانت معتمدة كلية على المساعدات الحكومية المقدمة لهم لتوطين أنفسهم في تلك الأرض. وقد كانت إعادة التوطين السلافية الواسعة في الجزء الآسيوي من روسيا، بالفعل، مخططة مركزيا بعد الشروع في إقامة الخط الحديدي العابر لسيبيريا. وتمتلك عمومية أطروحة «تيرنر»* خاصية رومانسية عظيمة للجذب، لكنها لاتصلح لتلك الحدود.

ورغم كل الجهود الحكومية الخارقة التي بذلت في الاستعمار، فقد ظلت عاجزة عن تطوير سيبيريا كما فعلت الولايات المتحدة مع الجزء الداخلي المدمج نسبيا بها. ولذلك فلدي أيضا بعض التحفظات على تأكيدات لينكولن بأنه «حتى يومنا هذا... فقد ساعدت الثروات الطبيعية لسيبيريا على استمرار قوة الروس»، كما مكنت روسيا من «الصعود كواحدة من القوى العالمية الكبرى». وتوجد نسبة كبيرة من المخزون العالمي من الأخشاب، والمعادن، والماس، والحديد، والفحم، والنفط، والغاز الطبيعي في سيبيريا، وقد ساهم استنزافها بالتأكيد في تنمية القدرات العسكرية ـ الصناعية لروسيا. ولكن، وبصورة عكسية، فقد ساعد امتلاك هذه المقاطعة الشاسعة صعبة التناول في تعرّف أوجه النقص في التاريخ الروسي. فمنذ منتصف القرن التاسع عشر، فاقت نفقات الدفاع والبنية التحتية، والمصروفات الإدارية لسيبيريا شرقي نهر «اليينيسي»، مكاسب الاحتفاظ بها. وبتحويل الانتباه والاعتمادات المالية الحيوية عن «المدينة الأم» الروسية الأوروبية، فقد أضعفت سيبيريا من المملكة بدلا من تقويتها. ولو كان قد تم اعتماد استراتيجيات تنموية أكثر حكمة على مدى القرون الأربعة الماضية، لكانت روسيا قد حصلت من المواد الخام التي تحتويها

* (Turner thesis: نسبة إلى «نات تيرنر [1880 ـ 1831] وهو عبد أمريكي متمرد، قاد مجموعة من العبيد للاستيلاء على مستودع للسلاح في ولاية فرجينيا، وقد قتل أكثر من خمسين من البيض قبل القبض على المتمردين وإعدامهم ـ المترجم.

قارتها السيبيرية على قاعدة اقتصادية أكثر احتمالا لقوتها، وبدلا من ذلك، فقد وجدت نفسها في موقف متناقض، من كونها غنية بالموارد الطبيعية وفقيرة اقتصاديا.

وباستثناء تلك التصورات المفاهيمية، هناك القليل مما يمكن الاختلاف عليه في هذا الكتاب، الذي سيساعد في تخطيط طريق استكشاف تلك الحقبة التي لا يزال أغلبها مجهولا من تاريخ سيبيريا. ويستحق لينكولن الثناء على تحويل الأبحاث الموجودة إلى كتاب سيبقى أساسيا بالنسبة للباحثين، ولكتابة حكاية نابضة بالحياة ستفيد وتسلي الجمهور العريض من القراء.

شبح المهندس الذي تم إعدامه: التكنولوجيا وسقوط الاتحاد السوفييتي

تأليف: لورين ر. جراهام

عرض: هيرواكي كوروميا

يتناول هذا الكتاب المميز الذي قام بتأليفه لورين ر. جراهام، قصة واحد من تلك العقول المستقلة العديدة التي تم سحقها على يد الحكومة السوفييتية: وهو بيتر بالشينسكي، وهو مهندس مناجم تم إعدامه عام 1929 بناء على أوامر من جوزيف ستالين. ورغم أن اسمه شهير، فإن جراهام ينقل ما كتب عنه في إحدى دوائر المعارف الأمريكية المتخصصة في التاريخ الروسي، والصادرة عام 1982 قولها: «لا تتوافر سوى قلة من المعلومات عن بالشينسكي، بينما تلتزم المصادر السوفييتية الصمت التام حياله». وقد قام جراهام بتجميع المواد التي تتناول حياة بالشينسكي على مدى ثلاثة عقود ونيف. لكنه لم يتمكن إلا عندما سمح له أخيرا بفتح ملفات بالشينسكي في دار للمحفوظات الروسية، من تحقيق أي تقدم ملموس. وهذا الكتاب، الذي ربما كان أول كتاب يتناول حياة بالشينسكي كتب بأية لغة كانت، هو نتاج لبحثه داخل ذلك الأرشيف.

وقد اتخذ بالشينسكي، مثل كثير من رفاقه المهندسين، موقفا حاد النقد للنظام القيصري، الذي كان بالشينسكي يلعنه على الملأ نتيجة لامتهانه لقيمة الحياة البشرية. وقد شحذ من اهتمامه العميق بالجوانب الإنسانية للهندسة، ملاحظته للحياة في دونباس، وهي منطقة لصناعة الصلب والتعدين تقع على الحدود الفاصلة بين أوكرانيا وروسيا. وقد بدأ بالشينسكي في إظهار تعاطفه مع الفوضويين المعتدلين، ومع رجال الثورة الشعبية الاشتراكية. وقد شارك في الحركة الثورية، قبل أن تقوم بنفيه إلى سيبيريا ثورة عام 1905، وبعدها فر إلى الخارج. وقد تم منحه العفو بعد ذلك، فعاد إلى روسيا، ولعب دورا مهما في الحكومة المؤقتة عام 1917. وبعد انتصار البلاشفة، والذين كان

العنوان الأصلي للكتاب:
The Ghost of The Executed Engineer Technology and the Fall of the Soviet Union, American Historical Review; February 1995

يحارب ضدهم، توصل بالشنيسكي إلى اتفاق مع الحكومة الثورية الجديدة. ولاعتقاده بأن نظام الحكم الجديد كان نظاما أكثر عدلا، مع احتمالات أكبر لما أسماه «بالهندسة الإنسانية» (Humanitario Engineering) عن النظام السابق، فقد شغل بالشينسكي موقعا مؤثرا في وكالة التخطيط التابعة للدولة السوفييتية. ومع ذلك، يوضح جراهام أن رؤية بالشينسكي للهندسة الإنسانية كانت غير متوافقة تماما مع تلك التي تتبناها حكومة لا تتيح سوى مجال ضيق للقيم الإنسانية. ويقترح جراهام أن النهاية العنيفة لوظيفة بالشينسكي، ولحياته ذاتها، كانت حتمية.

ويتحول جراهام بسيرته الذاتية لبالشينسكي إلى كتاب ينتقد فيه تاريخ الهندسة والتكنولوجيا السوفييتية بكامله. وهو يوضح بوجاهة أن افتقار النظام إلى الاهتمام بالحياة البشرية كان واحدا من العوامل المهمة التي أدت إلى سقوطه في النهاية. وبذلك يرى جراهام شبح بالشينسكي يحوم حول أطلال الاتحاد السوفييتي.

وقد كانت هندسة بالشينسكي الإنسانية مشروطة بإيمانه بالتكنوقراطية*

وقد أدى به ذلك إلى اقتراح وضع اصطلاح «التقنية الدولية» (Tekhintern) في مكان «الشيوعية الدولية» (Komintern): وقد اعتقد بأن القرن العشرين «لم يكن قرنا للشيوعية الدولية، بل للتكنولوجيا الدولية». ويعود تاريخ التكنوقراطية إلى أيام «سان سيمون»**

وقد كان لها تأثير في أجيال من المهندسين المؤمنين بالاشتراكية، بمن فيهم معاصروهم في الولايات المتحدة وغيرها. وقد يختلف المؤرخون حول ما إن كان البديل الذي طرحه بالشينسكي قادرا على الحياة بالفعل، لكننا حصلنا أخيرا على قصة روسي أسطوري كنا نعرف القليل عنه حتى وقت قريب.

نهاية الثورة الشيوعية

تأليف: روبرت ف. دانييلز

عرض: روبرت إديلمان

حاول روبرت ف. دانييلز في هذا الكتاب تجربة أسلوب تاريخي بالغ الصعوبة. وقد نسق سعة الاطلاع التي اكتسبها خلال حياة مهنية مديدة ومتميزة لكي يضع فشل البيريسترويكا وانهيار الاتحاد السوفييتي داخل إطار تاريخي يكون مفهوما بالنسبة للقارىء العادي. ويبدأ بوصف

العنوان الأصلي للكتاب:

The End of the Communist Revolution, American Historical Review; February 1995

* (Technocracy: نظرية تنادي بإدارة الاقتصاد، والحكومة، والنظام الاجتماعي من خلال خبراء التكنولوجيا ـ المترجم).

* (Sanit - Simon: الكونت دي سان ـ سيمون (1760 ـ 1825) فيلسوف فرنسي وأحد علماء الاشتراكية ـ المترجم).

أحداث سنوات حكم ميخائيل غورباتشوف، ثم يستمر عبر رحلة ملتوية مختارة خلال التاريخ السوفييتي، قبل أن يعود للحاضر من أجل مناقشة مثيرة ومتبصرة لمستقبل روسيا. ورغم عدم كونه من مناصري نظام الحكم الشيوعي، فإن دانييلز يتجنب الاحتفالية الرأسمالية التي تجدها في كثير من الكتابات الشعبية والأكاديمية التي تتناول سقوط الاتحاد السوفييتي. ورغم أن أفكار الكتاب أصلية ومثيرة، فإنها لا تنجح في الجانب البلاغي. فلأن دانييلز يستخدم التلويح أكثر من كونه صريحا في توضيح الروابط الموجودة بين موضوعاته المتعددة، نجد أن كتابه ليس جيد الترابط على وجه الخصوص. ونتيجة ذلك هي أن الكتاب يبدو كمجموعة من المقالات، بدلا من كونه مناقشة كاملة وعقلانية.

ويبدو أن دانييلز لم يعتبر المتخصصين كجمهور أساسي لكتابه. ولكون الكتاب قد بني بصورة كبيرة على أعمال ثانوية مكتوبة باللغة الإنجليزية، فهو يقدم القليل مما لا يعرفه الباحثون في هذا المجال. وتقتصر قراءات دانييلز للصحافة السوفييتية بدرجة كبيرة على صحيفتي البرافدا والإزفستيا، والتي تمثل مصادر غريبة بالنسبة لعمل يغطي مرحلة الجلاسنوست، لأن هذين الدارين الصحفيتين لم تكونا ضمن الرواد سواء في مجال التجديد أو النقد. وقد نظم دانييلز معلوماته بطريقة مبتكرة، وبصرف النظر عن مشكلات العرض، فهو يقدم تبصرات محفزة لتفكير جميع القراء.

ويبدأ الكتاب بفصلين عن ولادة وموت البيريسترويكا. ورغم أن الأحداث التي يتم وصفها ستبدو مألوفة بالنسبة لأولئك الذين تابعوا هذه التطورات عن كثب، فإن دانييلز يقدم لنا تفسيرا لهذا السقوط يتميز بكل من الإثارة والقدرة على الإقناع. وهو يحدد لحظتين محوريتين. وقد أتت الأولى مع إدراك بوريس يلتسين لأن الإصلاح في إطار الحزب الشيوعي قد بات مستحيلا. وقد أثبت قرار حلفائه بالسيطرة على الحكومة في الجمهورية الروسية، أنه خطوة حيوية في تقويض قوة المركز الاتحادي، والذي كان يصارع وقتها القوى الوطنية الانفصالية. ورغم أن روسيا كانت مركزا للإمبراطورية، ونظرا لعدائه الشخصي لغورباتشوف، فقد هاجم يلتسين موسكو من أجل إضعاف سلطة عدوه. وقد حلت اللحظة المحورية الثانية في أواخر صيف وأوائل خريف عام 1990، مع رفض غورباتشوف لخطة شاتالين ذات الخمسمائة يوم، والتي كانت ستمثل نوعا من العلاج بالصدمات. ومهما كانت فوائد الخطة، فقد تصالح غورباتشوف مع تلك القوى الشيوعية المعتادة ذاتها التي ستنقلب عليه في أغسطس 1991.

وفي فصل يتناول تلك العقود السابقة لصعود غورباتشوف إلى السلطة، يتفق دانييلز مع أولئك الذين افترضوا أن التمدن والتغيير الاجتماعي المصاحب له خلال تلك السنوات قد قلصا سلطة الحزب، والذي لم يفعل الكثير لتغيير أساليبه أو أعضائه. وبالاستشهاد بتاتيانا زاسلافسكايا، وهي عالمة الاجتماع التي كانت قائدة البيريسترويكا المبكرة، يوضح دانييلز أن مثل هذا المنهاج، بالمنطق الماركسي التقليدي، كان بمثابة وصفة للثورة.

وتتميز الفصول التي تتناول سنوات حكم جوزيف ستالين والمرحلة الثورية بقدرة أقل على الإقناع. وقد استغرق دانييلز وقتا طويلا للغاية في إعادة النصوص الأيديولوجية لمجموعة من «العمالقة» القدامى، بينما لم يبذل الوقت الكافي للبحث في التاريخ اليومي والسنوي للمجتمع الأكبر. وربما لم يشأ دانييلز أن يتكبد عناء البحث الطويل في المراجع الروسية، لكن مما يضعف هذه الفصول تجاهله الكامل لعشرين سنة من المعرفة والثورة الغربية المعاصرة، ناهيك عن عَقدي العشرينات والثلاثينات.

وعلى عكس غيره من أبناء جيله الذين تجاهلوا هذه الوثائق، فلم يعد دانييلز تقرير حقائق قديمة عن الاتحاد السوفييتي. وتستعرض مناقشته لفترة الحرب الباردة أوجه الالتواء في الواقع السوفييتي التي كانت شائعة وقتها في الأحاديث السياسية الغربية، كما يفضح التأثير المحافظ في السياسات الداخلية للدول الغربية المهولة لكل من قوة السوفييت ونواياهم. وفي تأمل أخير لمستقبل روسيا، يرفض دانييلز الرأسمالية المعاصرة كطريق ملائم لروسيا، كما ينتقد الاحتضان الساذج، والموجه أيديولوجيا، لرأسمالية عدم التدخل (Laissez - faire) التي لم تعد باقية في الوقت الحاضر، والتي تقبلها بترحاب شديد أولئك الروس الذين يطلقون على أنفسهم اسم المصلحين.

ويندم دانييلز على أن التجربة السوفييتية قد ألغت مصداقية أي شيء يسمى «بالاشتراكية» لدرجة أن البديل الاشتراكي الاجتماعي، والذي يراه دانييلز ملائما تماما لروسيا، قد لا تتم تجربته على الإطلاق. ويخلص إلى القول بأن «المصلحين الشرقيين يفترضون دون تأمل، أن الاقتصاديات الرأسمالية البحتة ستحملهم بطول الطريق التنموي لألمانيا والولايات المتحدة، بينما يكونون أقرب احتمالا لأن يجدوا أنفسهم موحلين في مأزق على الطريقة الأمريكية اللاتينية من الفساد في المستويات العليا، واليأس في تلك الدنيا».

وإذا تحققت مخاوف دانييلز، فقد تصبح روسيا برازيل أخرى، ولكن بطقس سيىء. ويمثل ذلك تحذيرا يجب ألا يتم تجاهله.

وتهاوت الجدران: انهيار الشيوعية في أوروبا الشرقية

تأليف: جيل ستوكس

عرض: سابرينا بيترا راميت

يتتبع هذا الكتاب الذي ألفه المؤرخ المتميز «جيل ستوكس» تاريخ بلدان أوروبا الشرقية بداية من الغزو السوفييتي لتشيكوسلوفاكيا عام 1968 حتى الشهور الأولى من عام 1993. وقد تم

العنوان الأصلي للكتاب:

The Walls Came Tumbling Down: The Collapse of Communism in Eastern Europe, American Historical Review; April 1995

سرد القصة كثيرا بما فيه الكفاية، لكن جديد ستوكس الذي أضافه لتقريره هو اعتقاده الراسخ بأن الاجتياح السوفييتي عام 1968 كان بمثابة نقطة التحول التي ألغت إمكان الاقتباس المنظم للاشتراكية في المنطقة، كما تسبب بصورة مباشرة في انهيار الدول الشيوعية هناك عام 1989. وقد كان اقتناعه بهذا الخصوص قويا بما فيه الكفاية، لكن الغرض الأساسي لم تتم مناقشته أو استعراضه، فقد استخدم كنقطة لبداية المناقشة.

ويركز ستوكس على المسرح الرئيسي للأحداث، أي على الدراما السياسية الرفيعة لسياسات النخبة الفاشلة، وصراعات الحركات المعارضة. وتلعب مجموعات ميثاق 77 (في تشيكوسلوفاكيا)، والتضامن (في بولندا)، واللجنة الديمقراطية المجرية، أدوارا كبرى بهذا الخصوص، أما بقية الممثلين فهم إما يلعبون أدوارا هامشية (مثل محاربة نقابة تضامن في بولندا)، أو يتم تجاهلهم كلية (مثل حركة الثقافة البديلة التي تدعمها الكنيسة في بولندا، وطائفة الجاز Jazz Section في تشيكوسلوفاكيا).

ويريد ستوكس أن يسرد القصة بداية من عام 1968، وأن يفسر الأحداث التي وقعت منذ ذلك التاريخ في ضوء نقطة التحول الحيوية تلك، لكن مادة الموضوع تصاب بالإنهاك بصورة متكررة عند ذلك التحديد، حيث يرجع ستوكس تفسيراته في مواقف متعددة إلى حقب سابقة، حتى قبل المرحلة الشيوعية، قبل أن ينبذ في النهاية قالب مابعد عام 1968 كلية عند التعرض ليوغوسلافيا.

وقد ظل مؤرخو أوروبا الشرقية، لأسباب وجيهة، لمدة طويلة مغرمين بمقارنة بعض الفوارق، حتى في الأنماط الثقافية والاستراتيجيات المعاصرة، بتلك الاختلافات التي تعود جذورها إلى تجربتي الحكم العثماني وحكم آل هابسبورج. ولتجنب الجبرية الرمزية التاريخية، يصبح من الضروري ملاحظة العوامل المتعلقة بالموضوع من بين تلك الخاصة بالتجربة التفريقية، مثل الفوارق الموجودة بين تقاليد التعليم المدني، أو الاختلافات بين التقاليد القانونية المتعلقة بالملكية الفردية.

ويفيض الكتاب بالتفاؤل بالديمقراطية، بداية من اقتراح أن طلاب القرن الحادي والعشرين سيجدون أنه من الصعب عليهم تخيل سبب تقبل الناس في القرن العشرين لأنظمة الحكم الشمولية، وانتهاء بتوقع أن «الاتجاه العام للتنمية الأوروبية... هو إقامة الأنظمة التعددية». وقد يكون ستوكس محقا بالطبع، لكن تفاؤله لا يكفي لتلطيف حدة مخاوف المتشائمين، من أمثالي، بخصوص المستقبل.

ويصبح الكتاب أفضل مايكون عندما يصل إلى الفصول التي تتناول بولندا، ومما يثير السخرية ـ تلك المتعلقة بيوغوسلافيا ـ حيث يضيف ستوكس بعض المبالغات، لكنه ـ للأسف ـ لا يستشهد بأي من الكتب البحثية التي نشرت منذ اندلاع الحرب في يونيو 1991. ورغم أن ستوكس يذكر اثنتين من شخصيات القرن التاسع عشر، ليودفيت جاي (Liudevit Gai) والأسقف «سترو سماير»، في سياق وصفه لإعداد الساحة لاندلاع الحرب العرقية في عام 1991، إلا أنه ليس هناك

ذكر لأي من المناصرة العلنية للكنيسة الأرثوذكسية الصربية لمصالح صرب إقليم كوسوفو بداية من عام 1982، ولا عن التلاعب بذكريات الحرب العالمية الثانية على يدي نظام سلوبودان ميلوسيفيتش في صربيا بداية من عام 1987، واللذين لعب كل منهما دورا حيويا في تسخين المرجل السياسي. ويدعي ستوكس أيضا أن اعتراف المجتمع الأوروبي بكل من سلوفينيا وكرواتيا قد «ساهم بصورة شبه مؤكدة في زيادة تردي الأوضاع في المنطقة»، رغم أنه لا يخبرنا عن الفوائد الإيجابية التي كانت ستنتج عن استمرار العزلة الدبلوماسية لهاتين الدولتين الجديدتين.

وتعد هذه الدراسة، في رأيي، سادس كتاب بحثي منشور باللغة الإنجليزية يبحث في موضوع انهيار الشيوعية. ومع ذلك، فمن المثير للدهشة ألا يشير ستوكس لأي من تلك الكتب المنشورة سابقا، أو حتى يعترف بوجودها، رغم أن جميعها قد تم نشرها قبل أن ينتهي من إعداد مخطوط كتابه (في فبراير 1993، كما يتضح من ملاحظاته). وما يصيب المرء بقدر أكبر من التحيز هو التقريظ الذي كتبه جون ر. لامب على غلاف الكتاب، والذي يصفه بأول تقرير بحثي عن ثورات عام 1989 يذكر تقريرا عن الأحداث الجارية منذ عام 1968. ولا يصدق هذا الادعاء سوى من المنظور شديد التحذلق، وتحديدا، بمعنى أنه بسبب اتخاذ كل من الباحثين لنقطة مختلفة لبداية بحثه (عام 1945، على سبيل المثال، بالنسبة لديفيد ماسون، وعام 1980 بالنسبة لي، وعام 1987 بالنسبة لإيفو باناك)، فمن الصحيح أن ستوكس هو الوحيد الذي بدأ سرد قصته بداية من عام 1968، وإذا كان ذلك هو مقصد لامب، فلم يكن يستحق الذكر.

ورغم الأخطاء التي نجدها أحيانا فيما يتعلق بالحقائق، يعد الكتاب بصورة إجمالية إنتاجا مرضيا يلقي بالعديد من الأضواء المثيرة على التطورات التي حدثت منذ عام 1968، ومن المؤكد أنه سيفيد كنص لغرف الدراسة.